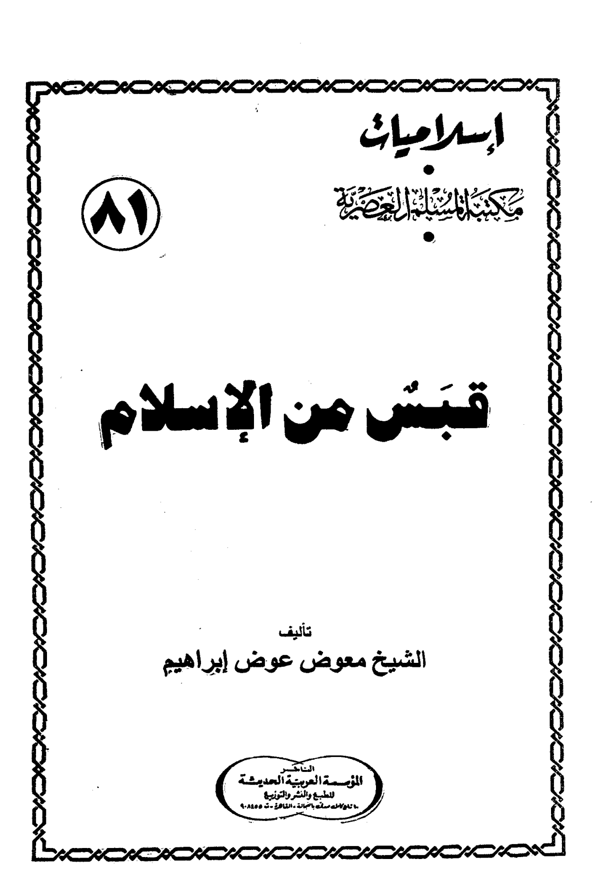


إسلاميات

مكتبة المسلم العصرية

٨١

قبس من الإسلام

تأليف
الشيخ معوض عوض إبراهيم

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

سلسلة

مكتبة المسلم العصرية

إسلاميات

●

سلسلة كتب إسلامية دورية
تعرف المسلم بكل أمور دينه

○ عقيدة ○ فقه ○ تفسير
○ حديث ○ سيرة ○ ثقافة
إسلامية ○ مشاكل العصر

بأسلوب ميسر يفهمه العامة،
ويسعد به الخاصة

●

مراجعة هيئة كبار علماء
الجمعية الشرعية للعاملين
بالكتاب والسنة بالقاهرة

●

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ــ المطابع ٨ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية ــ المكتبات ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدق الفجالة ــ ٤ شارع الإسحاق بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة ــ القاهرة ت : ٨٢٦٢٨٠ ــ ٩٠٨٤٥٥ ــ ٢٥٨٦١٩٧ ج. م. ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمدك اللهم حق حمدك ، وأستهديك ، وأستلهمك الرشاد فى الأمر كله . وأصلى وأسلم على إمام الهدى ، سيدنا محمد ، الذى أدى رسالتك ، وبلغ أمانتك ، واستعذب فيهما العذاب ، حتى جاء نصر الله والفتح ، ودخل الناس فى دين الله أفواجاً ، وقام آله وصحابته من بعده أمناء أوفياء على شريعته ، حتى جابوا بها أقطار الأرض ، وأضاءوا جوانب الدنيا ، وأقاموا بها الحجة على العالمين ..

وبعد .. فهذا كتاب (قبس من الإسلام) قدح زناده إخلاص واثق للإسلام، ويقين صادق بأنه ، وحده ، أمل الدنيا فى حيرتها واضطرابها اليوم ، كما كان دائماً طوق نجاتها وأمل هداها !

ولقد مزج الإسلام بين الدين والدنيا على صورة لم تعرفها الحياة من قبله ، ولن تعرفها فى غيره ، وهى توفر للناس عناصر رفاهيتهم فى الحياتين ، وسيادتهم فى الدارين ، وما نقول ذلك عن عاطفة هوجاء ، ولا تعصب أعمى . وسلوا التاريخ ... ولا يعيب الإسلام ما صنع به الغلاة والمفرطون على السواء . فكلاهما قد ظلمه حين أخذوه على غير وجهه الصحيح ، وقام عملهم حجة للذين ظلموه مرة أخرى بما هو منه أنصع جبيناً ، وأبيض صحيفة .

إنه ليسيء بالإسلام وللإسلام من جهلوا مقاصده ، ومراد الله به من أهله ، والذين يقتحمون أقداسه ، ويحرفون فيه الكلم عن مواضعه بالحقد والهوى ، والذين

لا يقبلون وساطته فى دعم أركان الحياة التى اعتبرها الله تعالى وهو يروى مقالة قوم قارون :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين »(١) .

و (قبس من الإسلام) محاولة ليست الأولى ، ولن تكون الأخيرة — إن شاء الله — لرد الناس إلى دين الله ، وتبصيرهم بالشريعة البانية الحانية ، وإقامة الدليل كفلق الصبح رقة ونوراً ، على سعة الإسلام وشموله وإحاطته بما ينبغى للحياة الطيبة من وسائل .

وأذكر هنا كلمة رئيس لجنة الدستور الهندى :

« كل دستور مهما كانت حسناته ، من المستطاع إن ينقلب إلى سيئات ، إذا نفذه الحاكم الفاسد » .

فهل يدرك المتحدثون بالإسلام ، الدلالة الكبرى فى هذه الكلمة ؟!

وأسأل الله أن ينفع بهذا الجهد المتواضع فى سبيله ، وأن يعين على أمثاله .

والحمد لله رب العالمين .

معوض عوض إبراهيم

---

(١) سورة القصص ، الآية ٧٧

بين يدى الكتاب

قبس من الإسلام قد أخلصته   عملا لوجه الله والإسلام
لم أبغه قولا يروق لسامع   كصنيع من فُتنوا بسرْد كلام
لكنه روح من الإيمان فى الآدا   ب والتشريع والأحكام
ومناهج للعيش بين سعادة   وسيادة ورشادة وسلام
وصحائف غُرّ من السلف الألى   هم أُسوة شماء للأقوام
وإشادة بالعاملين وطعنة   لحشا العِدا بالباتر الصمصام
والباتر الصمصام عندى حجة   وضّاءة ليست بحد حسام
يا ليت قومى يعلمون من العدا   فيخاصمون الجاحد المتعامى
لكنهم يبغون عندهم الرِّضى   ويسارعون لمشرب وطعام
ويُغبرون وجوههم بترابهم   ويمرِّغون الرأس فى الأقدام
أعداؤنا كثر خلال صفوفنا   والشر منهم مستطير نامى
وهناك قوم يرجفون بديننا   ويرونه نمطاً من الأوهام
كذبوا ، فدين الله طوق نجاتهم   وشفاء ما يجدون من آلام
سعدتْ به الدنيا وروّى قلبها   المحرور من يمناه أوْفى جام
حتى تنكبت الطريق ورابها   فيه مقالة حاقد هدام
دين السلام الحق شرعة أحمد   إنى أذكِّر من يُسيغ كلامى

* * *

قبس من الإسلام قد أخلصته   عمـلا لوجـه الله والإسلام
عملا حشدت له صفاء طـوية   فى قصد داعيـة بجـد نامى
وقراءة كانت هواى ولم يزل   كلفى بها هو غايتى ومـرامى
لم تُسلنى عنها صبابات الصبا   ومنى الشباب وخالب الأحلام
وتجارباً من كل قطر جُبْته   لله لا لهـوى ولا آثـام

* * *

أوحى إلى النحـل الإله وإنه   لم يخل من يرجوه من إلهام
أيجود مولاى الكـريم بمثـله   فيما أريـد لأمـة الإسـلام
فاشدد يديك – أخى – بدينك مخلصـاً   فهـو السبيل لعزة الأقوام

* * *

الناس امام وصايا الكتاب والسنة

الصراع موصول بين الحق والباطل منذ كان الناس ، وأصوات الإثم تحاول أن تخفى فى ضجيجها وجلبتها ، صوت الخير ، وما زالت الحرب مشبوبة الأوار بين هواتف الضمائر الحية ، وبين دواعى السوء فى أنفس الأحياء . ولكن الله الذى جعل الحق من أسمائه ، وأقام به قواعد أرضه وسمائه ، ووصى به جميع رسله وأنبيائه ، وأنزل الكتاب بالحق والميزان ، يأبى إلا أن يديل لخير من الشر ، ويأخذ للعرف من النكر وإن تراخى الزمن ، وتباعدت جوانب حلم الله .

قال تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال »[1] .

ومن نفيس ما قرأت فى الآية قول الإمام ابن قيم الجوزية فى كتابه (أعلام الموقعين) ج ٢ ، ص ١٨١ — ١٨٢ :

(شبه الله الوحى الذى أنزله لحياة القلوب والأسماع والأبصار ، بالماء الذى أنزله لحياة الأرض بالنبات ، وشبه القلوب بالأودية ، فقلب كبير يسع علماً عظيماً كواد كبير يسع ماء كثيراً ، وقلب صغير إنما يسع بحسبه ، كواد صغير ، فسالت أودية بقدرها ، واحتملت قلوب من الهدى والعلم بقدرها ، وكما أن السيل إذا خالط الأرض ومر عليها احتمل غثاء وزبداً — مما يطفو على وجه الماء — فكذلك الهدى والعلم ! إذا خالط القلوب أثار ما فيها من الشهوات والشبهات ، ليقلعها ويذهبها كما يثير الدواء وقت شربه من البدن أخلاطه ، فيتكدر بها شاربه ، وهى من تمام نفع الدواء ، فإنه إنما أثارها ليذهب بها ، فإنه لا يجامعها ولا يشاركها . وهكذا يضرب الله الحق والباطل .

---

(١) سورة الرعد ، الآية ١٧

... ثم ذكر المثل النارى فقال : « ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله » وهو الخبث الذى يخرج عند سبك الذهب والفضة والنحاس والحديد ، فتخرجه النار وتميزه ، وتفصله من الجوهر الذى ينتفع به ، فيرمى ويطرح ويذهب جفاء — متلاشياً — ؛ وكذلك الشهوات والشبهات ، يرميها العلم والهدى من قلب المؤمن ويطرحها ويجفوها ، كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد والغثاء والخبث ، ويستقر فى قرار الوادى الماء الصافى الذى يستقى منه الناس ويزرعون ويسقون أنعامهم كذلك يستقر فى قرار القلب وجذره الإيمان الخالص الصافى الذى ينفع صاحبه ، وينتفع به غيره . ومن لم يفقه هذين المثلين ولم يتدبرهما ويعرف ما يراد منهما فليس من أهلهما ... » .

وصدق الله العظيم : « بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق »[(1)] ، والويل للذين تقعدهم عن النهوض إلى معالى الأمور ، ومكارم الأخلاق ، نفوس ترد البصائر والأبصار إلى بنى عبد الدار ، وقد دعاهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه، مرات إلى الإسلام ، فلم يستجب له غير رجلين ! وقال القوم : (نحن صم بكم عمى عما جاء به محمد لا نسمعه ولا نجيبه) ، فوضعهم الله فى مكانهم بين مخلوقاته ، فقال : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم. ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون »[(2)] .

... كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يعقلون عنه ما يريد ، ويتقبلون ما يبلغهم من أمر ربه بقبول حسن ، فلا يكون حظهم مما علموه أقوالا تنفرج عنها الشفاه ، وتنطلق بها الألسنة فحسب ، ولكنها تسارع بهم ، مع ذلك ، إلى الأعمال التى تنبئ عما أشرق فى قلوبهم من إيمان صادق ، وما جاش فى صدورهم من إخاء واثق ، فما تصلح إلا عليهما الحياة ، ولا يرضى بغيرهما الله ، ونعوذ بالله من علم لا ينفع ، ونفس لا تشبع ، وقلب لا يخشع ، ودعاء لا يستجاب له .

أجل .. كانوا يعرضون أنفسهم على كتاب الله ، كلما اعتزموا أمراً ، أو استهدفوا

(١) سورة الأنبياء ، الآية ١٨

(٢) سورة الأنفال ، الآيتان ٢٢ و ٢٣ ، أخرجه ابن كثير عن ابن جرير فى تفسيره بسنده ، ج ١٣

مراداً . فالقرآن دستور كامل ، ومنهاج إلهى حافل بحلول مشكلات الحياة ، ومسائل الحاضر والمستقبل ، ومثلات الغابرين — عقوبات المكذبين منهم ، وفيها بصائر وذكرى للذاكرين — ثم خلفت من بعد هذا الرعيل الصالح خلوف ، نهجوا نهجهم وآخرون صدوا عن سبيل الله ، والتمسوا الهدى من غير وصاياه ، فعميت عليهم الأنباء ، وتفرقت بهم السبل ، وظنوا أنهم على شيء من القوة والمنعة ، ومن الاستقرار والسعة ، وكذبوا . ففى كتاب الله وسنة رسوله — وحدهما — الهدايات التى تضىء المسالك ، والنجاة مما يعرض من عوائق ومهالك : « فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى • ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً[1] ونحشره يوم القيامة أعمى • قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً • قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى • وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى »[2] .

... وادع الصحابى الجليل (جابر بن سليم) يحدثنا عن استهداء أوائلنا للإسلام ، وفزعهم إليه ، كلما أشكل أمر ، وأعضلت حال ، وكيف كانوا — نضر الله وجوههم — تهزهم الموعظة الحسنة ، وتسعدهم النصيحة الصادقة ، فيقول عمر : (رحم الله امرءاً أهدى إلىّ عيوب نفسى) ، ويبقى ذلك سلوكاً راشداً فى عصور الخير ، حتى يقول ابن عطاء الله السكندرى : (صديق لك كلما لقيك ذكرك بعيب فيك ، خير من صديق لك كلما لقيك وضع فى كفك ديناراً) !

وروى ابن عبد البر فى كتابه (جامع بيان العلم) عن إبان بن سليم قال : (كلمة حكيمة لك من أخيك ، خير لك من مال يعطيك ، لأن المال يطغيك والكلمة تهديك) !

قال جابر : ركبت قعودى ، ثم أتيت مكة أطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم فدلونى عليه ، فإذا هو يجلس على فراش من صوف ، فيه خطوط حمر ، فقلت : السلام عليك يا رسول الله . فرد التحية بأحسن منها . فقلت : إنا معشر أهل البادية ، قوم فينا الجفاء والغلظة ، فعلمنى شيئاً مما علمك الله عز وجل ، ينفعنى الله به . فقال :

(١) الضنك : الشدة والضيق . وتذكر المعيشة الضنك فى مقابلة الحياة الطيبة التى وعدها الله عباده المؤمنين : « فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » سورة النحل ، آية ٩٧

(٢) سورة طه ، الآيات ١٢٣ — ١٢٧

يا جابر ، اتق الله ، ولا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه منبسط وأن تفرغ من دلوك فى إناء المستقى ، وإن سبك أحد بما لا يعلم منك ، فلا تسبه أنت بما تعلم منه ، فإن الله جاعل لك أجراً ، وجاعل عليه وزراً ، ولا تسبن شيئاً مما خولك[١] الله عز وجل . قال جابر : فوالله ما سببت بعد وصاة رسول الله صلى الله عليه وسلم شاة ولا بعيراً[٢] . ! !

... لقد ربا الإيمان فى قلب الرجل ، واستجاب لهواتف ضميره ، فصارح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأمر يعرف أمثاله الكثيرون من أنفسهم ، ويجدون أفدح منه وأنكى فى ذواتهم ، فأكرم الرسول وفادته ، وقضى حاجته ، ومضى جابر بأنفس ما عرفت الحياة ، بعد كلام الله ، مضى بوصاة نبوية مضيئة ، ملكت عليه أقطار نفسه ، فلم ينفذ إليها النسيان ، ولا عدت عليها عوادى الزمان ، حتى لقى ربه راضياً مرضياً !

فلنسمع إليه ، مرة أخرى ، وهو يقول : (فوالله ما سببت بعد وصاة رسول الله صلى الله عليه وسلم شاة ولا بعيراً) .

لنعلم أن الإيمان ، حين تبهر آيته ، وتستبين هدايته ، إنما يوجب أن تصغى إليها الأسماع ، وتأذن لها القلوب ، وتضن بها على التفلت والضياع . فالغفلة عن الله وآياته ضلال مبين .. ورحم الله القائل : (مساكين أهل الغفلة ... خرجوا من الدنيا ، وما عرفوا أطيب ما فيها . قيل : وما أطيب ما فيها ؟ قال : محبة الله والأنس به ، والشوق إلى لقائه ، ومعرفة أسمائه وصفاته) .

ولقد أدب الله المؤمنين فقال : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ، ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون »[٣] . وذم سبحانه أقواماً فقال : « نسوا الله فنسيهم ، إن المنافقين هم الفاسقون »[٤] .

---

(١) خولك : أعطاك تفضلا .
(٢) أبو داود ، والترمذى ، والنسائى بألفاظ مختلفة .
(٣) سورة الحشر ، الآيتان ١٨ و ١٩ (٤) سورة التوبة ، الآية ٦٧

... إن جابراً ، الذى وعظته وصاة رسول الله ، مثل من أوائلنا الذين كانوا يسمعون شطر آية من القرآن الكريم ، فتهديهم من ضلال ، وتعافيهم من كلال واعتلال ، وتئول بهم إلى خير مآل على كل حال .

قال البلوى فى ج ٢ ص ١٤١ من كتابه ألف با ...

قرأت على الحافظ رحمه الله فى كتاب الأربعين للثقفى رضى الله عنه ، متصلا بسنده إلى عطاء رضى الله عنه قال : دخلت أنا وابن عمر على عائشة رضى الله عنها ، فقال ابن عمر : حدثينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : فبكت ثم قالت : أتانى فى ليلتى التى هى ليلتى ، فألصق جلده بجلدى ثم قال : يا ابنة أبى بكر ، ذرينى أتعبد لربى عز وجل ، فقلت : إنى أحب قربك ، ولكنى أوثر هواك ، فقام إلى قربة فى البيت فتوضأ ، ولم يكثر من صبِّ الماء ، ثم قام ، فافتتح القراءة ، فبكى حتى جرت دموعه على خده ، ثم جلس فحمد الله وأثنى عليه ، فبكى حتى بلغت دموعه حجره ، ثم بكى حتى بلغت دموعه الأرض ، أو أصابت الأرض ، فجاء بلال وهو يبكى ، فقال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ، وما يمنعنى وقد أنزل الله علىَّ البارحة آية : « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ... » حتى انتهى إلى قوله : « سبحانك فقنا عذاب النار » . ثم قال : (ويل لمن قرأها ثم لم يتفكر فيها)[1] ! !

وكم فى صحابة سيدنا محمد من أمثال صعصعة بن معاوية ؟ !

لقد قرأ عليه النبى صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »[2] ، فقال صعصعة : حسبى ، لا أبالى أن لا أسمع غيرها ! رواه الإمام أحمد والطبرانى فى الكبير .:.

أى أنها كفاية من تذكير بأن الله يجزى بالخير خيراً وبالسوء سوءاً ، فلا يظلم مثقال ذرة ! !

---

(١) راجع مع المصدر السابق تفسير ابن كثير للآيات . من سورة آل عمران ، الآيتان ١٩٠ و ١٩١

(٢) سورة الزلزلة ، الآيتان ٧ و ٨

... ولقد عمرت الخشية قلوب نصارى نجران حين زاروا النبى صلى الله عليه وسلم وقرأ عليهم القرآن ، قال تعالى : « ... وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين »(١).

وباهى سبحانه بأثر القرآن فى أقوام فقال : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً * وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث — أى تمهل كما وصفت أم المؤمنين عائشة قراءة النبى صلى الله عليه وسلم — ونزلناه تنزيلا * قل آمنوا به أولا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً * ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا * ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً »(٢).

... وكانت قريش تخشى على عبيدها وأهليها من قراءة أبى بكر رضى الله عنه فقد كانت معانى القرآن تنفذ إلى قلبه فيهيج لها بكاؤه، كما قالت عائشة فى البخارى ومسلم.

ووفد عليه رضى الله عنه جماعة من أهل اليمن ، فلما قرأ عليهم القرآن بكوا ، فقال : هكذا كنا ، حتى قست منا القلوب !

وكان ذو النورين يطيل النظر فى المصحف ويقول : (هذا كتاب ربنا ، وحق على العبد إذا جاء كتاب من سيده ، أن يطيل تأمله كل يوم) .

وأسلم جبير بن مطعم حين سمع الرسول وهو يقرأ فى صلاة المغرب من سورة الطور : « إن عذاب ربك لواقع ما له من دافع » .

وروى الحاكم ، وقال صحيح الإسناد ، قال بهز بن حكيم : أمنا زرارة بن أوفى رضى الله عنه فى مسجد بشير ، فقرأ المدثر ، فلما بلغ : « فإذا نقر فى الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير » خر ميتاً ! !

وكان تميم الدارى يصلى ليلة عند المقام، وكان رضى الله عنه من سروات(٣) الناس وكرامهم . فبلغ قول الله تعالى : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون »(٤) . فجعل يبكى ويردد إلى الصباح : « ساء ما يحكمون ساء ما يحكمون » .

(١) سورة المائدة ، الآية ٨٣ (٢) سورة الإسراء ، الآيات ١٠٥ — ١٠٩
(٣) سروات الناس : سادتهم . (٤) سورة الجاثية ، الآية ٢١

... ولقد قرأها الفضيل بن عياض ، فجعل يرددها ويبكي ويقول : يا فضيل ، ليت شعري ، من أي الفريقين أنت ؟!

وماذا كان الفضيل ؟! كان سارقاً ، وقاطع طريق ، وكان يتسلق جدار امرأة اعتاد زيارتها ، فسمع ليلة قارئاً يقرأ قول الله تعالى « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون »[١].

فكان كأنما سمعها من الله تعالى ، واقشعر جلده ، وتقلقل لبه ، وصاح : (آن يا رب ، آن يا رب) . وكانت ركضة مباركة إلى التوبة ، وبلغ من أمره ما يجلوه قوله : (لو سيقت لي الدنيا بحذافيرها ، ولا أحاسب عليها ، لتقذرتها ، كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها ، مخافة أن تصيب ثوبه » !!

.. وبلغ من ورع الإمام الأوزاعي أنه فطم نفسه عن الضحك والمزاح ، فقال لموسى بن أعين : (كنا نمزح ونضحك ، أما وقد صار يقتدى بنا ، فما أرى يسعنا التبسم) !

وبالغ — رضوان الله عليه — فقال لأبي جعفر المنصور : أتدري يا أمير المؤمنين ما جاء عن جدك — يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم — في قول الله تعالى : « ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .. »[٢]؟ !

إن الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك ، فكيف بما عملته الأيدي ، وقالته الألسن[٣] ؟!.

.. ومذهب الإمام — في ذلك — لا يلزم الناس ، وإنما يسعهم ما وسع (أخشاهم لله) محمداً صلوات الله عليه ، فقد كان يمزح ولا يقول إلا حقاً ، وكان يضحك حتى تبدو نواجذه ، وكان ضحكه التبسم ، كما روى البخاري وغيره .

.. فأين يذهب الغافلون ، عبيد الآراء الوافدة من الشرق والغرب ، عن قول

---

(١) سورة الحديد ، الآية ١٦ (٢) سورة الكهف ، الآية ٤٩

(٣) محاسن المساعي في مناقب الإمام الأوزاعي بتعليق الأمير شكيب أرسلان .

الله : « اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم ... » ؟ (١)

* * *

لشد ما أذهلتنا مظاهر الحياة الكذاب ، وسكرة السلطان ، وغرور المنى ، عما ينبغى أن نأخذه لدنيانا وأخرانا من كتاب الله ووصايا رسوله ، فما تقوم قواعد الحياتين إلا على أساس منهما ، وليس للذين يرتابون فى هذه الحقيقة سهم فى الإسلام ، الذى سود أهله حقباً وأجيالا ، وأرسلهم يضيئون بالقرآن جوانب الدنيا ، وهو يوجب العمل ، ويحث على التنافس فى إبلاغ الحياة أعظم درجات الكمال ، ويلفت البصائر إلى قيمة الزمن ، وسرعة انقضائه ، ويذكر بالغد الذى قد تطغى عليه شهوات الحاضر ، فيقول تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون * ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون * لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون »(٢) .

.. أليس من العار أن نغفل عن هذه المبادئ التى يذيعها فينا القرآن الكريم ، وتقوم به علينا حجته من إذاعات العالم كله مرات كل يوم !؟ وكأنه يخاطب غيرنا ، ويهيب بسوانا ممن يضيفون إلى المعارف البانية والعلم النافع جديداً بارتياد الفضاء واكتشاف المجهول ، وزحوف العلم من المختبرات والمعامل إلى واقع الناس.. وما أقسم الله بالشمس وضحاها ، والقمر إذا تلاها ، والنهار إذا جلاها ، والليل إذا يغشاها ، والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها — أى وطحوها ، أى بسطها — ونفس وما سواها ، ولا أقسم بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق ، ولا ذكر الإبل وما وراءها من الحيوانات ، ولاسمى بالحديد سورة من سور كتابه ، وما وراء كل ذلك فى الكون علواً وسفلا ، إلا ليضع فى أعناق أمة القرآن لإنعام النظر ، وإعمال الفكر ، فى كل ما يضطرب بين أيدينا ، ويكون فى متناولنا ، حتى ندرك به الكمال الممكن الذى نفسر به قول الله : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون »(٣).

---

(١) سورة الأنبياء ، الآيات ١ — ٣ (٢) سورة الحشر ، الآيات ١٨ — ٢٠
(٣) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٥

.. ولقد أنحى الله بالملامة على أقوام لا يقرأون كتاب الكون المفتوح ولا يستكنهون أسراره ، فقال تعالى : « وكأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون »(١) . فهل يعاب الإسلام اليوم بتخلف أهله فى بعض مضامير الحياة ، وهذه آياته ؟! أم يلام أحفاد جهلوا أن آباءهم كانوا كأنما يشاهدون الغيب من وراء ستر رقيق ، لأنهم كانوا يربطون أنفسهم بوحى الله وهدى مصطفاه ، وكانوا — كلهم — كذلك العربى الذى سئل : كيف آمنت بنبوة محمد ؟! فقال : لأنه ما أمر بشيء فقال العقل لا أفعل ، ولا نهى عن شيء فقال العقل أفعل .

بعد أن قال الله فى مصطفاه « وإن تطيعوه تهتدوا »(٢) صلوات الله وسلامه عليه .

* * *

ومن عجب أن دعوات (كثيرة) تصرخ بالمسلمين ، أن عيشوا فى حاضركم ودعوا ما لا يناسب الحياة من مواريثكم !! وأصحاب هذه الدعوات لا يحاولون التشكيك فى قدرة ديننا على إتاحة فرص الحياة الطيبة فحسب ، ولكنهم يرومون من وراء ذلك أن تهون علينا عقيدتنا ، فتكون أوطاننا وبلادنا أهون علينا ، فنمكنهم بذلك من رقابنا ، ولن يكون ذلك أبداً إن شاء الله ، والأيام تزيدنا بديننا استمساكاً ، وتظهر الذين يمكرون بالإسلام على حقائقهم كلما استجبنا لله ورسوله ، وكفرنا بما استوردوا من مبادئ ، وما استعاروا من أفكار ، وما لبس عليهم الأعداء من مبادئ !

يقول السيد أبو الأعلى المودودى رحمه الله : (إن استجابة دعوة الرسول ما كانت مخصوصة بالرسول صلى الله عليه وسلم فى حياته فحسب ، بل إن عين ما يقتضيه هذا الأمر « قل أطيعوا الله والرسول ... »(٣) أن كل من يكون فى منصب القضاء فى الدولة الإسلامية بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويحكم بين الناس بالكتاب والسنة) ، فإن الدعوة إلى حضور محكمته ، هى عين الدعوة إلى حضور محكمة الله والرسول ، وأن الذى يأبى حضورها ، فإنه يأبى فى الحقيقة حضور محكمة الله والرسول ، وهذا الشرح مروى فى حديث مرسل عن رسول الله نفسه عن الحسن البصرى عن سمرة بن

---

(١) سورة يوسف ، الآية ١٠٥ (٢) سورة النور ، الآية ٥٤

(٣) سورة آل عمران ، الآية ٣٢

جندب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من دعى إلى حاكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم لاحق له)[١] .

وبكلمة أخرى : (إنه لا يستحق العقوبة فحسب ، بل ليستحق فوق ذلك ، أن يقرر كونه على الباطل ، ويقضى عليه لخصمه) . اهـ[٢] .

« فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون ۝ ويل لكل أفاك أثيم ۝ يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم ۝ وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً ، أولئك لهم عذاب مهين ۝ من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم »[٣].

فهل عرف أقوام مكانهم من كتاب الله وسنة رسوله ؟ ! !

---

(١) رواه الطبرانى .
(٢) تفسير سورة النور ، ص ٢٤٤ ، للعلامة المودودى .
(٣) سورة الجاثية ، الآيات ٦ — ١٠

ميزان الايمان

الإيمان بالله تعالى والتصديق بكل ما أنزل من كتب ، وأرسل من رسل ، وسخر من ملك ، وبكل ما قدر وقضى ، هو أنفس ما يهدى إليه الإنسان فى هذه الحياة ، تصغر إلى جواره الدنيا بحذافيرها ، ولايعطيه الله إلا لمن أحبه ، روى ابن مسعود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : (إن الله يعطى الدنيا لمن يحب ولمن لايحب ، ولكنه لا يعطى الدين إلا لمن أحب ، فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه)[1]. الحديث ..

والإيمان أعظم من أن يكون دعوى تدعى ، أو زعماً يزعم ، أو قولا تنفرج عنه الشفاه ، وتنطلق به الألسنة ، دون أن يقوم عليه دليل من عمل ، وإنما هو فى حقيقة أمره إذعان لله ، ويقين ينشرح به الصدر ، ونور تنفسح له النفس ، ثم لا تلبث الجوارح أن تنطلق به إلى الخير الذى وكله الله إليها ، ورسمه لها ، وفى الأثر : (ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب ، وصدقه العمل ، وإن أقواماً غرتهم أمانى المغفرة ، حتى خرجوا من الدنيا ولاحسنة لهم ، وقالوا نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل) عن الحسن رضى الله عنه .

والإسلام هو مظهر هذا الإيمان ، الذى تطالعنا آيات القرآن ، وقد قرن الله الدعوة إليه فيها بالدعوة إلى العمل الصالح ، فهو الثمرة التى يكون الإيمان بدونها ، ضرباً من اللغو الذى لا يبالى الله به ، ولا يقيم له وزناً ! وما أشد كذب الذين يدعون الإيمان ، ويطمعون فى رحمة الرحمن ، ويتطاولون إلى منازل الجنة ، قبل أن ينافسوا المؤمنين فى أداء ما أوجب الله ، والبعد عما حذر منه ، ونهى عنه .

والقرآن الكريم يضع للمؤمنين ميزاناً لا يضل ، ويذكر لهم سمات لايخفون من بعدها على أحد ، فتتبع هذه الآيات فى مكانها من سور : البقرة وآل عمران والأنفال والتوبة والمؤمنون والنور والحجرات وغيرها .. واقرأ معى قول الله تعالى : « إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى

(١) رواه أحمد . وعند غيره : (لا يعطى الإيمان) .

ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم »[١].

... ثم ليضع الإنسان نفسه فى هذا الميزان ، وليتعرف عليها من خلال هذا البيان ، فإن وجد خيراً فليحمد الله ، الذى بنعمته تتم الصالحات ، وإن وجد غير ذلك فليبادر إلى استكمال ما ضيع قبل انقلاب الزمان ، وفوات الأوان ، وتعذر الإمكان ، وانقضاء الأجل ، فمع اليوم غد ، ولكل أجل كتاب !

* * *

إن تأمل هذه الآيات ، ليدعونا أن نسائل أنفسنا :

(هل نحن ممن يقرع ذكر الله قلوبهم ، ويهز نفوسهم ، ويملأ بالخشية منه جوانحهم ، ويقيم فيها وازع الله ، الذى يبصر من عمى ، ويهدى من ضلال ؟!) .

أم نحن من أولئك الماديين ، الذين يمرون بمشاهد كمال الله وجلاله ذاهلين ؟!

(وما أشد خسران هؤلاء بما سول لهم الشيطان وأملى لهم) .

.. وما أوفر ربح المؤمنين بمعية الله : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »[٢] وفى الحديث القدسى يقول الله عز وجل : (أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه) .. وقد ارتوى من هذا الرحيق الشهى من قال :

وغضضت طرفى عن سواك ، فلم أجد ❊ فى الكون غيرك من إله يعبد !!

وهنيئاً لهؤلاء عدة المعصوم صلوات الله عليه : (عينان لا تمسهما النار ، عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله »[٣].

ومن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله (رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه)[٤].

ولله در أبى على الدقاق ، فقد نفذ إلى هذا الجو الرفيع فقال : (إذا بكى المؤمن فقد راسل الله) !

---

(١) سورة الأنفال ، الآيات ٢ — ٤ (٢) سورة النحل ، الآية ١٢٨
(٣) رواه ابن عباس فى الترمذى .
(٤) رواه البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة .

... إننا لاندعو إلى دموع المنافقين الذين يتنقلون على جميع الموائد ، ويبدون كما تقضى الظروف والأحوال ، ويشكو المسلمون فى بعض أقطارهم من وخامة ما يجرى عليهم هؤلاء من عار ووبال .. والدمع المصنوع لايخفى !

إذا اشتبكت دموع فى خدود ... تبين من بكى ممن تباكى

ومعذرة لدموع التماسيح ، والنوائح المستأجرات .

... إنما ندعو إلى خشية الله التى مدح بها ملائكته :

« ... وهم من خشيته مشفقون »(١).

« يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون »(٢).

أجل ندعو إلى خشية الله التى ذرفت بها أعين المرسلين وصالحى المؤمنين دموعاً محا الله بها الذنوب ، وثبتت بمغفرته منهم القلوب « سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله »(٣).

... وعن العرباض بن سارية رضى الله عنهم قال : وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون ، فقلنا : يا رسول الله ، كأنها موعظة مودع ، فأوصنا ... الحديث(٤) .

وقد روى البخارى ومسلم من حديث الثلاثة نفر ، الذين آواهم المبيت إلى غار ، قول أحدهم : (اللهم إنه كانت لى ابنة عم ، كانت أحب الناس إلى ، فأردتها على نفسها ، فامتنعت منى ، حتى ألمت بها سنة من السنين ، فجاءتنى فأعطيتها عشرين ومائة دينار ، على أن تخلى بينى وبين نفسها ، ففعلت ، حتى إذا قدرت عليها (أو قعدت بين رجليها) قالت : اتق الله ، ولا تفض الخاتم إلا بحقه ، فانصرفت عنها ، وهى أحب الناس إلىّ ، وتركت الذى أعطيتها ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة ، غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها(٥) ...) .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٢٨ — (٢) سورة النحل ، الآية ٥٠

(٣) سورة الأحزاب ، الآيتان ٣٨ و ٣٩ — (٤) رواه أبو داود والترمذى .

(٥) ودعا الثانى والثالث بما حصل منهما فانفرجت الصخرة وخرجوا من الغار .

... وتلك امرأة لقيها رجل فى ليلة حالكة السواد ، فراودها عن نفسها وهى وحيدة ليس معها إلا خشيتها من ربها ويقينها فى دفاعه سبحانه عن الذين آمنوا . فقالت : أمالك زاجر من عقل ، إن لم يكن لك ناه من دين ؟! فقال الرجل : لا ، إنه لا يرانا إلا الكواكب . فقالت : فأين مكوكبها ؟!

... وأخرى أراد رجل أن يفتنها فى دينها وعفتها ، فواعدته أن يلقاها غداً عند باب المسجد ، فلما التقيا ، قالت : اخلع ثيابك وتخضع . فقال : ههنا ؟! قالت : إن الذى يرانا هنا ، يرانا فى كل مكان !

فعاد صاحبها عنها بدرس فى الخشية لم ينسه ! !

ومن الذين « وجلت قلوبهم » . قال السدى : (هو الرجل يريد أن يظلم ، أو يهم بمعصية ، فيقال له : اتق الله فيجل قلبه) .

وعن ثابت البنانى : قال أحدهم : إنى لأعلم متى يستجاب لى ؟ قالوا : ومن أين لك هذا ؟ قال : إذا اقشعر جلدى ، ووجل قلبى ، وفاضت عيناى ، فذلك حين يستجاب لى .

ومن علائم هدى المؤمن أن يتداوله الرجاء فى الله والخوف منه ، وأن يتقلب بين حالى حب الله والخشية منه ، فقد وصف الله من عبدوه من الناس فقال : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه »(١)

وبين موجبات رحمته فقال : « ... وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين »(٢) .

قال ابن القيم — نور الله ضريحه — فى تفسيره ، ص ٢٥٦ :

(ولما كان قوله تعالى : « وادعوه خوفاً وطمعاً » مشتملا على جميع مقامات الإيمان والإحسان ، وهى الحب والخوف والرجاء ، عقبها بقوله : « إن رحمة الله قريب من المحسنين » أى إنما ينال الرحمة من دعاه خوفاً وطمعاً ، فهو المحسن ، والرحمة قريب منه ، لأن مدار الإحسان على هذه الأمور الثلاثة ...) . اهـ .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٥٧ (٢) سورة الأعراف ، الآية ٥٦

وحاجة الحياة ماسة إلى خوفنا من الله .. خوفاً يعصم أنفسنا عن الفحشاء والمنكر والبغى ، وإلى حبنا لله .. حباً يسارع بنا إلى العدل والإحسان ، واللبنات الصالحة من أعمال الخير ، فى جوانب حياة استخلفنا الله فيها ، فناظر كيف نعمل كما قال المعصوم صلوات الله عليه ، وما يبالى الله بالخشية والحب حين لا يجيئان على هذا الأساس ، وهما من هذا الوجه ، مراد الله سبحانه من قوله : « نبئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم »[1] .

* * *

وهل نحن ممن يسمع آيات الله تتلى عليهم ، فتحرك وجدانهم ، وتستثير إيمانهم ، وتضاعف معرفتهم بالله ، وتجعلهم ، وجهاً لوجه ، أمام الجنة ونعيمها ، والنار وأهوالها ، وتبدو لهم الحياة على حقيقتها ، عارية من زخرفها ، الذى تزيغ به بعض الأبصار ، تنفعنا الذكرى ، ويزيدنا الله بها يقيناً ؟!

أم نحن ممن « يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها »[2] كأن فى أذنيه وقراً — أى صمماً — ولئن حكم الله على هؤلاء « بعذاب أليم » لا يعرف مداه سواه . لقد نعى ، سبحانه ، على أقوام أنهم لا يتدبرون القرآن ، فقال : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً »[3] .

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »[4] .

وفى سورة (ص) يقول تعالى : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب »[5] .

فهل تدبرنا وتذكرنا بعد أن قامت علينا الحجة من قول الله مرات فى سورة القمر : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » ؟! قبل أن يجيئنا النذير من قول ابن مسعود : (هلك من لم يكن له قلب ، يعرف به المعروف ، وينكر به المنكر) .

وأخبر سبحانه أن الجبال لو خوطبت بالقرآن كما خوطب البشر لخضعت له

---

(١) سورة الحجر ، الآيتان ٤٩ و ٥٠
(٢) سورة الجاثية ، الآية ٨
(٣) سورة النساء ، الآية ٨٢
(٤) سورة محمد ، الآية ٢٤
(٥) سورة ص ، الآية ٢٩

وخشعت به ، فقال : « لو أنزلنا هـذا القـرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله ... »(١) .

وقد تقدم بين يديك قول الله فى نصارى نجران حين سمعوا ما أنزل على الرسول :

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ علىَّ القرآن ، قلت : يا رسول الله، أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟! قال : إنى أحب أن أسمعه من غيرى . قال :

فقرأت عليه سورة النساء حتى جئت إلى هذه الآية : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً »(٢) . قال : حسبك الآن ، فالتفتّ إليه فإذا عيناه تذرفان ! !(٣) .

* * *

... ألا ليت قومى يعلمون ما ينبغى للقرآن فى مجالسنا من إنصات وتدبر ، وليتهم جعلوا حظه من ذلك ، على قدر حظ هذه الأحاديث والبيانات ، التى يحتشدون لسماعها هنا وهناك ، فمن حق القرآن الكريم أن نخلص له قلوبنا ، ونهبه رعايتنا ووعينا ، ونطيل تأمله والنظر فيه ، كما قال ذو النورين رضى الله عنه ، وأن نطيع به أفكارنا وأعمالنا ما استطعنا إلى ذلك سبيلا .. إنه دستور العقيدة ، ومنهاج العبادة ، وسجـل السـلوك الراشد ، والتاريخ المصفى ، والقصص الصادق الحافل بالعبر ، ونافع الذكر ، وإنه لكتاب الحياة كلها ، كتاب الأزل والأبد جميعاً ! !

« إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم ، وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد »(٤) .

« الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد »(٥) .

ولقد أرسل الله أضواء كتابه على الذين أنزلوا القرآن من أنفسهم منزلة ، وأحقوا

---

(١) سورة الحشر ، الآية ٢١ (٢) سورة النساء ، الآية ٤١

(٣) رواه البخارى ومسلم .

(٤) سورة فصلت ، الآيتان ٤١ و ٤٢ (٥) سورة الزمر ، الآية ٢٣

فى واقعهم حقه ، وأبطلوا باطله . والذين اتخذوه مهجوراً ، وقدموا بين يديه كلام بشر يطول هراؤه ، وتكثر أخطاؤه ، وبشر هو فى أحسن أحواله ، يجهل أضعاف ما يعلم ، ويخطئ ويصيب أحياناً !

قال تعالى : « فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ۞ ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى »[١] .

وقال : « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ۞ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ۞ قال : رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً ۞ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ۞ وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى »[٢] .

وقال لرسوله الكريم : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنـــون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد »[٣] .

* * *

إن القرآن الكريم كتاب الحياة كلها ، بل إنه يتجاوز حـدود الحياة المتعددة الوجوه إلى الآخرة وما فيها .. وقل لى ماذا أغفل القرآن من شئون حياتك ، وأمـور دنيـاك ؟!

أيستغنى عنه حاكم ؟ وهو يتدارك الحكام من زهو الحكم وسكرة الملك بمثل قول الله : « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »[٤] .

وهو يقلب أبصارهم وأفئدتهم بين آثار الأولين ومصارع الظالمين :

« ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم فى الأرض ما لم نمكن لكم وأرسلنا السماء عليهم مـدراراً وجعلنا الأنهـار تجرى من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين »[٥] .

---

(١) سورة النجم ، الآيتان ٢٩ و ٣٠ (٢) سورة طه ، الآيات ١٢٣ — ١٢٧
(٣) سورة فصلت ، الآية ٤٤ (٤) سورة ص ، الآية ٢٦
(٥) سورة الأنعام ، الآية ٦

« كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ٭ ونعمة كانوا فيها فاكهين ٭ كذلك وأورثناها قوماً آخرين »(١) .

... ولقد أينعت غراس القرآن فى أفئدة أهل الإيمان عبر الأزمان ، ووجدنا رسول الله ينصف من نفسه ، ويقول : (لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها)(٢) . ورأينا أبا بكر لا يزهيه السلطان ، ولكنه يغدو إلى جارة له — كان يتعهدها قبل أن يستخلف بحلب شياهها — فيحلبها لها وهو خليفة رسول الله ، ورأينا رجلا كعمر يحكم فيعدل فيأمن فينام تحت شجرة متوسداً حجراً ، ورأينا رجلا كعلىّ يعرف الدنيا على حقيقتها فلا تغره ولا تطغيه، ولكنه يقول لها : إليك عنى ، غرّى غيرى ..

ثم نراهم يقيمون أمر الله فى أنفسهم وفيمن يليهم من أزواج وبنين وأهلين ، بعد أن فهموا قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً »(٣) .

... روى مالك فى الموطأ قال : خرج عبد الله وعبيد الله ابنا عمر بن الخطاب فى جيش العراق ، فلما قفلا — عادا — مرا على أبى موسى الأشعرى — وهو أمير البصرة — فرحب بهما وسهل ، ثم قال : لو أقدر على أمر أنفعكما به لفعلت . ثم قال : بلى ! ههنا مالا من مال الله ، أريد أن أبعث به إلى أمير المؤمنين ، فأسلفكماه فتبتاعان به متاعاً من متاع العراق ، ثم تبيعانه بالمدينة ، فتؤديان رأس المال إلى أمير المؤمنين ويكون الربح لكما . فقالا : وددنا ذلك . ففعل .

وكتب إلى عمر أن يأخذ منهما المال ، فلما قدما باعا فأربحا ، فلما دفعا ذلك إلى عمر قال : أكل الجيش أسلفه مثل ما أسلفكما ؟ قالا : لا . فقال عمر : ابنا أمير المؤمنين ! فأسلفكما ، أديا المال وربحه .

وسكت عبد الله ، وقال عبيد الله : ما ينبغى لك يا أمير المؤمنين هذا ، لو نقص المال أو هلك لضمناه ؛ فقال عمر : أدياه ! فسكت عبد الله وراجعه عبيد الله ، وقال

---

(١) سورة الدخان ، الآيات ٢٥ — ٢٨

(٢) من حديث طويل أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما . (٣) سورة النساء ، الآية ١٣٥

ابن عوف : يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضاً ، فقال عمر : قد جعلته قراضاً ، فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه ، وأخذ ابنا عمر نصف ربح المال ! !

ليت الأكابر فى ديار وأقطار يلوون أيدى الأبناء والأصهار عما يفعلون فى صفقات تتخم أرصدتهم ، وتظلم أممهم وشعوبهم ! !

أيستغنى عنه قاض وهو يزع القضاء عن مجاملة الأصدقاء والتحامل على الأعداء بمثل قوله تعالى : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله . إن الله خبير بما تعملون »(١) .

« وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به »(٢) .

والبراهين على أثر القرآن فى أنفس تلامذة محمد ، لا يحيط بها إحصاء ، وإليك هذا المثال :

... بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة إلى خيبر ، يخرص النخل — يقدر الثمر على النخل — بينه وبين يهود خيبر ، فجمعوا له حلياً من حلى نسائهم ، فقالوا : هذا لك وخفف عنا وتجاوز فى القسم .

فقال عبد الله : يامعشر اليهود ، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلىَّ ، وما ذاك بحاملى على أن أحيف عليكم — أجور وأظلم — فأما ما عرضتم من الرشوة فإنها سحت ، وإنا لا نأكلها ! !

فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض(٣) . !

... أيستغنى عن القرآن عالم ، وهو يمده بما تقصر عنه ما دعت الحياة ، من أزلها وإلى أبدها ، من معارف وعلوم ، وهو يشحذ الهمم ، ويدعو إلى المنافسة فى العلم ، بمثل مباهاة الله بشهادة العلماء بوحدانيته ، وشهودهم معالم عظمته ، وآيات قدرته ، وتمييزهم — درجات — على المؤمنين !

قال تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم ... »(٤) .

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٨ (٢) سورة النساء ، الآية ٥٨
(٣) موطأ مالك . (٤) سورة آل عمران ، الآية ١٨

وقال : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين »(١) .

وقال : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »(٢) .

وإنما عنى الله (العلم النافع) لا العلم الذى تتبارى به دول الحضارة اليوم فى أساليب الخراب والدمار ، وزعزعة الأمن والاستقرار ، ولا العلم المادى البحت الذى يطغى بعض أهله على الخالق الرازق المحيى المميت « الحليم الغفار » العزيز القهار ، ولا العلم الذى يبرر الباطل ، ويدعم الخطأ ، ويتوسل به إلى حطام الحياة ضال جاهل ! وما أروع هـذا المثل :

« واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين • ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه » أى مال إلى الدنيا ورغب فيها « فمثله كمثل الكلب ، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون »(٣) .

قال ابن القيم : (شبه سبحانه من آتاه كتابه ، وعلمه العلم الذى منعه غيره ، فترك العمل به ، واتبع هواه ، وآثر سخط الله على رضاه ، ودنياه على آخرته ، والمخلوق على الخالق ، بالكلب الذى هو من أخس الحيوانات ، وأوضعها قدراً ، وأخسها نفساً ، وهمته لا تتعدى بطنه ، وأشدها شرهاً وحرصاً . ومن حرصه : أنه لا يمشى إلا وخطمه فى الأرض يتشمم ، ويستروح حرصاً وشرهاً ، ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزاء جسمه ، وإذا رميت إليه بحجر رجع إليه ليعضه من فرط نهمته ، وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهوان ، وأرضاها بالدنايا ، والجيف القذرة المروحة أحب إليه من اللحم ، والعذرة أحب إليه من الحلوى ، وإذا ظفر بميتة تكفى مائة كلب ، لم يدع كلباً يتناول معه منها شيئاً إلا هرَّ عليه وقهره .. إلى آخر ما قال فى أعلام الموقعين ، ج ١ ص ١٩٧ — وما بعدها ..

ومع كل هذه الحقائق فإن فى الكلب وفاء لصاحبه تقصر عنه بعض الأناسى الذين يخونون الناس ويردون الأذهان إلى قصة المرأة والرجل والكلب الذى نم منهما

(١) سورة الروم ، الآية ٢٢ (٢) سورة المجادلة ، الآية ١١
(٣) سورة الأعراف ، الآيتان ١٧٥ و ١٧٦

خيانتهما لصاحبه الغائب فقتلهما وعاد صاحبه يرى آثار الجريمه . ويقول فى شعر سائر :

فوا عجباً للكلب يحفظ حرمتى   ووا أسفى للخل كيف يخون ؟!

وما أجمل ما قال السيد المودودى عند تفسير قوله تعالى : « أو كظلمات فى بحر لجىّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ... » الآية :

(فالله تعالى يقول عن الكفار والمنافقين ، إنهم لا يقضون حياتهم منذ بدئها إلى آخرها إلا فى حال الجهل الكامل ، ولو كانوا حسب اعتبارات الدنيا ، كبار علمائها وأساتذتها الذين سبقوا سائر أهلها فى الفنون والعلوم والاختراع ، ولكن مثلهم — حسب بيان القرآن — كمثل رجل يعيش فى مكان ليس فيه إلا الظلمة ، ولا ينفذ إلى جوانبه شعاع واحد من النور ، فيظن هؤلاء أن العلم إنما هو عبارة عن اختراع القنبلة الذرية أو قنبلة الهيدروجين أو الصاروخ الطائر إلى القمر ، وأن المهارة فى الاقتصاديات والماليات والقانون والفلسفة هى العلم .. إلا أن العلم الحقيقى هو شىء آخر ليسوا على أدنى إلمام بألفه ويائه ، فهم على الجهل المحض باعتبار هذا العلم حيث أن رجلا من البدو هو أعلم منهم إن كان سعيداً بمعرفة الحق)[١] .

لا يستغنى عن القرآن حى مهما كان شأنه فى المجتمع ، ومكانه فى الحياة ، وأسعد الناس من اشتغل به وعمل له ، واحتسب عند الله جهده فى ذلك ، وما يسمعه حيناً بعد حين من سخرية الساخرين وإفك الآفكين الذين لا يستطيعون أن يحظوا أقداراً قال الله فى أهلها :

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات» [٢] .

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ﴿ وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً »[٣] .

* * *

أرانى ، وأنا أسبح بالقرآن فى سماواته ، أمام أنماط من الناس هو حجة عليهم ، فأولئك الذين يشترون بقراءته ثمناً قليلا وهم يمسخونه ويطمسون معانيه ، ويرسلون

---

(١) تفسير سورة النور ص ٢٤٠   (٢) سورة المجادلة ، الآية ٩٠

(٣) سورة الإسراء ، الآيتان ٩ و ١٠

الناس وراء التغنى به — على طريقة فلانة وفلان من المغنين — لا كما كان يقرأ محمد وصحابة محمد ، فتوجل القلوب ، ويزداد المؤمنون بالقرآن إيماناً على إيمانهم .

وهؤلاء الذين يقرأونه — على أى حال — فلا يحول بينهم وبين سقوط الهمم ، ودنىء الصفات والشيم ، كأولئك الذين قالت فيهم أم المؤمنين عائشة : (كم من قارئ للقرآن والقرآن يلعنه ، يقرأ : ألا لعنة الله على الكاذبين وهو يكذب ، ألا لعنة الله على الظالمين وهو يظلم) ! !

وأولئك الذين يتصايحون فى مجالسه ، ولا يأخذون أنفسهم بقول الله تعالى : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون »(١) ، ولكنهم يؤدون رسالة المشركين الذين قال الله فيهم : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون »(٢) .

وأولئك الذين لا ينشئون أبناءهم فى أضوائه ، ولا يجعلون قلوبهم أوعيه له .. ما أشد ظلمهم للقرآن ، وما أفظع جنايتهم على أنفسهم وأبنائهم !

... وإذا كنت أرجئ أقوال غير المسلمين فى عظمة القرآن ، وقدرته على أن يخرجنا من جاهلية القرن العشرين إلى مثل الحضارة الحقة التى أرسى قواعدها الإسلام وشد أركانها بالقرآن ، فإنى أسجل كلمة رجل كان مسئولا عن التربية فى مصر قالها لطلبة معهد التربية العالى للمعلمين فى الإسكندرية فى ١٩٥٥/١٢/٢٩ :

(إن القرآن الكريم ، كمادة علمية ، يمكن أن يفيد به المدرس تلاميذه كل الفائدة ؛ ففى القرآن القوة ، وفيه الكرامة والعزة والفصاحة ، إلى غير ذلك من الأهداف والمعلومات التى يجب أن يتعرفها الطالب عن طريق أستاذه .. وهذه هى مهمة المعلم التى أريدها الآن) .

... والكلمة على قصرها تحمل المعانى الكبيرة ، وترسم الخطوط العريضة للتربية الصحيحة التى يمكن أن تقوم على أساس القرآن ، وإن كانت توجب ما لا غنى عنه من التشريعات التى يملكها فى هذا السبيل أولوا الأمر وحدهم ، و (إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن) .. كما قال ذو النورين عثمان رضى الله عنه .

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ٢٠٤ (٢) سورة فصلت ، الآية ٢٦

ويجد الولاة لو أرادوا — ولماذا لا يريدن — طاقات إيمانية وشحنات روحية تربى أنفس الشباب وتجعلهم زينة حاضر وأمل مستقبل ، كما لا تفعل النوادى الرياضية ، ولا برامج وزارات الثقافة ووسائل الإعلام التى لا تنهل من ينابيع الإسلام قرآناً وسنة وسيرة رجال فى أمور الشباب والثقافة والآداب .

* * *

والمؤمنون « على ربهم يتوكلون » .. والتعبير فذ فى تفويضهم الأمر إلى الله دون سواه ... ذلك بأن التوكل على الله أمارة من أمارات الإيمان ، وثمرة من ثمراته ، وهو فضيلة يعلن بها المؤمن أن العزة لله جميعاً ، وأنه على كل شىء قدير ، فما يستطيع إنسان أن يدفع ضراً إلا أن يعين الله عليه ، ولا أن يكسب خيراً حتى يهيئ الله الأسباب إليه « ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم »(١) .

(غاية ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فلا يوصل إليه سواه ، ولا يدل عليه سواه ، ولا يعبد إلا بإعانته ، ولا يطاع إلا بمشيئته)(٢). قال تعالى : « لمن شاء منكم أن يستقيم ، وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين »(٣) .

... والعاقل يضع البذر فى الأرض ، ثم يتعهده بالرى وأسباب النمو جهده ، وهو يلحظ السماء — قبلة الدعاء — بطرفه ، ويتوجه بالرجاء إلى ربه ، أن يصلح عمله وكذلك يأخذ بالأسباب كل بصير .

... ولقد علم الله صفوته من خلقه — محمداً صلوات الله وسلامه عليه — أن يقول : « لا حول ولا قوة إلا بالله » ، ووصى بها الرسول صحابته ، وقال أبو ذر رضى الله عنه : (أمرنى خليلى صلى الله عليه وسلم بسبع أوصيكم بهن :

(أمرنى بحب المساكين والدنو منهم ، وأن أنظر إلى من هو دونى ، ولا أنظر إلى من هو فوقى ، وأن لا أسأل أحداً شيئاً ، وأن أصل الرحم وإن أوذيت ، وأن أقول الحق وإن كان مراً ، وأن لا أخشى فى الله لومة لائم ، وأن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإنهن أثمن كنز تحت العرش) أخرجه أحمد .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول :

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠١

(٢) إغاثة اللهفان ، ج ٢ ص ١٩٨ لابن القيم . (٣) آخر سورة التكوير .

(اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ، فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله)[١] .

... وما أكثر الذين تخدعهم قوتهم ، وتغرهم أنفسهم ، ويظنون أنهم يقدرون على الأمر ، الذى لا يمدهم الله فيه بمدد ، ولا يستعينون عليه بأحد ، وإن لهم فى قارون لعبرة ، فلقد آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة ، فأضلته النعمة عن شكر مولاه ، وقال للذين أسدوا إليه النصح ، وبينوا له طرائق الخسران والربح : « إنما أوتيته على علم عندى » ، فلم يعترف لله بفضل ، ولم يتأدب فى قول ، هنالك جاءته العاقبة التى تصرخ إلى أبد الدهر بالطغاة ، ومفتونى الحياة : « فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ٭ وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن من الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون »[٢] .

* * *

دعا الله إلى التوكل عليه على ألسنة الأنبياء والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين فحين آيس عاد نبيهم هوداً من إيمانهم قال : « إنى أشهد الله واشهدوا أنى برىء مما تشركون ٭ من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون ٭ إنى توكلت على الله ربى وربكم ، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها . إن ربى على صراط مستقيم »[٣] .

وقال شعيب لقومه بعد أن كذبوه وسخروا منه : « ... وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب »[٤] .

فلما استكبروا وخيروه : إما الردة إلى ملتهم أو الإخراج — لا محالة — من قريتهم وقال : « أولو كنا كارهين ٭ قد افترينا على الله كذباً ، إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، وسع ربنا كل شىء علماً ، على الله توكلنا ، ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين »[٥] .

(١) رواه البخارى ومسلم . (٢) سورة القصص ، الآيات ٧٦ – ٨٢
(٣) سورة هود ، الآيات ٥٣ – ٥٦ (٤) سورة هود ، الآية ٨٨
(٥) سورة الأعراف ، الآيتان ٨٨ و ٨٩

... وحين أمر موسى قومه أن يدخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لهم ، واعتذروا عن ذلك ببطش جباريها ، قال تعالى : « قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون ، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين »(١) .

... « وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين ● فقالوا على الله توكلنا ، ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين ● ونجنا برحمتك من القوم الكافرين »(٢) .

ومن قول إبراهيم عليه السلام: « ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير »(٣).

وفى مراجعة الأمم للمرسلين : « قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون »(٤) .

ويؤيس سبحانه الذين يجادلون فى آياته ، من كريم ما عنده ، ويجعله خالصاً للمؤمنين ، فيقول : « فما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون »(٥) .

* * *

إن النظرة من خلال هذه الآيات ، لتؤكد وثاقة الصلة بين الإيمان وبين التوكل على الرحمن ، وتشكك — على الأقل — فى عقيدة الذين لا يستعينون بالله فى شتى أعمالهم ، ولهذا خاطب الله رسوله بقوله : « فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين »(٦) ، ومقتضى ذلك التوجيه الإلهى أن ينظر المرء فى الأمر وسعه ، وأن يقلبه على جميع وجوهه قبل أن يمضى فيه ، ثم يسأل الله المعونة عليه .. فتلك سبيل الظفر.

... وحسب المؤمن وهو يتوكل على الله ويسأله معونته وهداه ، أن يجده — أحوج ما يكون إليه — درعه الواقية ، وعينه المبصرة ، ويده التى لا يفوتها مراد ولا يخطئها ،

(١) سورة المائدة ، الآية ٢٣
(٢) سورة يونس ، الآيات ٨٤ — ٨٦
(٣) سورة الممتحنة ، الآية ٤
(٤) سورة إبراهيم ، الآية ١١
(٥) سورة الشورى ، الآية ٣٦
(٦) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩

التوفيق أبداً : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدراً »(١) .

... والتوكل على الله ، هو فطرته التي فطر الناس عليها ، وألهمها الحيوان الأعجم ونحن مطالبون بأن نتعلم من كل شيء أحسن ما فيه حتى من الكلب وفاءه لسيده ، ومن الصقر بكوره فى طلب حوائجه ، كما جاء فى مأثوراتنا الصالحة ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : (لو توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً)(٢) ، فهى بتفويضها الأمر إلى ربها ، وسعيها أول النهار جائعة لتحصيل رزقها ، تعود إلى عشها ممتلئة البطن شبعاً ورياً .

* * *

والناس يخلطون كثيراً بين فضيلة التوكل ، ورذيلة التواكل ، وإن بينهما لبعد ما بين الخير والشر ، والحق والباطل . فالتواكليون كسالى لاينهضون إلى عمل ولايمضون فى طريق أمل ، ولكنهم يتمنون على الله الأمانى ، وقد علموا أن الله جعل لكل شيء سبباً ، وشرع لكل غاية منهاجاً ، وأن السماء لا تتفتح أقطارها بالدعاء حتى يرفعه العمل ، ورضى الله عن أبى حفص أمير المؤمنين عمر فقد قال : (لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق وهو يقول : اللهم ارزقنى ، وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة) .

ويقول : (إن المتوكل الذى يلقى حبة فى الأرض ويتوكل على الله) .

... وروى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنه : (كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون ، فإذا قدموا مكة سألوا الناس فأنزل الله تعالى : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى »(٣) .

وقد رأى أحمد بن حنبل جماعة يخرجون إلى الحج ، ولا زاد لهم ولا راحلة ، فسألهم فى ذلك .. فقالوا : نحن المتوكلون ، فقال لهم : ففيم وقوفكم عن السير ؟! فقالوا : ننتظر قافلة بنى فلان . فقال : فعلى جراب الناس توكلتم ! !

... وإذا كان هذا هو مفهوم التوكل والتواكل ، فما يقدح الأخذ بالأسباب فى إيمان المؤمنين ، ولكنه يبلغ بهم درجة الفهم عن الله : « ... فانتشروا فى الأرض وابتغوا

(١) سورة الطلاق ، الآية ٣ (٢) رواه الترمذى وغيره .
(٣) سورة البقرة ، الآية ١٩٧

من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »(١) ، « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ... »(٢) . ويرتفعون بالأخذ بالأسباب إلى مجال الاقتداء بالرسول ، فقد اتخذ فى الهجرة دليلا خريتاً — ماهراً — ودابة تبلغه المنزل، ولبس لأمته فى أحد ، وأعد دروعه فى غيرها ، وتداوى عند طبيب نصرانى وكان بذلك — وبما وراءه — سيد المتوكلين .

... فلنجمع لأنفسنا بين الوسائل المادية البشرية ، والاستعانة بواهب القوى والقدر ، والتفويض إليه كما أمر ، فذلك هو التوكل على الله الذى وصف به كملة المؤمنين .

وحذار أن تسقط هممنا دون الإيمان بالله والاستعانة به ، ففى الحياة أقوام يطيب لهم العيش ، ويبسم لهم الدهر ، وتتبرج لهم الأمانى فتكون — فى لحظات — بين أيديهم ، ولم يعرق لهم جبين ، ولم تتعب منهم يمين ، لأنهم يعيشون فى مال الآباء وجاههم ، ويغدون ويروحون ظلالا لفلان وفلان .. وهؤلاء وأولئك من معوّقات الحياة وعقباتها عن النهوض والكمال — فأين هم من هدى الله ؟! وماذا يكونون فى ميزان الإيمان ؟!

* * *

والمؤمنون « يقيمون الصلاة » على أكمل صورها ، وأحسن حالاتها ، وفى أوقاتها ؛ فالصلاة من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، فإذا رأيت جسداً لا رأس له ، ولا حيوية فيه ، استطعت أن تدرك أن الإيمان بدون هذه الفريضة ، دعوى لا يأبه بها الله! والنبى صلوات الله عليه يقول : (الصلاة عماد الدين ، فمن أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين)(٣) .

وآيات القرآن التى فرضت الصلاة ، وأوجبت النشاط إليها ، والمداومة عليها ، وعلى ما ينبغى لها من خشوع ، وبينت أن لا عذر لمتخلف وإن كان فى ميدان القتال ، وأنها تثمر لأهلها الفلاح وسعة الرزق ، وتفريج الكربات ، وتوكيد الأخوة بين المؤمنين ، وتنقية صدورهم من الغل وسخائم الشح والهلع ، آيات يشق استقصاؤها ،

---

(١) سورة الجمعة ، الآية ١٠ (٢) سورة الملك ، الآية ١٥

(٣) يعنى دين نفسه : كشف الخفا ، بسنده . وفى حديث معاذ عند أحمد والترمذى وابن ماجه : (رأس الأمر الإسلام وعوده الصلاة) ... الحديث .

ويصعب إحصاؤها ، وأحاديث الرسول — بين مرغبة فيها ومحذرة من مصاير تاركيها — شفاء لأنفس المؤمنين .

* * *

.. وحسب الصلاة شرفاً ، أنها ذكر لله ومناجاة ، ينصرف المؤمن فيها إليه سبحانه عما سواه من أموال وأعمال ، وبنين وآل ، تقول أم المؤمنين عائشة : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلس إلينا ، فيحدثنا ونحدثه ، فإذا قام إلى الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه)[1].

وقال سعد بن مالك : ما دخلت فى صلاة فعرفت من عن يمينى ، ولا من عن شمالى ، ولا شيعت جنازة قط إلا حدثت نفسى بما يقال لى ، وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال شيئاً إلا علمت أنه كما قال[2] .

وما يزال يعلق بالذاكرة أن رجلا عتب على آخر مر أمامه وهو فى صلاته ، فقال له أحد الذين أصابهم العشق بالجنون : لقد كنت أهوى فلانة وأحبها فما كان يصرفنى عنها شيء أبداً ..

.. ومن شرف الصلاة أن الله فرضها على رسوله وأمته ليلة الإسراء والمعراج ، حين طوى لرسوله أقطار الأرض والسموات ، ورفعه عن دنيا الناس ، إلى حيث لم يرتفع نبى مرسل ولا ملك مقرب ، فكانت الصلاة — وستبقى — معراجاً دائماً إلى رب العالمين ، والنبى صلوات الله عليه يقول : (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)[3].

قال ابن القيم : باب الصلاة هو الله أكبر ، يدخل العبد على ربه بالتعظيم ، كدخول الإنسان على عظماء الدنيا ، وكذا العبد إذا استشعر بقلبه أن الله أكبر من كل ما يخطر بالبال ، استحيا منه أن يشغل قلبه فى الصلاة بغيره ، فلا يكون موفياً لمعنى (الله أكبر) ، ولا مؤدياً لحق هذا اللفظ ، ولا أتى البيت من بابه ، بل الباب عنه مسدود !!

---

(١) رواه البخارى فى الأدب .
(٢) ترجمة سعد فى كتب الرجال .
(٣) رواه مسلم .

وفى هذا المعنى تجىء موعظة ابن الجوزى التى يقول فيها :

(حضور القلب أول منزلة من منازل الصلاة ، فإذا نزلته انتقلت إلى بادية المعنى ، فإذا رحلت عنها أنخت بباب المناجاة ، فكان أول قرى الضيف اليقظة ، وكشف الحجاب لعين القلب ، فكيف يطمع فى دخول مكة من لا خرج إلى البادية !! وقد تبعث قلبك فى كل واد ، فربما تفجأك الصلاة وليس قلبك عندك ، فتبعث الرسول وراءه فلا يصادفه ، فتدخل فى الصلاة بغير قلب) .

والرسول — صلوات الله عليه — يقول : (ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها)[1].

* * *

والصلاة فى الإسلام تمتاز عن الصلاة فى كل ملة ودين ، فهى تصل القلب والعقل والجوارح كلها بالخالق جل وعلا ، حين نقوم بين يديه ونقعد ، ونركع ونسجد ، ونقرأ ونتشهد — كما قال المعصوم صلى الله عليه وسلم : (صلوا كما رأيتمونى أصلى)[2]— وحين نستحضر فى صلاتنا عظمة من تعنو له الوجوه ، وتخشع له القلوب والأصوات ، فلا طبول تصم الآذان ، ولا حركات ترعش الأبدان ، ولا أناشيد وترانيم موسيقية هى فى أشكالها وصفاتها ترد الأذهان إلى ما نعاه الله على المشركين بقوله : « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية »[3] أى صفيراً وتصفيقاً .

..ولكن صلاتنا ذكر ودعاء ، وتبتل ، يستقبل المؤمن فيها مهد الإسلام الأول ، فيأخذ لنفسه مدداً روحياً جديداً من تاريخ نبينا وصحبه ، ويرتبط قلبه — كلما صلى — بقلوب المؤمنين فى شرق الدنيا وغربها ، بصورة توجب المؤازرة والمناصرة ، والتواصى بالحق كلما ألم شر أو حزب أمر .

نفهم ذلك من قول البراء بن عازب رضى الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخلل الصف من ناحية إلى ناحية ، ويمسح بصدورنا ومناكبنا ، ويقول : (لاتختلفوا فتختلف قلوبكم)[4].

---

(١) لفظ أحمد رضى الله عنه فى حديث زينب أم المؤمنين : وجعلها فى المسجد : (لتصل ما عقلت فإذا غلبت فلتنم) أخرجه أحمد وغيره .

(٢) تمامه : (فإذا حقت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم) متفق عليه .

(٣) سورة الأنفال، الآية ٣٥

(٤) رواه أبو داود بإسناد حسن .

إن حاجة المسلمين اليوم إلى الصلاة أشد منها فى أى عصر ، لتشد عرى الأخوة ، وتستأصل دواعى الخلاف الذى يطل برأسه بين الأفراد ، والجماعات ، والشعوب حيناً بعد حين ، وما أحوج المسلمين إلى الصلاة ، تحقن دماءهم ، وترسى بينهم قواعد التعاون على البر والتقوى .

.. وفى أعقاب (حنين) قسم الرسول غنائمها ، فصاح به أحد المنافقين : هذه قسمة ما أريد بها وجه الله ! فقال الرسول مغضباً : ويحك ، فمن يعدل إذا لم أعدل ؟ ! ! الحديث .

.. ووثب خالد بن الوليد ، وعمر بن الخطاب — رضى الله عنهما — يستأذنان الرسول فى ضرب عنق الرجل ، فأبى الرسول عليهما ذلك ، وقال : لا ، لعله أن يكون يصلى ! !

فقال خالد : كم من مصلّ يقول بلسانه ما ليس فى قلبه ؟ !

فقال النبى الكريم : (إنى لم أومر بأن أشقّ — أو أنقب — عن قلوب الناس)[١].

.. أرأيت كيف كانت مظنة صلاة الرجل — رغم تطاوله على الرسول — سبباً فى صيانة حياته ، وعصمة دمه ؟!

* * *

وما أعظم مقام الصلاة فى رسالة كل رسول ونبوّة كل نبى .. دعا الخليل عليه السلام ربه فقال : « ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » . وقال : « رب اجعلنى مقيم الصلاة ومن ذريتى ربنا وتقبل دعاء .. »[٢].

وذكر سبحانه إسماعيل عليه السلام فقال : « وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً »[٣] ، وتتبع فى القرآن كلام الله عن أنبيائه ورسله فستجد الصلاة من خير ما عملوا ، وما دعوا قومهم إليه ، وما وصفهم الله به .

... وإنها فى الإسلام لنور ، كما قال صلوات الله عليه : (والصلاة نور)[٤].

---

(١) رواه البخارى فى الأدب ، وهو عند غيره .

(٢) سورة إبراهيم ، الآيات ٣٧ — ٤٠ (٣) سورة مريم ، الآية ٥٥

(٤) رواه البخارى .

كان الرسول يقوم فيها — كما روى عبد الله بن الشخير — فيسمع لجوفه أزيز كأزيز المرجل من خشية الله(١).

وكان عليّ إذا قدموا إليه ماء الوضوء ، يرعد ويصفر وجهه، فلما سئل فى ذلك قال : أتدرون بين يدى من أقوم ؟!

وبركات الصلاة فى الحياة لا تتناهى ، نفزع إليها من الشدائد ، كما كان يفزع الرسول فيجد سكينة قلبه ، وثلج صدره وابن عباس يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة (٢) .

وكان يقول : (أرحنا بها يا بلال)(٣) متأولا قول الله تعالى : « واستعينوا بالصبر والصلاة ... »(٤).

وهى توجب لأهليها سعة الرزق وجميل العقبى .. ألسنا نقرأ قول ربنا : « وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى »(٥).

وهى سبيل مصاحبة الرسول فى الجنة .. قال ربيعة بن كعب الأسلمى : (قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : سل . فقلت : أسألك مرافقتك فى الجنة . فقال : أو غير ذلك ؟! قلت : هو ذاك . قال : فأعنى على ذلك بكثرة السجود)(٦).

والرسول يريد أن يحصل لصاحبه بالصلاة مراقبة الله ، التى تعين على كل خير ، وتصون من التقحم فى الشر ، ولا يريد الصلاة التى لا تنتهى إلا إلى صلاة بينا المؤمنون يفهمون قول الله : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »(٧) .

ويذكرون قول أنس رضى الله عنه . (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى السفر ، فمنا الصائم ومنا المفطر ، قال : فنزلنا منزلا فى يوم حار ، أكثرنا ظلا

---

(١) فى الشمائل للترمذى وغيره . (٢) روه البخارى .
(٣) رواه البخارى .
(٤) سورة البقرة، الآية ٤٥ و ١٥٣ : « يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة » .
(٥) سورة طه ، الآية ٣٢ (٦) رواه مسلم .
(٧) سورة الجمعة ، الآية ١٠

صاحب الكساء ، ومنا من يتقي الشمس بيده ، قال : فسقط الصوّام ، فقام المفطرون ، فضربوا الأبنية وسقوا الركاب . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ذهب المفطرون اليوم بالأجر)[1].

.. وما أشبه الصلاة بالحارس الأمين الذى يتراءى للبررة الأتقياء فيزدادون اطمئناناً على دنياهم ، ويراه اللصوص والأشرار فلا يقارفون إثماً ، ولا يعملون ما يستوجبون به تأديباً أو لوماً ، وهكذا يمكن أن ندرك بعض مراد الله من قوله : « وأقم الصلاة ، إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »[2].

وفى الأثر عن ابن مسعود : (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً) .

وتأوله ابن تيمية حتى يوافق روح الشريعة فقال : (إذا كان ما ترك الواجب منها أعظم مما فعله ، أبعده ترك الواجب الأكثر من الله ، أكثر مما قربه فعل الواجب الأقــل) .

ثم قرر ابن تيمية فى بعض فتاويه (أن الصلاة لا تزيد صاحبها بعداً ، بل الذى يصلى خير من الذى لا يصلى وأقرب إلى الله منه وإن كان فاسقاً) .

وفى البخارى أن رجلا أصاب قبلة من امرأة ، فذكر ذلك للنبى صلى الله عليه وسلم حزيناً أسفاً ، فنزل قول الله تعالى : « إن الحسنات يذهبن السيئات »[3].

وقول رسول الله فى شاب شكاه الصحابة بأنه يقيم الصلاة ثم يسارع بعدها إلى الآثام ، فقال صلوات الله عليه : (إن صلاته ستنهاه)[4].

وكان عاقبة أمر الشاب كما قال الرسول .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : أن رجلا أصاب من امرأة قبلة . وفى رواية : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنى عالجت امرأة فى أقصى المدينة ، وإنى أصبت منها ، ما دون أن أمسها ، فأنا هذا ، فاقض فىّ ما شئت . فقال له عمر : لقد سترك الله ، لو سترت نفسك ؟ قال : ولم يرد عليه النبى صلى

(١) رواه البخارى ومسلم واللفظ له .
(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥
(٣) سورة هود ، الآية ١١٤
(٤) أحمد والبزار وغيرهما .

الله عليه وسلم شيئاً ، فقام الرجل فانطلق ، فأتبعه النبي رجلا فدعاه ، فتلا عليه هذه الآية : « وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل ، إن الحسنات يذهبن السيئات ، ذلك ذكرى للذاكرين »(١).

فقال رجل من القوم : يا رسول الله ، هذا له خاصة ؟

قال : بل للناس كافة .

إن عملا يشترط فيه الإسلام طهارة الثوب والبدن والمكان ، والتجرد له عن شؤون الحياة وشواغل الإنسان ، جدير بأن يحرص عليه العقلاء ، لتتم لهم وعليهم نعمة الدين ويكونوا به بين من ذكرهم الله فى الحديث القدسى : (ليس كل مصل يصلى، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتى ، وكف شهواته عن محارمى، ولم يصر على معصيتى ، وآوى الغريب ، كل ذلك لى ، وعزتى وجلالى ، إن نور وجه المصلى لأضوأ عندى من نور الشمس ، على أن أجعل الجهالة له علماً ، والظلمة نوراً ، يدعونى فألبيه ، ويسألنى فأعطيه ، ويقسم على فأبره ، مثل عبدى المؤمن عندى كمثل الجنة لا يتسنى ثمرها ، ولا يتغير حالها)(٢)

* * *

فرض الله الصلاة على المؤمنين حتى وهم فى مواقع القتال ، ليرى أعداؤهم من توفرهم على طاعة الله فى اللحظات التى تزيغ فيها الأبصار وتبلغ القلوب الحناجر ، ما يفت فى أعضاد الظالمين ، ويسارع إليهم بالخذلان عن لقاء المؤمنين ، وما ظنك بقوم يفتحون باب النصر بقولهم : « الله أكبر » ؟ ويتعرفون إلى الله بما علمهم من قوله : « إياك نعبد وإياك نستعين »(٣) ؟ فإذا أجنهم الليل واختلط الظلام فرهبان ، وإذا تنفس الصبح واتسع النهار والتقى الجمعان ففرسان .

ولقد قذف هرقل المسلمين فى غزوة اليرموك بزهاء مائتى ألف مقاتل ، وكان عدد المسلمين يومئذ أربعة وعشرين ألفاً ، وتسلسلت الروم وأتباعهم حتى لا يطمعوا

---

(١) سورة هود ، الآية ١١٤ ، والحديث فى صحيح مسلم .
(٢) الاتهامات السنية للسيوطى . (٣) سورة الفاتحة ، الآية ٥ .

فى الحرب حينما تأخذهم أسياف الحق ، فقتل الله منهم قريباً من سبعين ألفاً ، وتفرقت فلولهم بعد ذلك فى بلاد كثيرة ..

وقال هرقل لفريق منهم : ويلكم ، أخبرونى عن هؤلاء الذين قاتلوكم ، أليسوا بشراً مثلكم ؟!

قالوا بلى ، قال : أفأنتم أكثر أم هم ؟!

قالوا : بل نحن أكثر منهم أضعافاً مضاعفة فى كل موطن !

قال : فما بالكم تنهزمون ؟

فقال شيخ من عظمائهم : نحن ننهزم وهم ينتصرون ، من أجل أنهم يقومون الليل ويصومون النهار ، ويوفون بالعهد ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويتناصفون بينهم !! أما نحن ، فنشرب الخمر ، ونزنى ، ونركب الحرام ، وننقض العهود ، ونظلم ...[1].

... وأقف بك عند قوله : إنهم يقومون الليل ، لأقرر أن من قام الليل للصلاة خف لها ونشط وداوم عليها فى أوقاتها ، وكان أحرص على الفريضة من حرصه على قيام الليل وهو دون الفريضة .

وتسأل : أين (المثقفون) و (أدعياء المعرفة) وحملة (المؤهلات العليا) و (جوائز الدول) من (نوبل) فما وراءها من (الصلاة بعامة وقيام الليل لها بخاصة) ؟!

إنهم يقومون الليل ، ولكن للأهواء ، فمتى يستبصرون فيبصرون ؟ !

وفى الصلاة فى السفر وعند خوف الفتنة ، وحذر تخطف الأعداء للمؤمنين ، يقول تعالى : « وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا ، إن الكافرين كانوا لكم عدواً مبيناً ، وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ، ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ، ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم ،

---

(١) تاريخ الطبرى وغيره .

وخذوا حذركم ، إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ٥ فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ، فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة ، إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً »(١).

.. الصلاة والصلاة والصلاة فى جميع الحالات لا يضعها عن المسلمين أمر ، وقد روى الإمام البخارى أن رسول الله أجاب من سأله : أى الأعمال أفضل ؟ فقال : الصلاة على وقتها (الحديث) ، وكنا فى الحرب الفلسطينية نوفد الوعاظ والمرشدين ليطمئنوا المجاهدين بنصر الله ، وكان بعض الكتاب يحرج صدورهم ويغيظهم ذلك ، فكتب أحدهم مرة : أرسلوا الفنانين والفنانات للترفيه بالرقص والغناء عن هؤلاء المجاهدين .

وغفر الله لهذا الذى أفضى إلى ما قدم ولأمثاله من سدنة الفن الهادم ، ودعاة الإثم والتحلل فى أقطار عربية ودول إسلامية ، وهداهم وهم يواصلون حملاتهم على الدين ، والتهوين من أقدار الداعين إليه ظالمين ! !

ومن الطرائف فى هذا المعنى أن الكسائى كتب إلى صديق له ترك المسجد :

تركت المسجد الجامع .. والترك له ريبه
فلا نافلة تقضى ولا تقضى لمكتوبه
وأخبارك تأتينا على الأعلام منصوبه
فإن زدت من الغيبة .. زدناك من الغيبه ! !

وصلوات الله وسلامه على الرسول الكريم ، فقد ذكر الصلاة يوماً ، فقال من رواية عبد الله بن عمرو بن العاص : (من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة ، ومن لم يحافظ عليها ، لم تكن نوراً ولا برهاناً ، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبىّ بن خاف)(٢) .

قال الإمام الشوكانى فى نيل الأوطار ، ج ١ : وذكر هؤلاء يدل على أن ترك الصلاة كفر متبالغ ، لأن هؤلاء هم أشد أهل النار عذاباً ، وتدل على تخليد صاحبها فى النار ! .

---

(١) سورة النساء ، الآيات ١٠١ — ١٠٣ (٢) رواه أحمد .

وليت الذين يتركـون الصـلاة ، كفراً بها وإنكاراً لهـا ، لا يذيعون فى الناس فلسفتهم فى ذلك .. فقد قال أحد الصحفيين فى بيروت لقاض شرعى عام ١٣٣٧ هـ(١) :

لماذا تقام هذه المساجـد ؟! ولم لا نستغنى عنهـا بنواد تجمع الشباب على بعض الرياضات والألعاب ؟! ولماذا نخلع أحذيتنا فى الصلاة ولا نصلى من جلوس أو قيام كما يفعل بعض الأقوام ؟!

ولاحظ لهؤلاء الآثمين فى الإسلام أبداً ، وأين هم من عدة رسول الله لبلال رضى الله عنه ؟

فقد روى أبو هريرة أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال : حـدثنى بأرجى عمل عملته فى الإسلام ، إنى سمعت دفّ نعليك بين يدى فى الجنة !! — أى صوت سيره بهما .

قال : ما عملت عملا أرجى عندى ، من أنى لم أتطهر طهوراً ، فى ساعة من ليل أو نهار ، إلا صليت بذلك الطهور ، ما كتب لى أن أصلى(٢) .

ومن ذاق عرف ، أيها المحجوبون عن ذكر الله !!

وليسبغ لها أهلها الوضوء ، وليحسنوا لهـا ركوعها وسجودها ، وليتفهموا أعمالها وأقوالهـا ، وليحققوا فى حياتهم المعنى الاجتماعى فيها .. فإنها تورث معية الرحمن ، وترتفع بالمصلين درجات فى ميزان الإيمان .

* * *

والمؤمنون ينفقون ممـا رزقهم الله :

فالأخوة الإنسانية التى فطر الله الناس عليها ، وأكثر من آياتها بمثل قوله : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ... »(٣) .

وأخـوة المؤمنين التى وصفهم الله بها فى قوله : « إنما المؤمنون إخـوة ... »(٤) توجبان التعاون والتساند بين الأحياء فى فرصة حياة لا تتكرر لأحد مرتين ، ولهـذا

(١) كان ذلك إبان بعثتى الأزهرية فى لبنان للوعظ والتدريس (١٩٥٦ — ٦٢ — ١٩)

(٢) رواه البخارى ومسلم .

(٣) صدر سورة النساء .

(٤) سورة الحجرات ، الآية ١٠

التعاون صوره وأشكاله التي تزهر بها الحياة ، ويشرق وجهها ، ومنها صورة الإنفاق الذى وصف الله به عباده المؤمنين ..

فالإنفاق فى سبيل الله ، وإغداق بعض الخير على المحرومين ، برّ ومعروف ، والذين تطيب أنفسهم بتخفيف لوعة الشاكى ، وتجفيف دمعة الباكى ، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، ووضعهم فى آيات ذوات عدد فى مكانهم من كتابه الكريم ، قال تعالى : « ... هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون »(١) .

وقال : « فإلهكم إله واحد فله أسلموا وبشر المخبتين » — والمنيبون الخاضعون لله — الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، والصابرين على ما أصابهم والمقيمى الصلاة ومما رزقناهم ينفقون »(٢) .

وقال : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرأون بالحسنة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار »(٣) .

ويخط الله لهذا الإنفاق خطته المثلى ، بعد أن فرض الصلاة والصيام ، وهيأ بهما النفوس لحب البذل ، وإعطاء الفضل ، وبر الجيران والأهل ، والإحسان بقدر الإمكان إلى بنى الإنسان ، وإن اختلفت الألسنة والألوان والأديان .

وخاطب الله الذين صلوا وصاموا بقوله : « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله ، فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء ، وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم »(٤) .

ففرض الزكاة ، وجعلها شعيرة من شعائره ، وقاعدة من قواعد دينه ، فهى أخت الصلاة — قلما افترقت عنها فى شرائع الله ، وعلى ألسنة رسله — صلوات الله عليهم — وفى القرآن بخاصة .

قال الله تعالى عن إبراهيم : « ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة ، وكلا جعلنا

---

(١) أول سورة البقرة .
(٢) سورة الحج ، الآيتان ٣٤ و ٣٥
(٣) سورة الرعد ، الآية ٢٢
(٤) سورة محمد ، الآية ٣٨

صالحين ، وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا ، وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين »(١) .

وقال عن إسماعيل : « وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة وكان عند ربه مرضياً »(٢) .

وقال على لسان عيسى : « وجعلنى مباركاً أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حياً ... »(٣) .

وذكر المفلحين فقال : « والذين هم للزكاة فاعلون »(٤) .

وحدد وسائل النصر فقال : « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور »(٥) .

وجعلها من موجبات رحمته فقال : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون »(٦) .

ويخلع الله حقيقة الإيمان عن تاركى الزكاة ، ويسلكهم مع الغافلين عن الآخرة فى سلك المشركين ، فيقول : « وويل للمشركين ، الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون »(٧) .

* * *

والزكاة حق معلوم بقدر ربع العشر من رءوس الأموال ، نقوداً كانت أو عروض تجارة .

والعشر فى الأرض التى نزرعها بلا مشقة ، وتروى فى يسر :

وربع العشر فى التى نزرعها بالآلات ، ونرويها بصعوبة . وفيما وراء ذلك ، أوجب الإسلام صدقات ، ورطب القلوب وهيأها للبذل ابتغاء مثوبة الله . ولابن حزم كلام نفيس فيما يجب لولى الأمر فى الأموال وراء ما أبرزه القرآن واستبان فى السنة وفهمه أئمة المذاهب الفقهية .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآيتان ٧٢ و ٧٣
(٢) سورة مريم ، الآية ٥٥
(٣) سورة مريم ، الآية ٣١
(٤) سورة المؤمنون ، الآية ٤
(٥) سورة الحج ، الآية ٤١
(٦) سورة النور ، الآية ٥٦
(٧) فصلت ، الآيتان ٦ و ٧

والزكاة حق معلوم يسهم به الفقير على قدر طاقته فى تبديد ضوائق يتعاون الجميع فى تبديدها ، ويخرجه القادرون للفقراء والمساكين ، فهى ليست منحة يمن بها مسديها ولا فضلا لباذل على مستحقيها ، بعد أن قال رب كل شىء ومليكه : « والذين فى أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم »[١] .

وقال : « وفى أموالهم حق للسائل والمحروم »[٢] .

والزكاة عبادة مالية ، بعد العبادتين البدنيتين — الصلاة والصيام — فهى كالتطبيق العملى ، والاختبار الذى يكشف مدى تأثر النفوس بهما ، وهى تحرر من الانعزالية ومن آثار الأنانية والأثرة اللتين ينكرهما أشد الإنكار دين يقول رسوله الكريم : (ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جواره وهو يعلم)[٣] .

وهى فريضة لا إسراف فيها ولا اعتساف . فماذا يكون ربع العشر أو نصف العشر مما خولك الله عز وجل ؟!

وهل يستوعب ما فرض الله عليك غير قدر يسير ، لا يشق على منصف ، ولا يستعصى على ذى مال ؟!

وهى فى صورتها ، شكر عميق لله ، الذى أعطاك ، ومنع سواك ، ولو شاء لوهبهم وخلاك ، وجعلك آخذاً لا معطياً !

وأين ما فرضه الإسلام بالزكاة ، وحبب إليه من الصدقات فى قول رسول الله لسعد بن مالك : (الثلث والثلث كثير)[٤] مما قاله السيد المسيح لأحد أصحابه : (أنفق مالك واتبعنى) ؟!

والزكاة والصدقات طهرة للمؤمن ، ونماء فى ماله :

« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها »[٥] .

« من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة »[٦] .

---

(١) سورة المعارج ، الآيتان ٢٤ و ٢٥ (٢) سورة الذاريات ، الآية ١٩
(٣) رواه الطبرانى والبزار بسند حسن . (٤) من حديث طويل فى مسلم وغيره .
(٥) سورة التوبة ، الآية ١٠٣ (٦) سورة البقرة ، الآية ٢٤٥

« وما آتيتم من رباً ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون »[1] .

والزكاة رابطة اجتماعية تشد الأغنياء إلى الفقراء ، وتستل سخائم الفقر والعوز ، وتثنى للمؤمنين عنان أنعم الله الذى ينفق على من أنفق ، ويزيد من تصدق : « فأما من أعطى واتقى ۝ وصدق بالحسنى ۝ فسنيسره لليسرى ۝ وأما من بخل واستغنى ۝ وكذب بالحسنى ۝ فسنيسره للعسرى ۝ وما يغنى عنه ماله إذا تردّى »[2] .

وإذا لم تستشعر هدايات الآيات التى توجب الزكاة وتمجد الصدقة ، فما ينبغى أن تنسى الصورة المعبرة التى وضع الله فيها المجرمين : « ما سلككم فى سقر ۝ قالوا لم نك من المصلين ۝ ولم نك نطعم المسكين ۝ وكنا نخوض مع الخائضين ۝ وكنا نكذب بيوم الدين ۝ حتى أتانا اليقين ۝ فما تنفعهم شفاعة الشافعين »[3] .

ولقد جرد أبو بكر جيشاً كثيفاً لقتال المرتدين ، الذين منعوا الزكاة وساوموا فى فريضة الصلاة ، ولم تثنه مراجعة عمر ، الذى قال .. فما هو إلا أن شرح الله صدر أبى بكر لذلك ، فعلمت أنه الحق ! ![4] .

فإلى الزكاة أيها الناس ، بدافع من ضمائركم ، وهتاف إيمانكم ، فلقد واجهنا مصداق قول رسول الله[5] : (وما منع قوم الزكاة إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا) . فندرت الأقوات أو محقت — فى أقل القليل — البركات ، وقلت بين الناس الثقة والمودات ، والتفت الناس إلى خارج حدودهم ، فمنيت المجتمعات بهزات .. أو كادت ، لولا الغير الأمناء الذين يقودون شعوبهم إلى الحق قوداً رفيقاً ولا يرتضون لها سوى الإسلام طريقاً ، ويرحم الله شوقى إذ يقول :

ولم أر مثل سوق الخير سوقاً ... ولا كتجارة البر اكتسابا
ولا كأولئك البؤساء شاء ... إذا جوّعتها انقلبت ذئابا

وما أجمل أن تبادر الهيئات الموثوقة إلى جمع الزكاة ، بعد أن يوجه الدعاة إلى الله المؤمنين بآيات الله ووصايا رسوله وأمثلة القدوة فى سلف هذه الأمة إلى هذه الفريضة

---

(١) سورة الروم ، الآية ٣٩ (٢) سورة الليل ، الآيات ٥ — ١١
(٣) سورة المدثر ، الآيات ٤٢ — ٤٨
(٤) رواه البخارى ومسلم . (٥) رواه ابن مسعود .

التى لا يقيم الصفوف ، ويؤلف القلوب ، ويطارد حوائج الناس سواها . وأن لا يدعوها فى متناول أيدى الذين لا يتقون الله فى جهات ومؤسسات يثور حولها كلام كثير .

* * *

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إنها ستكون بعدى أثرة — والأثرة اسم لحب المرء مصلحته وإن هلك الناس — وأمور تنكرونها ، قالوا : يا رسول الله ، فما تأمرنا ؟ قال : تؤدون الحق الذى عليكم ، وتسألون الله الذى لكم)(١) .

إلى الزكاة وقد جاءكم النذير ، حتى يضىء الله بها جوانب حياتنا ، ويرفعنا الله فى ميزان الإيمان درجات «أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم» .

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

من مقومات المجتمع الصالح

بلغ الإسلام الغاية، وجاوز المدى، وهو يفرض آدابه، ويضع قواعده للمجتمع الصالح، والتعايش الواشج، فى حياة تسودها الرحمة، ويظللها الأمن ويغمرها السلام .

فهو يبادر إلى ذلك، فور إرسائه أساس الإيمان بالله، والقيام بحق عبادته، عبادة يبتغى بها المؤمنون وجهه، ويستنجزونه وعده « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »(1) .

فيكشف الله هذه الآداب والمقومات فى آية واحدة، فيقول سبحانه :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم، إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً »(2) .

إنه سبحانه يوجب الإيمان والعمل، ويقرن العقيدة بثمرتها، ويقيم البناء ويبين سبل الانتفاع به . هذا كله تنتظمه هذه الآية، وآيات أخرى كثيرة لم ينفرد الإيمان فيها عن العمل، على وجه يؤكد أن الإيمان بدون عمل ضلال، وأن العمل بغير إيمان مضيعة وخبال .

ومن كلام الحسن البصرى رضى الله عنه : (ليس الإيمان بالتمنى، ولكن الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل) . وفيه : (وقالوا نحن نحسن الظن بالله، وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل) .

يقول الإمام علىّ كرم الله وجهه : (يهتف العلم بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل) ويقول الإمام الغزالى : (العلم بلا عمل جنون، والعمل بدون علم كيف يكون) ؟

---

(1) سورة النور، الآية ٥٥ (2) سورة النساء، الآية ٣٦

إن الإيمان بالله ، وأداء طاعاته ، هي حقه على عباده ، بعد أن خلقهم فأحسن الخلق ، ورزقهم فضاعف الرزق ، وهداهم للإيمان ، وزينه في قلوبهم ، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان . أوجب الله ذلك بقوله : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ٭ ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون ٭ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين »(١) .

« فاعبد الله مخلصاً له الدين ٭ ألا لله الدين الخالص ... »(٢) .

وروى معاذ بن جبل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أتدرى ما حق الله على عباده ؟! قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . أتدرى ما حق العباد على الله إن فعلوا ذلك ؟! قلت : الله ورسوله أعلم . قال : حقهم عليه أن لا يعذبهم بالنار)(٣) .

وعبادة الله تعبير جامع لإفراد الله بالطاعة ، والائتمار بما أمر به من خير وما نهى عنه من شر ، وأساس ذلك معرفته تعالى ، ومحبته ، والفزع إليه على كل حال .

قال ابن القيم : (فمن أنفع ما للقلب ، النظر فى حق الله على العباد ، فإن ذلك يورثه مقت نفسه والإزراء عليها ، ويخلصه من العجب ورؤية العمل ، ويفتح له باب الخضوع والذل والانكسار بين يدى ربه ، واليأس من نفسه ، وأن النجاة لا تحصل له إلا بعفو الله ومغفرته ورحمته ، فإن من حقه أن يطاع فلا يعصى ، وأن يذكر فلا ينسى ، وأن يشكر فلا يكفر) .

ثم قال : (وإذا ما تأملت حال أكثر الناس وجدتهم بضد ذلك ، ينظرون فى حقهم على الله ، ولا ينظرون فى حق الله عليهم ، ومن ههنا انقطعوا عن الله ، وحجبت قلوبهم عن معرفته ومحبته ، والشوق إلى لقائه ، والتنعم بذكره ، وهذا غاية جهل الإنسان بربه ونفسه)(٤) .

ومن كرامة الإنسان أن يراه الله حيث أمره ، ولا يجده حيث نهاه ، يراه على صراط سوى من ربه ، باراً بوالديه ، محسناً إلى قرابته ، عطوفاً على اليتامى ، الذين

(١) سورة الذاريات ، الآيات ٥٦ – ٥٨ (٢) سورة الزمر ، الآيتان ٢ و ٣

(٣) رواه البخارى ومسلم . (٤) إغاثة اللهفان ، ج ١ ، ص ٨٨

غيب الله آباءهم تحت التراب ، معواناً للمساكين ، رفيقاً بالجيران من أهله ومن غير أهله ، خيراً بشريكة حياته ، متداركاً أولئك الذين نفد زادهم ومالهم وهم فى الطريق إلى ديارهم ، حتى يبلغوا الأمن ، وأولئك الأرقاء الذين ملك إخوانهم رقابهم ، حتى يستكملوا الحرية والكرامة الإنسانية ، بقدر حظوظنا من تلكم المبرات ، يكون إيماننا بالله ، وتكون رعايته لنا فى الحياة وفيما وراء الحياة .

والعاقل الرشيد يطيل تأمل هذه الأوامر الإلهية ، ليصل نفسه بربه على أساس منها ، ويؤدى بها شكر أنعمه ؛ فإن الإيمان بالله نعمة ، وشكرها لزوم طاعته ، وإن الكفر بالله واتباع غير سبيل المؤمنين ذلة وهوان وهبوط بكرامة الإنسان عن درجة الحيوان « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون »[1] .

وما أكثر الذين يدعوهم الترف العقلى ، ويدفعهم التقليد البليد ، وترديد أفكار المولعين بكل جديد ، إلى المطالبة بالدليل على وجود الله ، ومنهم من يعيد إلى الأذهان ما أنكره الله من أن الدهر هو المحيى المميت ، وأن الطبيعة هى الخالقة الرازقة ، فقال تعالى : « وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يظنون »[2] .

إنهم يريدون أن يروا الله كما يرون المخلوقات ، كى يؤمنوا عن يقين ! وفاتهم أنهم يجهلون الجوانب الكثيرة من أنفسهم ، ومما حولهم ، وأن الله أخبر عن نفسه أنه « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير »[3] .

ومجاله سبحانه القلوب والبصائر ، لا العقول والجوارح الظاهرة .. وفى الحديث القدسى : (لم تسعنى أرضى ولا سمائى ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن)[4] .

وصدق الله العظيم : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير »[5] .

فكيف يريدون أن يروه سبحانه ، وسبيلهم — إن أرادوا — كونه العجيب ، وخلقه الفائق « هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ... »[6] .

(١) سورة الأنفال ، الآيتان ٢٢ و٢٣
(٢) سورة الجاثية ، الآية ٢٤
(٣) سورة الأنعام ، الآية ١٠٣
(٤) الإتحافات السنية ، للسيوطى .
(٥) سورة الشورى ، الآية ١١
(٦) سورة لقمان ، الآية ١١

هذا الخلق المتناسق المنتظم فى الإنسان والحيوان والنبات والجماد ، وسائر ما أبدع فى السموات والأرض ..

« تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير ¤ الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ¤ الذى خلق سبع سموات طباقاً ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ¤ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ¤ ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير »(١) .

وكيف يفهم هؤلاء ، أن تكون الطبيعة ، المخلوقة ، التى لا تبصر ولا تسمع ولا تعقل ، هى خالقة الإنسان ، المدبر ، المبصر ، السميع ، المتكلم ؟ ! وفاقد الشىء لا يعطيه ! !

ثم ما هى الطبيعة ؟! أليست أثراً لظواهر الكون ، وتفاعل المخلوقات ، من أفلاك وكواكب ، وليل ونهار ، ورياح وأمطار ، وما وراء ذلك ؟ ! أفيكون الأثر أصلا للمؤثر وموجداً له ؟!

« وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم ¤ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض ، لآيات لقوم يعقلون »(٢).

والشرك الذى نهى الله عنه ، يأخذ اليوم لوناً جديداً ، ما كان يعرفه عباد الأصنام الذين نعى الله عليهم عملهم فقال : « واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً »(٣).

إنه يأخذ لون الفناء فى الآخرين ، واعتقاد أنهم ينفعون أو يضرون ، والله وحده بيده ملكوت كل شىء ، يعطى ويمنع ، ويضع ويرفع ، ويحيى ويميت ! !

---

(١) سورة الملك ، الآيات ١ — ٥
(٢) سورة البقرة ، الآيتان ١٦٣ و ١٦٤
(٣) سورة الفرقان ، الآية ٣

« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير ، إنك على كل شيء قدير »(١).

فهل بقى بعد ذلك شيء يستعبد به الناس بعضهم بعضاً ، إلا الجهل والغفلة عن الكرامة التى وهبها الله بنى آدم ؟!

وقد روى أنه لما نزل قول الله تعالى : « الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أولئك لهم الأمن وهم مهتدون »(٢) فزع الصحابة إلى الرسول وقالوا : وأينا لم يظلم يا رسول الله ؟ ! فنزل قول الله : « إن الشرك لظلم عظيم »(٣).

أجل .. إن الشرك — قديمه وحديثه — مما ينبغى أن يبرأ منه العقلاء ، وأن تخلص عقائدهم وعباداتهم إلى الله وحده ، فلا صاحبة له ولا ولد ولا والد ولا شريك له .

« وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ٥ لقد جئتم شيئاً إداً ٥ تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً ٥ أن دعوا للرحمن ولداً ٥ وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً ٥ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ٥ لقد أحصاهم وعدهم عداً ٥ وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً »(٤).

« ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ، إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون »(٥).

« وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً ، أشهدوا خلقهم ، ستكتب شهادتهم ويسألون ٥ وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا يخرصون »(٦).

« وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً »(٧).

« قل هو الله أحد ٥ الله الصمد ٥ لم يلد ولم يولد ٥ ولم يكن له كفواً أحد »(٨) .

ومعرفة الله على ذلك الأساس مصدر كل خير ، وينبوع كل نعمة ، وهى

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٢٦
(٢) سورة الأنعام ، الآية ٨٢
(٣) سورة لقمان ، الآية ١٣
(٤) سورة مريم ، الآيات ٨٨ — ٩٥
(٥) سورة المؤمنون ، الآية ٩١
(٦) سورة الزخرف ، الآيتان ١٩ و ٢٠
(٧) سورة الجن ، الآية ٣
(٨) سورة الإخلاص .

أصل أصيل فى كرامة الإنسان الذى يعلم أن الله وحده هو خالقه ورازقه ، وأنه وحده القائم على نفسه حتى يستردها ، فلا تستأخر ساعة ولا تستقدم !!

* * *

وإذا كان الإيمان نعمة — وإنه لكذلك — توجب أن تكون مع الله بالذكر والشكر والصبر على كل حال ، فإن الوالدين نعمة من نعم الله علينا ، فقد كانا طريقنا إلى الوجود ، وبفضلهما تمت لنا وسائل الحياة ، ولها أوجب الله الشكر مقروناً بشكره ، فقال : « أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير »(١).

وفى الحديث القدسى يقول الله عز وجل : (عبدى ، لم تشكرنى إذا لم تشكر من أجريت لك النعمة على يديه) .

إننا نطيع ربنا بشكرهما : ونقيم الدليل على عرفان جميلهما ، وندخر بالإحسان إليهما ما سوف نجده عند أبنائنا حين نعوّل فى أمورنا عليهم . والمعصوم صلوات الله عليه يقول : (بروا آباءكم تبركم أبناؤكم)(٢).

ولقد تعجب بعض الناس آراؤهم ، ويتصرفون التصرف الذى ينبئ عن جحود وطيش ، ويومى فيهم إلى نزق وهوس ، فإذا أراد آباؤهم أن يأخذوا بأيديهم من كبواتهم ، وأن يقيلوهم من عثراتهم ، تجهم الأبناء ، وواجهوا الآباء بشراسة وجفاء ، وراحوا يبررون أخطاءهم ، وما أعقبت من عقوق وإيذاء ، بحديث كفعالهم لا يثير غير السخط .. وإعجاب المرء بنفسه مهلكة .

وكم يواجهك من أمثال ذلك فى المجتمع الذى تتردد فى بعض جنباته صيحات الضلال وضجيج الباطل ، من دعاوى اختلاف الأجيال ، وضرورة ترك الناشئة أحراراً فيما يأخذون وما يدعون بدون هيمنة من دين أو توجيه من مسئول أمين (وكل راع مسئول عن رعيته) رواه البخارى وغيره .

وعقوق الأبناء للآباء من أفدح عللنا التى هى من آثار الغفلة عن الله ، والجهل بالدين ، وإبعاد التوجيهات الدينية عن مناهج التربية فى المدرسة والجامعة والمؤسسات المهنية ، وفى هذه الوسائل الكثيرة التى دخلت الدور وتسللت إلى المخادع .. وسلوا

---

(١) سورة لقمان ، الآية ١٤ (٢) رواه الطبرانى .

الجرائد والمجلات والراديو والتليفزيون ، هل توقف زحفها عن سحق مواريثنا الصالحة ، وصك الأسماع وقذف الأبصار بما ليس من الأعراف ولا القيم الهادية فى شيء ! !

قال لى رجل فى بيروت من نيف وثلاثين عاماً : إن ابن ابنته — وكان حاضراً معنا وهو فى الحادية عشرة من عمره — كان يحفظ نصف القرآن ويجوده على فلان — شيخ كان فى الكلية الشرعية فى بيروت — فما أن انتشر التليفزيون ببرامجه وصوره وفتنته ، حتى انصرف الفتى عن القرآن إلى هـذا اللهو ، واستمعت إلى قراءة الصغير فسرنى ترتيله ، ونصحت الرجل ، وأوصيته بالولد خيراً ، كما نصحت للصبى وبينت له أى سعادة تنتظره إذا جد فى دراسته ، وأعطى القرآن بعض عنايته ، وتحدثت مع الشيخ ومع الحاضرين بما يناسب من الحديث ! !

قرأت — منـذ قريب — أن التليفزيون فى أمريكا ، قدم خـلال أسبوع واحـد مائة وأربعة وأربعين حادث اغتيال ، ٥٣ حادث قتل مشروع ، ٣٨ حادث سرقة .. وأن أولياء أمور مائة تلميذ هالهم الأمر فتقدموا بشكوى للكونجرس الأمريكى قالوا فيها : إن ذلك يؤثر على أطفالهم ويشكل خطورة كبيرة على نشأتهم .

وتقدم إلىّ عشرات من الأصدقاء فى بيروت يرجون أن أحدث المسئولين فى خطبة الجمعة المذاعة من المسجد العمرى الكبير عن خطر برامج التليفزيون ، وعن مقدمة برنامج الأطفال التى تتكسر فى منطقها وحركاتها بصورة متكلفة ، وتقدم صغيرات فى السابعة من أعمارهن فى رقصات محمومة ، تدل على الجهد المبذول فى إخراجها .. ! ! وتقدم أطفالا فى مواقف ساخرة ، وهؤلاء وإن كانوا اليوم أطفالا فسيكونون فى غد أمهات ورجالا ، توكل إليهم جسام المهام ، وتلقى على كواهلهم مسئوليات الدين والوطن ، فهل ينهضون بهـا قادرين ؟! وأين إذاعة الشرق الأوسط لتسمع ؟!

وإذا كان الإمام علىّ يقول : (لا يسأل الجهلاء لِمَ لم يتعلموا حتى يسأل العلماء لِمَ لمْ يعلموا ...) .

فإن مسئولية الآباء والأبناء ، والحكومات والعلماء بخاصة على درجة سواء ، فى شيوع الجهالة ، وكثافة سحب الغفلة ، ففى متناول أيدى الجميع قارورة الدواء فى كتاب الله

وسنة رسوله ، وصلوات الله على النبي الذى يقول : (إن الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ أم ضيع ، حتى يسأل الرجل على أهل بيته)(١).

والإيمان هو فردوس العانى ، وقرة عينه ، وبر الوالدين منه كما قال الله : « وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً ، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة ، وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيراً » (٢).

وتفيأ رياض السنة وسلوك الأولين ، ففيهما ما يشرح صدرك ، ويعقد على بر الوالدين نيتك ، ويسارع بك إلى الإحسان إليهما وإن اختلفت الأديان والألسنة والألوان .

« وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إلىّ ثم إلى مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون »(٣).

* * *

وحق ذوى القربى مقرر ثابت فى آيات كثيرة من القرآن ، وفى آية النساء التى نتناولها بخاصة ، لأولئك الذين شدتهم إلينا رحم ماسة ، وربطتنا بهم قرابة واصلة ، أوجب الله المعروف والصلة ، وأثنى على ذلك فى آية البر ، فقال : « ... وآتى المال على حبه ذوى القربى »(٤).

وقال : « وآت ذا القربى حقه ... »(٥).

وجعل ذلك من آثار التقوى ، فقال : « واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام »(٦).

ووجه سبحانه وأدب فقال : « وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفاً »(٧).

ومدح فقال : « والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل »(٨).

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه ، وهو عند الترمذى والبخارى ومسلم .
(٢) سورة الإسراء ، الآيتان ٢٣ و ٢٤
(٣) سورة لقمان ، الآية ١٥
(٤) سورة البقرة ، الآية ١٧٧
(٥) سورة الإسراء ، الآية ٢٦
(٦) سورة النساء ، الآية الأولى .
(٧) سورة النساء ، الآية ٨
(٨) سورة الرعد ، الآية ٢١

وحكم باللعنة — وهى أشد ما عبر الله على غضبه — فقال : « والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار »(١).

إن القرابة التى ربط الله بها الناس — منذ كانوا — مرعية ، على لسان كل رسول ، وفى وصايا كل نبى ، ونحن بها أهل ، وأقارب ، وقوم ، وأولو أرحام .

« وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله ... »(٢).

وكيف نتقلب فى أعطاف النعيم ، وأهلونا تجتاحهم المحن ، وتضنيهم الشدائد ؟!

وكيف نرجو أن تتصل أسبابنا بأسباب سوانا ، وتتوطد صلاتنا بهم ، قبل أن نصل ذوينا ، ونتعرف على من يلينا ؟ ! وهم الأزر والقوة التى نبلغ بها سواء الحياة ، ونطل بها على رغد العيش . ومن كلام العرب : فإن الخوافى قوة للقوادم .

ويقول مسكين الدارمى :

أخاك أخاك ، إن من لا أخا لـه ... كساع إلى الهيجا بغـير سـلاح
وإن ابن عم القوم — فاعلم — جناحه ... وهل ينهض البازى بغير جناح ! !

ولقد رفع الله أهلية الإيمان فوق درجة البنوة ، يوم راجع نوح ربه فى ابنه الذى عصاه ، وظن أن قمة الجبل تنجيه من أمر الله ، فقال عليه السلام : « رب إن ابنى من أهلى وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين « قال يا نوح إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم ، إنى أعظك أن تكون من الجاهلين »(٣).

والراشدون يستمسكون بأهليهم ، ويتعطفون إليهم ، وهم يرون رسول الله يتقرب إلى العرب — فى أول مشهد جامع من مشاهد الدعوة — بأنهم أهله ، فلقد ناداهم قبيلة قبيلة ، وحياً حياً ، وقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه : (إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ، ولو غششت الناس جميعاً ما غششتكم). إلى آخر ما قال صلوات الله عليه ، وهو فى البخارى ومسلم .

فهل أدرك الناس مغزى قوله صلى الله عليه وسلم : (إن الرائد لا يكذب أهله) ؟!

---

(١) سورة الرعد الآية ٢٥ ، وهم من الفاسقين والخاسرين فى الآية ٢٧ من سورة البقرة.
(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٦ (٣) سورة هود ، الآيتان ٤٥ و ٤٦

وكان الناس فى الجاهلية يعتزون بالقبيلة ، ويتعصبون لها ، ولا يرون لأحد خارج حدودها فضلا . أليس يقول شاعرهم :

لا يسألون أخاهم حين يندبهم ... فى النائبات على ما قال برهانا !

فهم يسرعون إلى نجدته ظالماً أو مظلوماً . فلما جاء الإسلام تمم سيدنا محمد مكارم الأخلاق وأوجب نصرة المظلوم ، وإغاثة الملهوف ، والأخذ على يد الظالم — بلا هوادة .. مهما تكن درجة قرابته لنا ، وصلته بنا ، وترك للدنيا قوله الشريف : (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً . قالوا : يا رسول الله ، قد عرفنا كيف ننصره مظلوماً ، فكيف ننصره ظالماً ؟ ! فقال : خذوا على يديه حتى لا يتمادى فى ظلمه)[١].

وقال : (قل الحق وإن كان مراً)[٢].

والرسول بذلك ينفذ إلى مراد الله تعالى من قوله : (... ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين)[٣].

والرسول يمضى على الأساس الذى جعله الله به رحمة للعالمين ، فيقول : (ألا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم)[٤].

إنه السلام الذى يسع الناس ، لابد أن يفيض عن بر الأهل وصلة الرحم الذين قال فيهم الرءوف الرحيم : (بلوا أرحامكم ولو بالسلام)[٥].

وكم نواجه فى المجتمع من خصومات ، يشق على من ينتدبون أنفسهم لإصلاح ذات البين أن يجمعوا معها القلوب ، أو يقاربوا فيها بين وجوه الرأى ، وتزحم دور المحاكم قضايا ، بين أصهار وأقارب وأشقاء ، فى حطام من الدنيا هزيل ، وعرض من الحياة ضئيل ، ولو عرف هؤلاء وأولئك أن المرء قليل بنفسه ، كثير بإخوانه ، وأن لوطاً عليه السلام حين ألح عليه كذب مكذبيه قال : « لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد »[٦].

---

(١) رواه البخارى ومسلم . (٢) رواه البخارى ومسلم .
(٣) سورة النساء ، الآية ١٣٥ (٤) رواه مسلم .
(٥) متفق عليه ، ولفظ البخارى : (ولكن لهم رحم أبلها ببلالها) .
(٦) سورة هود ، الآية ٨٠

وأن الحق — وهو حق — لا يظهر على الباطل إلا بقوة تشد أزره ، وتسند ظهره .

وأن النبي صلوات الله عليه يقول : (من كثر سواد قوم فهو منهم) لسارعوا إلى صلة الرحم ، وبر ذوي القربى ، فالعربي القديم يقول :

بلادي — وإن جارت عليّ — عزيزة　　وأهلي — وإن ضنوا عليّ — كرام !

والنبي صلى الله عليه وسلم يسيل الدم من أعقابه ، ومن وجهه يوم الطائف ، بعد أن أغرى به أهله الغلمان والسفهاء فرموه — بأبي هو وأمي — بالحصى ، وجاءته ملائكة الله تستأمره في أن يطبقوا جبال مكة على هؤلاء . فقال لهم : (بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده ويوحده ، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)[1] .

فقالت الملائكة : صدق من سماك الرءوف الرحيم ! !

أرأيت كيف عفا عمن ظلمه ، ودعا له بالمغفرة والرحمة ، ونسبهم إليه ، فقال لقومي ، واعتذر عن عدوانهم بجهلهم ما ينبغي له ؟ ! أمور أربعة لم تكن لبشر قبله ولن تكون من بعده لأحد حتى نلقى الله ! !

والنبي يضرب لأمته — في صلة الرحم — الأمثال ، ويترك لها أهدى الأقوال ، ويمضي في ذلك قدوة طيبة للأجيال ، وما أروعه وأوفاه ، وهو يقف في نهاية (أحد) أمام جثمان عمه حمزة فيقول : (يرحمك الله يا عم ، فلقد كنت وصولا للرحم ، فعولا للخيرات) !

وهل ينسى الذاكر الواصل يوم أن جهل عليه أبو جهل ، فسبه وآذاه ، ورأت ذلك امرأة ، فاعترضت طريق حمزة وهو راجع من الصيد ، فقالت : إن أبا جهل صنع بابن أخيك كذا وكذا ، وذهب حمزة من فوره — وهو ما يزال على شركه — إلى أبي جهل ، فثأر لمحمد ، وبالغ في أذى عدو الله ، فقال : (كيف تسبه وأنا على دينه ، أقول ما يقول) ؟ !

وهكذا يزكو بر الأهل ، ويسود قومه من يحتمل جرائرهم ، ويصبر على مساوئهم ويلقى من معونة الله ومعيته ما لقي الرجل الذي جاء رسول الله فقال : (إن لي أقارب أصلهم ويقطعوني ، وأحسن إليهم ويسيئون إليّ ، وأحلم عليهم ويجهلون عليّ ، فقال

---

(١) متفق عليه . رواه البخاري في بدء الخلق ، ومسلم في الجهاد .

صلوات الله عليه : لئن كنت كما تقول فلكأنما تسفهم الملَّ — ولا يزال معك من الله ظهير ما دمت على ذلك)[1].

وليكن مسك الختام فى هذا المقام ، هذا التوجيه النبوى المضىء .

قال جابر بن عبد الله رضى الله عنه : (خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن مجتمعون فقال : يا معشر المسلمين ، اتقوا الله وصلوا أرحامكم ، فإنه ليس من ثواب أسرع من صلة الرحم ، وإياكم والبغى ، فإنه ليس من عقوبة أسرع من عقوبة بغى ، وإياكم وعقوق الوالدين فإن ريح الجنة يوجد من مسيرة ألف عام ، والله لا يجدها عاق ، ولا قاطع رحم ، ولا جارّ إزاره خيلاء ، إنما الكبرياء لله رب العالمين)[2].

* * *

ولليتامى حقوق ليس عنها مذهب .

ولقد ضرب الله الأمثال للحياة فى سرعة انقلابها وتقضيها ، وتنكرها للمطمئنين إليها ، وإعراضها عن المقبلين عليها ، فقال تعالى : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح ، وكان الله على كل شىء مقتدراً »[3].

إنها حياة وموت ، وإدراك وفوت ، وغنى وفقر ، ويسر وعسر ، وإقبال وإدبار ، وليل يصبح بجانبيه نهار ، وهى تتسع للناس وتتوافر حظوظها بقدر ما يحرصون فيها على إعطاء كل ذى حق حقه ، وأعظم الأعمال فيها أجراً ، وأبقاها عند الله وعند الناس ذخراً ، أن نتعهد اليتامى الذين فقدوا العائل ، وحرموا الكافل ، فنيسر حالهم ، ونثمر مالهم ، وندخل السرور إلى جوانحهم .

إننا بذلك نستبشر بعدة الصادق صلوات الله عليه :

(أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ... وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى ، وفرج بينهما)[4] وكافل اليتيم : القائم بأموره .

(١) صحيح مسلم . تسفهم الملّ : تضع فى أفواههم التراب الحار ، وهو كناية عن عدم انتفاعهم بما تريد أن تبرهم به .

(٢) من حديث فى الطبرانى .   (٣) سورة الكهف ، الآية ٤٥

(٤) البخارى من رواية سهل بن سعد ، رضى الله عنه . وما أعظم دلالة الإشارة بأصبعيه فى توكيد حقيقة القرب بالعمل بعد القول .

وفى رواية مسلم : (أنا وكافل اليتيم له أو لغيره هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى) رجالنا ونساؤنا سواء فى الأجر .

روى عن عوف بن مالك الأشجعى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أنا وامرأة سفعاء الخدين — حبست نفسها على أولادها حتى اغبر لونها ولم تأبه بزينتها — كهاتين يوم القيامة ، وأومأ بالسبابة والوسطى — امرأة آمت زوجها — مات وتركها أيماً — ذات منصب وجمال ، حبست نفسها على يتاماها حتى بانوا أو ماتوا)[1].

أكرم الموائد ما اتسع ليتيم ، وأطهر الأيدى ما دفعته فى طريق الرخاء والسلام .

فقد روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يحسن إليه ، وشر بيت فى المسلمين ، بيت فيه يتيم يساء إليه)[2].

وما يورث الناس أبناءهم شيئاً أعود من المال المكنوز ، من الإحسان إلى اليتامى ، واصطناع البر عندهم : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم ، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديداً . إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً »[3].

والآيتان — مع ذلك — نذير مسمع للأوصياء ، وكافلى اليتامى ، الذين لا تنبض قلوبهم بقطرة حنان ، ولا تتحرك نفوسهم بعاطفة إحسان ، بعد أن غفلوا عما أدبهم الله به فى قوله : « وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ، إنه كان حوباً كبيراً »[4] .

وقال : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح ، فإن آنستم منهم رشداً ، فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ، ومن كان غنياً فليستعفف ، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف ، فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم ، وكفى بالله حسيباً »[5].

---

(١) رواه أبو داود ، ج ٢ ، كتاب الأدب .
(٢) رواه ابن ماجه . (٣) سورة النساء ، الآيتان ٩ و ١٠
(٤) سورة النساء ، الآية ٢ — والحوب : الإثم . (٥) سورة النساء ، الآية ٦

وفى الأثر : (إن الله يغضب لبكاء اليتيم ، ويقول : يا ملائكتى ، من ذا الذى أبكى ذلك اليتيم الذى غيبت أباه تحت التراب) ؟ (واتقوا دعوة المظلوم ، ودمعة اليتيم فإنهما يسريان بالليل والناس نيام) .

وكما كان الصحابة يخافون مخالطة اليتامى والعمل فى مالهم حرجاً من عدم العدل فيها ، حتى أمرهم الله أن يأخذوا فى ذلك بتقواه ، فإن من الناس من يخشى القسوة على اليتامى وهم يحوطونهم كيلا يتسرب إليهم من سوء الأدب شىء ، وقد تكون القسوة فى بعض الأحيان أدخل فى باب البر من التدليل الذى لاتصلح معه حياة فى أحيان !

وإذا كان من أدب الإسلام أن نرفع أسواطنا حتى تكون تحت أنظار ذوينا ، وأن نضرب أولادنا على ترك الصلاة ، والتقاعس عن طاعة الله حيث يقول معلم الناس الخير : (مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم فى المضاجع)[١] فما من بأس أن نعطى اليتامى من ذلك ما نعطى أولادنا (وإنما لكل امرئ مانوى)[٢]

ومن الإنصاف أن نشيد بالدور الباسل الذى تقوم به دور الأيتام يوم كانت تشرف عليها الهيئات الخيرية ، وبعضها اليوم يقرع الوسع ويفسح مجال البر بمشروع (كافل اليتيم) إلى ما تفعله هى وهى تؤوى اليتامى ، وتشعرهم بحدب الآباء وحنان الأمهات ، وتعدهم لحياة راضية ، ومستقبل يكونون فيه بانين نافعين ، لاعالة يتكففون المحسنين .

والذين يسهمون بأموالهم وأعمالهم فى هذا المجال الإنسانى ، مأجورون من الله ، مشكورون من عباده الذين يعطفهم البر ، ويدنيهم من الناس إسداء الخير . وصدق الله العظيم : « ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم ، والله يعلم المفسد من المصلح ، ولو شاء الله لأعنتكم ، إن الله عزيز حكيم »[٣].

* * *

من هم المساكين ؟ !

يجيب الرسول جواباً كاملا فيقول : (ليس المسكين هذا الطوّاف عليكم الذى ترده اللقمة أو اللقمتان ، والتمرة أو التمرتان ، ولكن المسكين الذى لايجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس)[٤].

---

(١) رواه أحمد وأبو داود . وهو عند غيرهم بوصف (سنين) .
(٢) من حديث البخارى (وهو من أصح الصحيح) .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٢٠ (٤) صحيح البخارى ومسلم .

إنه أحد أولئك الذين أوجب الله برهم بقوله : « للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض ، يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسياهم ، لا يسألون الناس إلحافاً ... »(١).

إن لهؤلاء المساكين حقوق الرعاية فيما مر بك من آيات القرآن الكريم ، وقد أنذر الله سبحانه من يهدر حقهم ، ولا يصلح حالهم فقال : « أرأيت الذى يكذب بالدين * فذلك الذى يدع اليتيم * ولا يحض على طعام المسكين * فويل للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم يراءون ويمنعون الماعون »(٢).

ووصايا الرسول بالمساكين تفوق العد، ولا تقف عند حد ، بعد أن كان يتعاهدهم بنفسه ، ولا يغيبون عن مجالسه . وقد روى أنس بن مالك رضى الله عنه من أقوال النبى فى ذلك : (الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله ، وأحسبه قال : وكالقائم لا يفتر ، وكالصائم لا يفطر)(٣).

ويوم ضغط رسول الله على عاطفته وعلى معنى الإنسانية الجياش فى نفسه ، من أجل مصلحة الدعوة ، فرضى أن يجعل للمشركين يوماً وللفقراء من أصحابه يوماً بعد أن قال المشركون: لو طردت هؤلاء السقاط لجالسناك، فقال صلوات الله عليه: (ما أنا بطارد المؤمنين) ، فلما طلبوا كتاباً بما وافقهم عليه من إفراد يوم لكل فريق ، وجاء علىّ ليكتب ، قام الفقراء فانتحوا ناحية ، فنزل الوحى على رسول الله: « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شىء ، وما من حسابك عليهم من شىء ، فتطردهم فتكون من الظالمين »(٤).

فرمى صلوات الله عليه الصحيفة ، وقام إلى الفقراء فعانقهم(٥) .

ثم بلغت كمالات سيدنا محمد غايتها بعد أن أمره الله أن يتجاوز نطاق هذه المعاملة البارّة للفقراء إلى مجال آخر لا ينصرف فيه عنهم . قال تعالى: « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٧٣ (٢) سورة الماعون .
(٣) رواه البخارى . (٤) سورة الأنعام ، الآية ٥٢
(٥) تفسير القرطبى والنسفى والألوسى .

الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً »(١) .

ومشركو قريش — وأخلافهم فينا من كل غال مستكبر — يرددون قالة قوم نوح التى حكاها الله : « ... وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا »(٢) فعلمه الله أن يرد هذه السفاهة . فقال : « وما أنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكنى أراكم قوماً تجهلون »(٣).

« ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً ، الله أعلم بما فى أنفسهم إنى إذن لمن الظالمين »(٤).

أعرف بعض الذين تكاد أرواحهم تقفز من حلوقهم ، اشمئزازاً ، لأن فقيراً دخل مكاناً هم فيه ، أو شارك برأى فى أمر اجتمعوا له !

وأعرف رجلا كان كلما سلم عليه إنسان ، بادر فغسل يديه بالكلونيا !

وأذكر أن بعض الذين يعيشون فى ظلال الآباء وذوى الوظائف الدينية كانوا يعيبون بعض الدعاة إلى الله بأن أصدقاءهم — كما قالوا — هم من الحامين وباعة الخضرة ! !

جاهلين أنهم بهذا يرفعون قدر من عابوه بذلك ، وينزلون بأقدارهم هم — إن كانت لهم أقـدار — إلى درك المشركين الذين قالوا عن رسـول الله ما حكى الله سـبحانه : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق »(٥)

وهؤلاء يقولون ما قالوا لأنهم يضيقون ذرعاً بتغلغل الدعاة إلى الله بين الناس بشتى طبقاتهم فى المجتمع لأداء الرسالة الكريمة بشرف وإباء ، ويحرج نفوس هؤلاء الآفكين أن ينعكس نور العاملين فى كل مكان ، فيظهر عند ذلك من يعمل ومن يجهل ومن يعيش ليأكل ، وليكن الطوفان ! !

وهؤلاء ليسوا مرضى الأخلاق فحسب ، ولكن نفوسهم الصغيرة تقلق بالهم وتضنيهم ، وتهجم عليهم من جهة الفقراء بمعان هى أفتك بهم من كل علة فاتكة !

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٢٨ — فرطاً : مجاوزاً الحد ومبايناً الحق .
(٢) سورة هود ، الآية ٢٩ (٣) سورة هود ، الآية ٢٧
(٤) سورة هود ، الآية ٣١ (٥) سورة الفرقان ، الآية ٧

ويتحدث السيد مصطفى صادق الرافعى رحمه الله — فى كتابه (المساكين) عن تدليل الحياة للغنى ، وحفاوتها به ، ويرى أن ذلك من مقومات هلاكه وحتفه !! ويضرب هذا المثل :

امرأة من ذوات النعمة الغاشية فى أمريكا ، اتخذت كلباً ، فوقع منها بموضع محبة شديدة ، فاستصفته وتحفت به ، وذهبت كل مذاهبها فى ترفيهه ، وفتحت عليه من دنياها ، فنصبت له السرير ، وفرشت له الحرير ، وأبدلته سماع الموسيقى من سماع الهرير ، ومنعته العظم يعالجه ويقرضه ، وحرمته على الجوع يقيمه وينهضه ، وما زالت ترأمه وتحنو عليه ، فإذا هو يذوى ، ثم يضعف ثم يمرض ... ثم يهلك !!

... وكانت المرأة كأنما تقتله بالنعمة ، شر قتلة !

... وهكذا تهدم الدنيا الأغنياء من حيث يحسبون أن ما هم فيه هو السعادة والرخاء ، فتضر بهم — كما قال السيد الرافعى — بيد ألطف مساً من الهواء ، وأخف موقعاً من الضوء ، على حين أن صفعتها زلزلة !

* * *

ولسنا دعاة ذلة ومسكنة ، ولا شداة فقر وإقتار ، ولكننا نواسى هؤلاء إن كانوا يكرمون أنفسهم بالاحتراف والأخذ بأسباب الرزق المشروعة ، فأنبياء الله ورسله كانوا أعف عفة ، وأشرف نفساً ، من أن تكون حوائجهم عند بشر ، ومحمد صلى الله عليه وسلم يقول : (ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم)(١).

ويقول : (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده)(٢).

(عمل يده) الذى كشفه قول الله تعالى : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم »(٣).

« ولقد آتينا داود منا فضلا ، يا جبال أوبى معه والطير ، وألنا له الحديد . أن

(١) رواه البخارى . (٢) رواه البخارى .
(٣) سورة الأنبياء ، الآية ٨٠

اعمل سابغات وقدر فى السرد ، واعملوا صالحاً ، إنى بما تعملون بصير »[1].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (كان زكريا عليه السلام نجاراً) .

وقد عمل الرسول صلى الله عليه وسلم فى مال خديجة . وروى البخارى أنه رعى الغنم على قراريط لأهل مكة . وتاجر أبو بكر ، ورئى غداة انتخبه المسلمون فى سقيفة بنى ساعدة ، وهو يحمل الثياب ليبيعها كعادته ، حتى رده الصحابة وقسموا له من بيت المال النزر الذى يسد حاجة أهله ! النزر ، أيها السادة !!

وكان عمر يرى الشاب ، فإذا قيل : لاحرفة له ، سقط من عينه !

وأجر أبو الحسن نفسه لامرأة ، فاستخرج لها الماء حتى تشققت كفاه بتمرات كل دلو بتمرة !!

ولقد كان ابن عم محمد يجد فى القرض قضاء حاجته ، ولكن النفس الكبيرة تقول مع الشاعر :

لنقل الصخر من قمم الجبـــــال   أشـد علىّ من مـنن الرجـــال
يقـول المرء كسـب فيـه عار   وكل العـار فى ذل السـؤال

يقول مالك بن أنس : (حرفة فيها شىء من الدناءة ، خير من سؤال الناس) .

ولقد مر الأصمعى بإسكافى يصلح نعال الناس فى الطريق العام والرياح تسفى عليه التراب ، والبرد يضنيه ، والحر يؤذيه ، فسمعه الأصمعى يترنم قائلا :

وأكرم نفسى ، إننى إن أهنتهـا   وحقك لم تـكرم على أحـد بعدى

فقال له الأصمعى : كيف أكرمتها وهذا عملك ؟!

فجاءه الجواب قارعاً : والله لقد أكرمتها حين أغنيتها عن سؤال لئيم مثلك!

ومن أدب أهل البيت فى ذلك قول الإمام أبى عبد الله الحسين :

اغن عن المخلـوق بالخـالق   تغن عن الكاذب والصادق
واسترزق الرحمن من فضله   فليس غير الله مـن رازق
من ظن أن النـاس يغنـونه   فليس بالرحمن بالواثـق !

(١) سورة سبأ ، الآيتان ١٠ و ١١

... الاحتراف والاكتساب هي مدارج العز والشرف .. ولقد سأل سعد بن مالك الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : أوصنى وأوجز . فقال : (عليك باليأس مما فى أيدى الناس فإنه الغنى)[1]. الحديث .

وشتان بين ما نحن بسبيله من بيان حق المساكين ، وبين ما ينبغى أن يذكر فى قضايا التسول والمتسولين ، فالذين يأخذون بأسباب العزة من العمل وإن هان ، هم أصون لكرامتهم ودينهم ممن يتكففون الناس ، وتغبر وجوههم الحاجة إليهم بدون مرض مقعد ، أو عذر مجهد ، فقد يكون كذلك الذى سأل أحد الولاة فلم يجب سؤله ، فولى وهو يقول :

والله والله مرتين لحفر بئر بإبرتين !
وكنس مصر بريشتين ونزع طودين راسيين
وحمل ثورين باليدين وغسل عبدين أسودين
حتى يحور الأبيضين ونقل بحرين زاخرين
إلى صعيد بمنخلين ولا وقوفى على لئيم
يضيع منه حياء عينى !

ومن الخير أن نذكر هنا ذلك الرجل الذى جاء يسأل رسول الله ، فقال له : أما فى بيتك شىء ؟ ! قال : بلى ، حلس[2] نلبس بعضه ، ونبسط بعضه ، وقعب نشرب فيه الماء . قال : ائتنى بهما ، فأتاه بهما ، فأخذهما رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده وقال : من يشترى هذين ؟! قال رجل : أنا آخذهما بدرهم قال رسول الله : من يزيد على درهم ؟ مرتين أو ثلاثاً .

قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين . فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين ، وأعطاهما الأنصارى وقال : اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدوماً فأتنى به ، فشد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عوداً بيده ، ثم قال : اذهب فاحتطب وبع ، ولا أرينك خمسة عشر يوماً ، ففعل ، وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوباً ، وببعضها طعاماً .

(١) رواه مسلم .

(٢) الحلس : كساء غليظ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (هذا خير من أن تجيء المسألة نكتة فى وجهك يوم القيامة ، إن المسألة لا تصلح إلا لثلاث : لذى فقر مدقع ، أو لذى غرم مفظع ، أو لذى دم موجع)[1].

هذا توجيه عملى ، يعقب الخير ، ويشيع بين الناس الرخاء ، فما أكثر ما يتصدق المسلمون ، ولكن المجتمع لا يجتنى الثمر ولا يلوح فيه من اليسر والاستقرار أثر ، لأن الذين يأخذون هذه الصدقات صنوف ، منهم الذى لا يستحق أن يعطى لأنه محترف ، ومنهم الفقير الذى لم يتخذ وسيلة يحصل بها رزق الرزاق فيستغنى بذلك عن العمل ، ومنهم من يجبى الصدقات فيمسك لنفسه أكثرها ، ويعطى المحتاجين أيسرها .

ولو أننا نظمنا الإحسان ، فيسرنا منه رءوس أموال صغيرة لمن يحسنون استغلالها ، ودبرنا أعمالا لمن يقدرون على العمل ، ثم عدنا إلى أولئك الذين يزحمون الشوارع ، ويعترضون المارة ، ويؤذون النواظر ، ويصمون الأسماع بما يقومون به من مظاهر تمثيلية ، وما يرددون من دعاوى كاذبة ، فأعددنا لهؤلاء المؤسسات التى تتدارك بالتوجيه من ينفعه التوجيه ، وتحفظ آدمية العاجزين عن العمل حتى آخر حياتهم ، لكان لنا بذلك شرف الاقتداء بالنبى الإنسان الذى كان يتجاوز مراحل إطعام مثل هؤلاء ، إلى إعدادهم للمستقبل الطيب إن كانوا مالكين لما لا بد منه من الوسائل والأموال . فيقول صلوات الله عليه : (لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه)[2].

فارفعوا رءوسكم أيها المساكين بما شرع الله من سنن العمل ، وما أخذ كرام الناس من شريف وجوه الكسب ، فلله خزائن السموات والأرض ، وبيده قلوب الولاة يوجهها لما يشاء من رخاء عباده ، وإسعاد خلقه ، وهو العليم الحكيم .

* * *

ولقد يكون جيراننا من ذوى قرابتنا ، وقد يكونون من غيرهم ، وقد يكونون على غير ديننا ، ولهؤلاء جميعاً أوجب الله البر والرعاية والتودد فقال : « والجار ذى القربى والجار الجنب » — الذى ليس من قرابتك — « والصاحب بالجنب » من زوج ، وزميل فى عمل ، ورفيق فى طريق !

---

(١) رواه داود والبيهقى والترمذى .   (٢) رواه البخارى ومسلم .

ونفى الرسول الإيمان عن أقوام ، فقال : (والله لايؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن) . قيل : يا رسول الله ، لقد خاب وخسر ، من هذا ؟ قال : (من لا يأمن جاره بوائقه ؟ قالوا : وما بوائقه ؟ قال : شره)(١).

إن جيراننا أقرب إلينا من بعض أهلينا ، الذين نأت ديارهم ، وشط مزارهم . واصطناع المعروف إليهم ، يجعل منهم أهلا ، يسرعون النجدة فى الصريخ ، ويخلصوننا المودة والنصح ، أحوج ما نكون إليهما .

ولقد كان العرب فى جاهليتهم ، يرعون الجار ، ويصونون حرمته فى الغيب والشهادة ، عبر عن ذلك عنترة فقال :

وأغض طرفى إن بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواهـــا

وجاء الإسلام ، فأفسح القرآن ذلك الجانب ، وأوجب الرسول بر الجيران كيف كانوا ، ألم تكن قريش تصنع الأذى على عتبة داره ، فيقول لهم قول العاتب الرفيق : (يا بنى عبد مناف ، أى جوار هذا) ؟!

ومضى الإحسان إلى الجيران سلوكاً راشداً فى أصحابه ، فكان أبو بكر يحلب لجارته منائح دارها ، وكان ابن عمر يأمر غلامه أن يفرق شاة ذبحها فى جيرانه ، وقال : (وابدأ بجارنا اليهودى)(٢) فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)(٣).

ورسول الله كان قدوة ابن عمر فى هذا . فقد عاد ابن جاره اليهودى حين ألم به مرض ! ! صلوات الله عليه .

* * *

وأدنى حقوق الجيران فى الإسلام ، أن تكف عنهم الأذى ، إن لم نسد إليهم الخير ، وأن لا نتسقط أسرارهم ، فنستر الحسنات ، ونذيع السيئات ، كذلك الذى تعوذ بالله منه من قال : (أعوذ بالله من جار السوء ، عينه ترانى ، وقلبه يرعانى ، إن رأى حسنة كتمها ، وإن رأى سيئة أذاعها) ، أو كما قيل :

---

(١) رواه البخارى ومسلم عن أبى هريرة وغيره .
(٢) رواه البخارى فى الأدب الفرد . (٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى .

صم إذا سمعوا خيراً ذكرت به وإن ذكرت بشر عندهم أذنوا !

وأجمع الأقوال فى هذه الحقوق قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (من أغلق بابه دون جاره ، مخافة على أهله وماله ، فليس ذلك بمؤمن ، وليس بمؤمن من لم يأمن جاره بوائقه . أتدرى ما حق الجار ؟! (إذا استعانك أعنته ، وإذا استقرضك أقرضته ، وإذا افتقر عدت عليه ، وإذا مرض عدته ، وإذا أصابه خير هنأته ، وإذا أصابته مصيبة عزيته ، ولا تستطيل عليه بالبنيان فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذه بقتار ريح قدرك ، إلا أن تغرف له منها ، وإذا اشتريت فاكهة فاهد له ، فإن لم تفعل فأدخلها سراً ، ولا يخرج بها ولدك فيغيظ بها ولده)[١] .

وكأنما كان ينظر سيدنا محمد صلوات الله عليه إلى الحياة من وراء ستر رقيق ، فالمجتمع تضطرب أسره فى مجال تتناكر فيه ولا تتعارف ، وتستطيل بالبنيان ، وتقول كل أسرة : أنا وبعدى الطوفان ! وتختلق أسباب التعادى — إن لم تجيء عفواً — إلا من عصم الله !!

وسل فى أقل القليل ، أولئك الذين يسيئون استعمال أجهزة الراديو والتليفزيون ، والذين تزعج أصواتهم ملائكة السماء بغير ضرورة ، هل حسبوا حساب المريض تزعج الضوضاء قلبه ؟ والدارس يمنع الضجيج دراسته ؟ والعامل الذى أوى إلى فراشه ، يستجم من عناء يوم مضى ، ويستعد لجهاد يوم يقبل ، فينفى النوم عن عينيه صوت هذه الأجهزة الذى يغشى منازل الناس على الرغم منهم[٢] ؟!

قال ابن أبى جمرة : (حفظ الجار من كمال الإيمان ، وكان أهل الجاهلية يحافظون عليه ، ويحصل امتثال الوصية به ، بإيصال ضروب الإحسان إليه بحسب الطاقة ، كالهدية ، والسلام ، وطلاقة الوجه عند لقائه ، وتفقد حاله ، ومعاونته فيما يحتاج إليه ، وكف أسباب الأذى عنه على اختلاف أنواعه ، حسية كانت أو معنوية .. إلى آخر ما قال رحمه الله .

* * *

---

(١) رواه الخرائطى فى مكارم الأخلاق وهو عن طرق تكسبه قوة ، كما قال الحافظ المنذرى فى كتابه (الترغيب والترهيب) . وقتار القدر : ريح أبخرة الطعام .

(٢) كتاب (الإسلام والأسرة) للمؤلف ، ص ١٥٥ و ١٥٦

والجيران أكثر من هؤلاء الذين تتقارب ديارهم ، ولا يشط مزارهم ، فجارك فى السوق ، وفى المكتب ، وفى المصنع ، له حق البر ..

روى كعب أن رجلا أتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، إنى نزلت محلة بنى فلان ، وإن أشدهم إلىَّ أذى ، أقربهم لى جواراً ، فبعث الرسول صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر وعلياً — رضى الله عنهم — يأتون المسجد ، فيقومون على بابه ، فيصيحون : (ألا إن أربعين داراً جار ، ولا يدخل الجنة من خاف جاره بوائقه)[1] .

أرأيتم أية مهمة انتدب لها الرسول هذا النفر الكريم من خاصة أهله وخيرة صحابته؟!

إن أذى الجار بغيض إلى رسول الله الذى يقول : (إنك إن آذيت كلب جارك فقد آذيته)[2].

وأذى المؤمنين يقول فيه ربنا : « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً »[3].

وقليل إحساننا إلى الجار كثير فى موازين الخير ، ما حسنت فيه النيات ، وابتغى به أحكام المودات ، أليست الهدية أبلغ فى معنى الأخوة من كل تحية ، وإذا كانت الكلمة الطيبة صدقة ، فماذا يكون البر حين لا ينهضنا إليه غير دواعى الإخلاص والطهر ؟ وفى هذه الأضواء يمكن أن نفهم قول الرسول لأبى ذر : (إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها وتعاهد جيرانك)[4].

وقوله صلوات الله عليه : (يانساء المسلمين لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة)[5].

ولقد كان جار أبى حنيفة مدمن خمر ، فإذا شرب أنشد :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة ، وسداد ثغر !!

وكان الإمام يسمع ذلك كل ليلة ، فانقضت ليال لم يسمع من جاره نشيده ،

---

(١) رواه الطبرانى . (٢) المسانيد .
(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٥٨ (٤) رواه مسلم .
(٥) رواه البخارى ومسلم . والفرسن : حافر الدابة وظلف الشاة (النهاية) لابن الأثير ، ج ٣ ، وهو كناية عن قليل الإحسان .

فسأل عنه ، فلما علم أنه فى حبس السلطان ، سعى فى إطلاقه ، ثم قال له : هل أضعناك يا فتى [1] ؟.

أتعجز هذه النفائس بعد كلام الله وكلام رسوله ، ومناهج حياة الراشدين من أوائلنا ، أن تصنع فينا من المكارم بعض ما تمجد به القائل :

ونكرم جارنا ، ما دام فينـــا   ونتبعه الكرامة حيث مالا

وفى آية الحقوق العشرة من سورة النساء ، يوجب الله للمسافر الذى نفد زاده قبل أن يبلغ غايته ، أن نتداركه ببرنا ، وأن يغدو ويروح فى أكناف رعايتنا ، وأن يقطف ثمر الأخوة التى عقدها الله بين الظاعن والمقيم ، وبين الواجد والمحروم ، من كرم الضيافة ، وصادق الترحيب ، وخالص الإرشاد والتوجيه .

ولا يمنع من هذا وسائل المواصلات التى تجوب أقطار المعمورة فى أقصر الأوقات ، وما يتوفر للمسافر الآن ما دام مليئاً من استبدال أمواله بيسر وسهولة فى كل مكان ، فقد تفجأ ظروف لا ينفع فيها مال ، ولا تجدى معها هذه المواصلات السريعة ، وحق الرحالة والسائحين ثابت بهذا القول الإلهى ، ما استهدفوا الحق والخير صلة للأرحام وتعرفاً على المواقع والأقوام ، وطلباً للعلم النافع بشتى ضروبه ، والتعبير القرآنى ألصق بهم لملازمتهم الطريق .. وإن كان اللفظ يتسع للضيوف ، وإكرامهم من هدى القرآن ونهج السنة ، بل هو من سواء الفطرة .. والقرآن يحكى من صنيع إبراهيم عليه السلام : « ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ، قالوا سلاماً ، قال سلام ، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ »[2] أى عاجلهم دون أن يسألهم ، فقدم إليهم عجلا مشوياً على الحجارة ، وهو جود فطرى من الخليل ، فقد كان ماله البقر كما يقولون .

ولقد كانت رعاية ابن السبيل يداً بيضاء فى تدوين السنة وتمحيص مسائل العلم والرحلة فيهما بين قصى الديار ومختلف الأقطار . وكان العلماء يجدون مستقراً ومقاماً وإكراماً كلما نزلوا بلداً ، أو استعانوا — بعد الله — أحداً ، وشعارهم :

من لم يكن لله متهماً   لم يمس محتاجاً إلى أحد

* * *

---

(١) وفى كتاب (الإســلام والأسرة) للمؤلف . مادة فى المعنى نافعــة تحت عنوان (جيران الأسرة) .   (٢) سورة هود ، الآية ٦٩

الإسلام يكافح الرق ولا يوجده[1] :

... وما ملكت أيماننا من الأرقاء والخدم هم إخواننا ، وهم خولنا ، رطب القرآن القلوب بمكاتبتهم وتدبيرهم وتحريرهم ، والرفق بهم إن آثروا الحياة معنا ..

(وإذا كان الإحسان جميلا محبباً ، فهو أعظم ما يكون حين يتسع لهؤلاء الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة ، ولا يلوون على أهل ولا مال ، وإنما يربطون مصيرهم بمصيرنا ، ويرون الحياة من خلال نظرة رحيمة ، أو كلمة كريمة ، أو صنيع حسن نؤديه إليهم)[2].

عن المعرور بن سويد قال : رأيت أبا ذر رضى الله عنه وعليه حلة ، وعلى غلامه مثلها ، فسألته عن ذلك ، فذكر أنه سابّ رجلا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعيره بأمه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : (إنك امرؤ فيك جاهلية ، هم إخوانكم وخولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم ، فإذا كلفتموهم فأعينوهم)[3].

وما ينبغي أن نتعالى عليهم أو نعنف بهم ، أو نناديهم بما يهدر كرامتهم ، أو ينتقص آدميتهم ، فالرسول الكريم يقول : (لا يقل أحدكم عبدى ، أمتى ، كلكم عبيد الله ، وكل نسائكم إماء الله ، وليقل : غلامى ، جاريتى ، وفتاى وفتاتى)[4].

ويوجب — صلوات الله عليه — على من آذى مملوكه — رجلا كان أو امرأة — أن يعتقه . وأين من رفق الإسلام وحدبه بهؤلاء ما يغثى النفوس من صنيع أم الحريات — أمريكا — بمواطنيها الملونين ؟! إنها تحرم عليهم ملاهى البيض ومدارسهم ، وحتى كنائسهم ، على صورة لا تعرفها الدنيا إلا فى أمريكا اليوم ، ويستحلون أموالهم ، ويمتهنونهم بكل قوة .. وقد تعلم منهم ذلك البيض فى (غرب أفريقيا) ، ويهود فى الأرض المحتلة . وأين (الهنود الحمر) من التاريخ ؟

(١) من أنفس الكتب التى قرأتها فى ذلك كتاب شيخ العروبة محمد زكى باشا رحمه الله : (الرق فى الإسلام) .

(٢) من فصل (الخدم فى الأسرة) من كتاب (الإسلام والأسرة) للمؤلف .

(٣) رواه البخارى ومسلم ، واللفظ للبخارى فى الأدب ، وهو بألفاظ أخرى فى كتب السنة .

(٤) رواه البخارى ومسلم .

واقرأ فى عدد واحد من مجلة (حضارة الإسلام) العدد الثالث ، ربيع الأول سنة ١٣٨٠ هـ تحت عنوان (من وقائع الحضارة الغربية) .

... قتل أمريكى من ولاية فلوريدا زنجياً كان نائماً فى أحد القطارات ، بأن خنقه ، ولم يتركه إلا جثة هامدة ، ولم يذكر لذلك سبباً ، سوى احتقار الأبيض للأسود وحقده عليه ..

نسف البيض منزل أسرة زنجية فى مدينة (شاتالوجا) بولاية تينس ، بالديناميت أثناء نومها ، وقد أصيب طفلان من العائلة بارتجاج فى المخ ، وأحدهما عمره ثلاثة أشهر ، والآخر عمره سبعة أشهر .

وفرنسا — أم ثالوث الحرية والإخاء والمساواة — يستمر الرق فى مستعمراتها .: تقول مجلة (حضارة الإسلام) :

(أدلى لورد موم بتصريح خطير اليوم أمام مجلس اللوردات ، قال فيه : إنه اشترى (عبداً) فى العام الماضى ، من إحدى مناطق الصحراء الكبرى التى تسيطر عليها فرنسا ، بمبلغ ٣٧ جنيهاً وعشرة شلنات ، ثم أعتقه بعد ذلك . وقال موم : إنه اشترى العبد لكى يحضر إلى بريطانيا ومعه دليل على أن تجارة الرقيق ما زالت موجودة فى المناطق الخاضعة لفرنسا فى الصحراء الكبرى)[١] .

تلك هى حضارة القوم التى يؤلهها بيننا أقوام ..

وما يستوى وحى من الله منزل   وقافيــه فى العــــالمين شرود

إن القرآن ووصايا محمد صلى الله عليه وسلم ، وسلوك صحابته ، ترفع رءوس المماليك ، وتفاضل بين الناس لا بالألسنة والألوان ، ولكن بالتقوى والإحسان : فبلال الذى كان عبداً حبشياً هو مؤذن الرسول ، وصهيب الذى كان عبداً رومياً ، يقول فيه الصادق صلى الله عليه وسلم : ربح صهيب ، مرات . وسلمان الذى كان عبداً فارسياً يرفعه الرسول إلى مستوى كريم فيقول : (سلمان منا آل البيت) .

أى عز أطول ، وأى مجد وراء هذا ؟! إنها مدرسة الوحى ، وأمة الإسلام الأولى : (تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم ...)[٢] .

(إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولكن إلى قلوبكم)[٣] .

---

(١) المجلة ، ص ١٢٢ و١٢٣   (٢) رواه مسلم .   (٣) رواه مسلم .

ويغضب الرسول حين قال أبو ذر لبلال : يا ابن السوداء . فيقول كلمته السائرة . ويضرب لبلال مثل النحلة (إن أكلت أكلت طيباً ، وإن أعطت أعطت طيباً) .

ويرى أبو بكر بلالا فى بدر وهو يتعقب معذبيه من آل خلف ، حتى يظفره الله بأمية فيقتله ، ويقول أبو بكر :

هنيئـاً زادك الرحمن مجـداً لقـد أدركت ثأرك يا بـلال

حقائق كالأحلام صنعها الإسلام ، بلال الذى كان ما كان ، يرفعه إيمانه ويعلو به إلى ما عرفت . ويتقدم إليه أبو بكر بهذه التهنئة ، التى تضيف إلى شرفه شرفاً !

ثم تجيئنا صورة من مكارم الأخوة ، هى عظة لكل من وسعت الدنيا اليوم .

... رغب المقوقس فى مفاوضة المسلمين بعد أن أوغل الجيش الإسلامى فى مصر ووقف أمام حصن بابليون ، فأرسل إليه عمرو بن العاص عشرة رجال بينهم عبادة ابن الصامت رضى الله عنه — وكاد أسود شديد السواد ، فارع الطول — وأمره عمرو أن يكون متحدث الوفد . فلما دخلوا على المقوقس تقدمهم عبادة ، فهابه المقوقس لسواده! وقال لهم : نحوا عنى هذا الأسود وليكلمنى غيره ، فقالوا : إن هذا الأسود أفضلنا رأياً ، وهو سيدنا والمقدم علينا ، وإنما نرجع جميعاً إلى قوله . وقد أمره الأمير دوننا بمـا أمره ، وأمرنا أن لا نخالف رأيه وقوله . فقال : وكيف رضيتم أن يكون هذا الأسود أفضلكم وإنما هو دونكم ؟ قالوا : كلا، إنه من أفضلنا رأياً وأفضلنا سابقة وموضعاً ، وليس ينكر السواد — الذى ترى — فينا .

فقال المقوقس عندئذ لعبادة : تقدم يا أسود فكلمنى برفق ، فإنى أهاب سوادك وإنى لأشد هيبة إذا اشتد كلامك .

فقال عبادة : إذا كنت قد هبت سوادى ، فإن فى جيشنا ألف أسود هم أشـد سـواداً منى . فحذره المقوقس من بطش جيشه . فرد عبادة بأنهم خرجـوا يطلبون الشهادة أو تعلو راية الحق ...[1] .

* * *

وبعـد : فلقد وضعت آية الحقوق العشرة من سـورة النساء الأساس لصـلاح المجتمع بأسره . فنظمت العلاقة بين الإنسان وبين ربه ، وبينه وبين الناس ، والتقت

(١) تاريخ ابن إسحاق بتصرف يسير .

فى ذلك بآية البر من سورة البقرة ، وغيرها من آيات القرآن وهدى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فهل عرفنا أين نحن اليوم منها ؟

وهل تواصلنا فى نطاق هذا المنهج الربانى قبل أن يسأل سائل : لماذا سبق الناس فى طريق الرقى وتأخرنا ؟!

ولماذا ثبتت أقدام فى معترك الحياة ، وأقدامنا تختلج ؟!

والتاريخ شاهد صدق على مكان المسلمين من العزة يوم اعتزوا بالإسلام والقرآن فهل يكون اللهج بالدين والدعوة إليه ، والقرآن والحرص على تحفيظه والسنة : ورد الغربان الناعبة حولها فى جرائد ومجلات وأوكار ، وهل يكون (تطوير) الأزهر وإعداده لينهض أكثر وأكثر بواجب التبليغ هنا وهناك ، خطى واسعة فى طريق النصر والتمكين ، تتبعها خطوات فى البلاد التى ترمقنا وتحذو حذونا .. وتستشرف مجتمعاتها وجامعاتها ومعاهدها إلى علماء الأزهر وبعوثها إليه ؟!

وددت أن تعود إلى الأزهر أوقافه ، وأن تعرف وزارة الأوقاف حق الأزهر عليها ، وأنه أولى بالإيثار من كثير من الشعارات والدعايات والإسراف الذى أذكر معه كلمة شيخ الأزهر الشيخ عبد المجيد سليم — رحمه الله — : (تقتير هنا وإسراف هناك) .

إن الأزهر مفخرة المفاخر فى مصر ، واقرءوا فريدة السيد أبى الحسن على الندوى (يا مصر) يبثها عرفان بمصر الأزهر ، فات كثيرين ممن يناط بهم الأمل .

ولا أزعم أننى أعرف وحدى مكانة الأزهر فى جنبات الأمة الإسلامية دونها الناس اليوم ، وإن بلغ بى العجب مبلغه وأنا أرى الأزهر القديم فى أروقته : وأراه فى مدينة البعوث والمعاهد والكليات ، ورأيته فى لبنان وسوريا والأردن واليمن ودول الخليج ، وحواضر باكستان على نحو يرفع الرأس ويسعد النفس ، ويهيب بالغيورين أن يرتادوا بحاضر الأزهر منهج الأمس ليواصل عطاءه فى مصر والعالم :

« ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز ◦ الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الأمور »(١).

---

(١) سورة الحج ، الآيتان ٤٠ و ٤١

ضرورة الاخلاق للحياة

لم تعرف الحياة — بين ما واجهت من محاولات إصلاح صالحة — ديناً كالإسلام ولا كتاباً كالقرآن ، احتفلا بالأخلاق ، واتصلت فيهما الوصية بهما والدعوة إليهما والتنويه بحظوظ أنبياء الله ورسله وكتبه ، والصحف الأولى عنها ، والإشادة بالمدى الذى بلغه سلفنا فى هذا الجانب ..

ورعاية الإسلام للأخلاق الفاضلة وزرايته بسفساف الأمور ، تنبئ عن ضرورة الأخلاق للحياة ، التى لا نتصور مقدار بشاعتها وفوضاها لو لم تنعشها هذه النسمات الرطاب ، حيناً بعد حين ، من رياض الإسلام ، فترد إليها اعتبارها ، وتعيد الثقة فى حياة كادت تنقطع فيها الأوصال ، وتخيب الآمال ، ويجرف تيار المادية والأنانية أهلها ، عن عواطف الرحم الماسة :

ولقد كان نبينا محمد — صلوات الله عليه — صورة كاملة لما حفل به القرآن ، ودعا إليه الإسلام ، من هذه الآداب التى رد المنة بها إلى الله وحده بقوله : (أدبنى ربى فأحسن تأديبى)[1] ، فأثنى عليه الله بقوله : « وإنك لعلى خلق عظيم »[2] .

وقرر سبحانه أن أخلاق رسوله كانت جوازه إلى تأليف القلوب من حوله ، واعتناقها للدين الذى جاء به ، فقال سبحانه : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين »[3] .

وقال : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم »[4] .

---

(١) قال الشيخ ناصر الدين الألبانى بعد أن أورد تضعيف ابن تيمية للحديث : (معنى الحديث صحيح لكن لا يعرف له إسناد ثابت) وأيده السخاوى والسيوطى .

(٢) سورة القلم ، الآية ٤ (٣) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩

(٤) سورة التوبة ، الآية ١٢٨

وأوجب أن يتخذه المؤمنون قدوة حسنة فقال : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً »[١] .

فلا عجب أن يطول تحسر الكولونيل ليبرتينى الإيطالى ، فيقول فى كتابه (الإسلام) : (ليتنى عرفت محمداً عن كثب ، لأتعرف إلى هذه الذات العربية التى بذت شخصيتها كل نبى آخر ، وكل عظيم) .

ومن حق الرسول الذى اصطفاه مولاه ، وآواه ، وعلمه ما لم يكن يعلم ، أن نديم النظر فى أخلاقه ، وأن نجمع عليها الناس — ما استطعنا — وما كانت أخلاقه إلا القرآن ، يحل حلاله ، ويحرم حرامه ، ويأتمر بأوامره ، وينتهى عن نواهيه .. كما قالت عائشة رضى الله عنها : (لم يقارف شيئاً مما نهى عنه ، ولم يخالف بعض ما أمر به ، ولو قد فعل — وحاشاه — من ذلك شيئاً ، لرواه أعداؤه الذين ابتغوا له المعايب ، باغين ظالمين ، فلم يكن مبلغهم من ذلك غير باطل رددوه حيناً حتى كذبهم الألد الخصم — النضر بن الحارث — بقوله : لقد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً أرضاكم قولا وأصدقكم حديثاً ، فلما بدا فى صدغيه عارض الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : إنه كاذب !، والله ما هو بكاذب ، والله ما هو بكاذب ، والله ما هو بكاذب) .

ثم لم تزل قريش بالنضر حتى آثر العناد والخلاف ، على الإنصاف ، وقال ماحكى الله عنه : « لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين * وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم »[٢] .

وواسى الله رسوله فقال : « قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون ، فإنهم لا يكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون * ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين * وإن كان كبر عليك إعراضهم »[٣] .

* * *

وحسب الأخلاق شرفاً أن يحدد الرسول بها هدفه وغايته ، وأن يجمل فيها رسالته ، فيقول : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)[٤] .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٢١

(٢) سورة الأنفال ، الآيتان ٣١ و ٣٢ (٣) سورة الأنعام ، الآيات ٣٣—٣٥

(٤) رواه البخارى فى الأدب والحكم ، ورواه مالك بلفظ : (بعثت .. الحديث) .

وهو قول يجلو للمؤمنين ما للأخلاق من حميد الأثر فى إنماء عزتهم ، وربطهم بروابط الأخوة التى يتعاونون بها على البر والتقوى ، ويتحاجزون عن الإثم والقطيعة ، فلا حياة لأمة ، ولا انسجام بين جماعة ، ولا هناءة لفرد ، إلا بقدر ما وهبوا من الأخلاق ، التى يدوم بها الحكم ، ويزكو العلم ، ويتصل الود ، وتطيب الحياة ، أكثر مما تطيب بالقانون ، الذى لا يرعى مسائل الأخلاق ، إلا إذا ألحقت تصرفات الناس ضرراً مباشراً بالأفراد أو الأمن أو النظام العام !

وحين جثت فرنسا على الركب ، فى الحرب العالمية الثانية ، دوى فى سمعها صوت (بيتان) وهو يعزو هزيمتها للسبب الأصيل ، وهو ضياع الأخلاق وتغلغل الفساد ملء أعطاف المجتمع الفرنسى ، فألف الشعب الخذلان والمضى على الأعقاب فى كل ميدان ، منذ أسلم زمامه لشهواته ونزواته ومباذله . ومن شعر أحمد شوقى رحمه الله :

وإذا أصيب القوم فى أخـــلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعـــــــويلا !

إن الأخلاق الكريمة تذلل الصعاب ، وتدنى المؤمنين من العزة التى قسم الله لهم منها ما قسم فقال : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين »[1] ، وهى تبنى ولا تهدم ، وتجمع ولا تفرق ، وصاحبها خليق بالسيادة والتوقير ، فإذا عضه الدهر بنابه ، استوجب من الناس إقالة عثراته ، والمسارعة إلى مواساته . يقول جعفر الصادق رضى الله عنه : تجاوزوا لذوى المروءات عن عثراتهم ، فوالله إن أحدهم ليعثر ، وإن يده لفى يد الله .

وهو يورث هذه المواساة من بعده لبنيه وحفدته ، ويحيا هو بها أعماراً بعد أن يضمه الثرى وتطوى جثمانه الحفر .. أليس يقول الخليل إبراهيم عليه السلام : « واجعل لى لسان صدق فى الآخرين »[2] ويقول شوقى :

دقات قلـــب المرء قائلة لـــه إن الحيـــــاة دقـائـــق وثوان
فارفع لنفسك بعد موتك ذكرها فالذكر للإنسان عمر ثانى !!

أو كما قال ابن دريد فى مقصورته :

وإنما المرء حديث بعـــده فكن حديثاً حسناً لمن وعى

ولقد عرض أسرى طئ على النبى — صلوات الله عليه — فنهضت من بينهم سفانة بنت حاتم فقالت : يا محمد ، هلك الوالد ، وغاب الرافد ، فإن رأيت أن تخلى عنى ، ولا تشمت بى أحياء العرب ، فإن أبى كان مسيد قومه ، يفك العانى ، ويفدى الجانى ،

(١) سورة المنافقون ، الآية ٨ (٢) سورة الشعراء ، الآية ٨٤

ويحفظ الجار ، ويحمي الذمار ، ويفرج عن المكروب ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ويحمل الكل — العائل واليتيم — ويعين على نوائب الدهر ، وما أتاه أحد في حاجة فرده خائباً . أنا بنت حاتم الطائي .

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : (ياجارية ، هذه صفات المؤمنين حقاً ، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه ، خلوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق) .

وقال فيها : (ارحموا عزيز قوم ذل ، وغنياً افتقر ، وعالماً ضاع بين الجهال). ومنّ عليها رسول الله بقومها ، فأطلقهم تكريماً لها ، فاستأذنته في الدعاء له ، فأذن لها ، وقال لأصحابه : اسمعوا وعوا ..

فقالت : أصاب الله ببرك مواقعه ، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة ، ولا سلب نعمة عند كريم قوم إلا وجعلك سبباً في ردها عليه ! !

فلما أطلقها ورجعت إلى أخيها عدى وهو بدومة الجندل ، قالت له : (يا أخي ، إئت إلى هذا الرجل قبل أن يعلقك حبائله ، فإني قد رأيت هدياً ورأياً ، سيغلب أهل الغلبة ، ورأيت خصالا تعجبني . رأيته يحب الفقير ، ويفك الأسير ، ويرحم الصغير ، ويعرف قدر الكبير ، وما رأيت أجود ولا أكرم منه ، فإن يكن نبياً فللسابق فضله ، وإن يكن ملكاً فلن تزال في عز اليمن) .

فقدم عدى إلى رسول الله ، فأسلم وأسلمت سفانة[1].

ومهما اختلف الناس في تقدير الرجال ، ونظروا إليهم من خارج ذواتهم ، وبعيداً عن أفعالهم وتصرفاتهم ، فلقد نظر الرسول إلى عمه حمزة من خلال كمالاته النفسية ، فقال بعد أن رزقه الله الشهادة في أحد : (يرحمك الله يا عمّ ، فلقد كنت وصولا للرحم ، فعولا للخيرات) .

وارتوت من هذا النبع العزيز تلك العجوز التي ذرفت الدموع الحرّى على رجل مات ، فلما سئلت في ذلك قالت : (جاورناه وما منا إلا من تحل له الصدقة ، ومات عنا وما منا إلا من تجب عليه الزكاة) !

إن صالح الأعمال ذخيرة تربو على كر السنين (والبر لايبلى) أو كما يقول الشاعر :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يدوم كصالح الأعمال

---

(١) الأغاني ، ج ١٦ ، ص ٩٣ ، وإنسان العيون ، ج ٢ ، ص ٢٨٥

وما أجمل أيدياً تسدى عارفة أو تصنع جميلا لإنسان ، ثم تدور الأيام ويتراخى الزمان ، وتشغل المحسن عن سوابق فضله الشواغل ، ثم يلقاه من يذكره بما نسى من خير فى حدب وعرفان للجميل .

ومن طريف ما قرأت : أن قاضياً اشتهر بحكمته وعدله حتى أحبه الناس ، فمات ، فأرسل مريدوه باقات كثيرة من الزهر ، ووضعت على نعشه ، وجاء زنجى شيخ ليلقى على صديقه النظرة الأخيرة ، فلقى ابنه .

فقال الولد : انظر يا عم إلى هذه الأزهار الغضة الكثيرة ، التى بعث بها أصدقاء أبى ؟ فقال الزنجى من فوره : قضى أبوك أيام حياته يبذر البذور التى أنبتت هذه الأزهار !

وتتابعت أحاديث الأجيال ، وهى تلقى أضواء الفخر على رجولة الرجال وبطولة الأبطال ، وعلم العلماء ، وحلم الحلماء ، وصبر الكرام ، وما وراء ذلك من معالى الأمور . كما تنحى باللائمة على مثالب الجبن الهالع ، والشح الخالع ، وما وراءهما مما ألمع إلى بعضه معين بن أوس فقال :

لعمرى ما أهويت كفى لريبة ... ولا حملتنى نحو فاحشة ، رجلى
ولا قادنى سمعى ولا بصرى لها ... ولا دلنى رأيى عليها ولا عقلى

وقال أسامة بن منقذ :

وما أدرى تلوّن أهل ودى ... ولو أجدت شكيتهم شكوت
مللت عتابهم ويئست منهم ... فما أرجوهم ، فيمن رجوت
إذا أدمت قوارصهم فؤادى ... صبرت على أذاهم وانطويت
ورحت عليهم طلق المحيا ... كأنى ما سمعت ولا رأيت
تجنوا لى ذنوباً ، ماجنتها ... يداى ولا أمرت ولا نهيت
ولا والله .. ما اضمرت حقداً ... كما قد أضمروه ، ولا نويت
ويوم الحشر موعدنا وتبدو ... صحيفة ماجنوه ، وما جنيت ! !

* * *

إن الأخلاق ضرورية للحياة ولما وراء الحياة ، فنحن نسلف أعمالنا وأقوالنا إلى الآخرة ، ونتزوّد بهما إلى ما وراء هذه الدار بعد أن نبلغ بها هنا رغد العيش .. تقول الدكتورة لوريا فاغليرى أستاذة اللغة العربية وتاريخ الحضارة الإسلامية فى جامعة نابولى بإيطاليا :

من الخير أن نشير إلى عقيدة تعتبر حافزاً إلى التمسك بأهداب الفضيلة ، أقوى من أى ترغيب آخر ، نعنى العقيدة القائلة بأن هذه الحياة الأرضية تحمل فى ذات نفسها بذرة الحياة الآخرة ، وأن أيما عمل يقوم به المرء فى دنياه هذه سوف يساعده على بلوغ السعادة القصوى فى دار الخلود ، وأن طهارة القلب والعمل الصالح ضروريان لرضى الله ، وأن كل امرئ سيجد حين يواجه الله يوم القيامة ما عمل من خير أو شر محضراً.

« فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »(١).

« إن الله لا يظلم مثقال ذرة ، وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً »(٢).

ثم ختمت الفصل الذى سمته (الأخلاق الإسلامية) بقولها :

(إن الناس فى حاجة إلى دين ، ولكنهم يريدون من هذا الدين ، فى الوقت نفسه ، أن يلبى حاجاتهم ، وأن لايكون قريباً إلى عواطفهم فقط ، بل أن يقدم إليهم أيضاً الطمأنينة والسلام فى هذه الحياة الحاضرة ، وفى الحياة الآخرة معاً . والواقع أن الإسلام يفى بهذه المطالب على الوجه الأكمل ، لأنه ليس مجرد عقيدة ، ولكنه — إلى ذلك أيضاً — فلسفة حياة . إنه يعلم التفكير الصائب ، والعمل الصالح ، والكلام الصادق ، وهو لهذه الأسباب يتخذ سبيله إلى عقل الإنسان وقلبه فى غير عسر)(٣).

فهل يبقى مكان لمثل ما قال أحد الكتاب :

(إنى لا أفهم مدلول الأخلاق ، هذه الكلمة التى تتردد على الألسنة منذ سنوات ويبكى عليها المتباكون) ؟

* * *

ولقد كانت الأخلاق دعوة جهيرة إلى الإسلام ، لفتت إليه الأنظار ، وجمعت عليه الأنصار ، وأطلقت بتمجيده ألسنة ، لاتتحدث بالحق إلا وهى كارهة له :

هذا أكثم بن صيفى بعد أن بلغ من الكبر عتياً وتأخر إسلامه وهو حكيم العرب ، بلغه قول الله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن

(١) سورة الزلزلة ، الآيتان ٧ و ٨ (٢) سورة النساء ، الآية ٤٠

(٣) كتاب الدكتورة لوريا فاغليرى (دفاع عن الإسلام) ص ٨٠ — ٩٠ ، ولعل الله يعين على تناول الكتاب بالرد على بعض ما فيه .

الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »[١] . فقال لقومه : (إن هذا لو لم يكن ديناً لكان فى أخلاق الرجال حسناً) .

وارجع البصر كرتين فى القرآن الذى يهدى للتى هى أقوم ، ثم ارجع البصر كرتين فى سنة الرسول وسيرته ، ومنهج حياة تلامذة مدرسته ، فإنك واجد ما كان كلاماً فى سطور فلسفات الدنيا ، حقائق تثلج الصدور ، وتشيع فى الدنيا النور ، وتدعو للأسوة الحسنة إلى أبد الدهور .

وما نحاول أن نحصى هذه الأخلاق الماسة للحياة ، ولكننا نضع بين يديك ، بعد ما مر بك منها ، الميزان الذى قدمه المعصوم صلى الله عليه وسلم لمن سأله عن الخير ، وعن الإثم ؟ فقال : (الخير ما اطمأنت إليه النفس ، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس) . وفى رواية : (استفت قلبك وإن أفتاك المفتون وأفتوك)[٢].

والأخلاق — من بعد — هى ثمرة الإيمان الخالص ، فما يبالى الله بإيمان المؤمنين حتى يسعوا الناس بأخلاقهم ، وبقدر ما تورثنا العبادات الإسلامية من شريف الصفات ومجيد الأخلاق ، يكون حظنا من رضوان الله ، أليس يقول الله تعالى : « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر »[٣].

وأحسبك على ذكر من الحديث الذى رواه عمران وابن عباس مرفوعاً : (من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً) . ولعلها الصلاة التى لم يحسن القائمون بها قيامها ولا ركوعها ولا سجودها ولا قراءتها ، فلم ترتفع فوق رءوسهم شبراً حتى عادت إليهم فى خرق سوداء تضرب رءوسهم وتقول : (ضيعك الله كما ضيعتنى) . وفى مثلها يقول الشاعر :

صلى فأعجبنى ، وصام فرابنى نح القلوص عن المصلى الصائم !

ولا يفترين أحد على الإسلام ، حين يرى من لم تنههم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر ! ومن ليس لهم من صيامهم إلا الجوع والعطش ! ومن قالوا : لبيك اللهم لبيك . فقالت الملائكة : لا لبيك ولا سعديك وحجك مردود عليك ، فإن العبادات الخالصة تثمر السلوك الراشد وتقى أصحابها نزغات الشياطين !

والناس يعرفون فوائد الإحسان إلى الآخرين ، وعوائد البر بهم ، والتواضع

---

(١) سورة النحل ، الآية ٩٠

(٢) رواه مسلم والترمذى وغيرهما . (٣) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥

لهم ، ويعرفون أن الإغلاظ على الناس ، إن وطأ الأكناف ، ورفع الخلاف : فإن ذلك سرعان ما يزول ، ليخلو المجال لدواعى الخير والحق والسلام .

وستبقى الأخلاق ، التى طرز عقدها القرآن ، وجلت وجهها السنة المطهرة ، نوراً يكشف الطريق ، ولن يغنى غناءهما فى ذلك شيء مما ألفه الماديون وزخرفه الضالون وزعموا معه أن المرء يستطيع أن يحيا بلا دين ، ويعيش فى الناس بلا شريعة إلهية ، وكذبوا ، فهل أفلحت الضمائر وحدها فى دعم المودات بين الناس ، وإتاحة فرص السلام فى عالم لايقيم أركانه غير الدين ، وأخلاقه التى شدت الأديان السماوية كلها بشعار : (خير الناس أنفعهم للناس) .

عن أبى ثعلبة الخشنى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن أحبكم إلىّ وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة : أحاسنكم أخلاقاً . وفى رواية بزيادة : الموطئون أكنافاً . الذين يألفون ويؤلفون . وإن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى يوم القيامة . وفى رواية : مجلساً . الثرثارون المتشدقون المتفيهقون . وفى رواية : المفرقون بين الأحبة ، الباغون العيب للبرآء)(1).

ثم ضع نفسك بين أحبائه أو بغضائه — عليه الصلاة والسلام — والهدى ، هدى الله .

وإذا كان الأول يقول :

لا تسأل المرء عن خلائقــــه   فى وجهه شاهد من الخبر

ففعالنا وخصالنا هى مفاتيح شخصيتنا ، وهى المرآة التى ينظر الناس إلينا فيها ، وما أجمل أن نحسن الفعال ، ونحمد الخصال مع جميع من نعايش ونعاشر ، حتى لايعاب بنا الإسلام .

وفى الحديث : (أنت على ثغر من ثغور الإسلام فلا يؤتين من قبلك) .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (أوحى الله إلى إبراهيم عليه السلام : يا خليلى ، حسن خلقك ولو مع الكفار ، تدخل مدخل الأبرار ، وإن كلمتى سبقت لمن حسن خلقه أن أظله تحت عرشى ، وأن أسقيه من حظيرة قدسى ، وأن أدنيه من جوارى)(2). فهل أبصر الناس ؟!

(١) رواه الطبرانى والبزار بزيادة عند أحمد .
(٢) رواه الطبرانى ، وهو فى (الترغيب والترهيب) للمنذرى .

أثر السخاء فى ازدهار الحياة

للأسخياء والأشحاء فى القرآن والسنة أحاديث وصور ، تبرز أثر السخاء فى ازدهار الحياة ، ودور الشح فى عقمها وتعويقها عما كتب لها من كمال ، والقرآن والسنة ينحيان باللائمة على من اتخذوا من المال إلهاً يعبد ، ولم يجعلوه كما خلقه الله وسيلة تسعدهم وتنعش من يليهم ، ابتغاء رضوان الله ، وتوثيقاً لوشائج الأخوة التى لاتسيغ أن تكون فى سعة والناس من حولك تلح بهم الحاجة ويكاد يقتلهم الحرمان « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون »(١).

وأى عمل صالح بعد الإيمان يعدل معروفاً ، تخفف به لوعة شاك ، وتجفف به دمعة باك ، وتفتح باب الأمل للذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ؟ !

(والأسخياء يعرفون أنهم خلفاء الله فيما بين أيديهم من مال ، كذلك العربى الذى سئل — وهو يرعى إبلا سماناً — لمن تكون ؟ فقال : هى لله فى يدى ! ! والله سبحانه وتعالى يقول : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير »(٢).

وهم يؤمنون بأن حسن التصرف فى أموالهم ، وإخراج حق السائل والمحروم منها ، وتفريج كربات المكروبين ببعضها ، إنما هو زيادة فيها ونماء ، وسياج يرد عنها غوائل المغامرين بها ، وصدق الله العظيم : « وما آتيتم من رباً ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون »(٣) ، وصلوات الله على النبى القائل : (حصنوا أموالكم بالزكاة ، وداووا مرضاكم بالصدقة) :

أولئك الأجواد يسترقون الأحرار ويتألفون القلوب ، ويسودهم البذل فى الناس ، فطالما استعبد الإنسان إحسان ، تقول الصديقة بنت الصديق : (جبلت النفوس على

---

(١) سورة سبأ ، الآية ٣٧ (٢) سورة الحديد ، الآية ٧

(٣) سورة الروم ، الآية ٣٩

حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها) ، وسخاء هؤلاء يفتح لهم أغلاق الحياة ويكون ظلا ممدوداً يحشرون تحته يوم القيامة . أليس يقول الله تعالى : « فأما من أعطى واتقى، وصدق بالحسنى، فسنيسره لليسرى »(١) . ويقول النبي صلى الله عليه وسلم : (السخي قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، بعيد من النار) .

والأجواد الأسخياء يبادرون انقلاب الأيام وتحول الأحوال باصطناع الأيادي وإسداء المعروف ، فهما — مع ما يكسبان من محامد — أمان من غدرات الحياة التي تتعاقب على الناس بالخير والشر ، والغنى والفقر ، والإقبال والإدبار . يقول ابن مسعود : (صاحب المعروف لايقع ، وإن وقع وجد متكئاً) . وفي الأثر : (صنائع المعروف تقي مصارع السوء) . ولقد مدح الحطيئة أمير المؤمنين عمر ، فقال من قصيدة :

من يفعل الخـير لا يعدم جوازيه ... لايذهب العرف بين الله والناس !

وكان في المجلس وهب فقال : يا أمير المؤمنين ، إن ذلك لآية في التوراة ، يقول الله تعالى : (عبدي ، افعل الخير تجده عندي ، لايذهب العرف بيني وبين عبدي !) .

والمحسنون يدخرون لأنفسهم ، ويقدمون من دنياهم لآخرتهم ، ويقيمون الدليل القاطع على إيمانهم : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أولئك هم الصادقون »(٢) . وحسبهم شرفاً أن قدوتهم المثلى هو رسول الله ، فقد كان أجود بالخير من الريح المرسلة والغمامة الهاطلة ، وكان صحابته يجودون بالشيء أحوج ما يكونون إليه ، حتى مدحهم الله بقوله : « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »(٣) .

ولقد خلصت آيات القرآن إلى قلوب نساء الرسول ، وانفعلت بوصايا البر والإحسان نفوسهن ، وابتغين مرضاة الله مذ سمعن الله تعالى يقول : « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ، ولهم أجر كريم »(٤) .

عن مالك رضي الله عنه أنه بلغه عن عائشة رضي الله عنها أن مسكيناً سألها وهي

---

(١) سورة الليل ، الآيات ٥ — ٧ (٢) سورة الحجرات ، الآية ١٥
(٣) سورة الحشر ، الآية ٩ (٤) سورة الحديد الآية ١٨

صائمة ، وليس فى بيتها إلا رغيف (فى رواية أنه كان قرصاً من شعير) ، فقالت لمولاة لها (لعلها التى سميت فى الآثار التالية) : اعطيها إياه ، فقالت : ليس لك ما تفطرين عليه ، فقالت : أعطيها إياه . قالت : ففعلت . فلما أمسينا أهدى لها أهل بيت ، أو إنسان ما كان يهدى لها شاة وكفنها — أى ما يستر ها من طعام وغيره — فدعتها عائشة ، فقالت : هذا خير من قرصك !

قال عروة بن الزبير : (رأيت عائشة تتصدق بسبعين ألفاً ، وإنها لترقع جانب درعها) :

وحدث عن أم درة قالت : بعث ابن الزبير إلى عائشة بغرارتين مائة ألف ، فدعت بطبق — وهى يومئذ صائمة — فجعلت تقسمها فى الناس ، فلما أمست قالت : ياجارية هاتى فطرى ، فقالت أم درة : أما استطعت فيما أنفقت أن تشترى بدرهم لحماً تفطرين عليه ؟ ! فقالت : لا تعنفيني ! لو كنت أذكرتنى لفعلت[1].

وقد روى البخارى ومسلم أن رسول الله قال لنسائه : (أسرعكن لحاقاً بى أطولكن يداً) . قالت عائشة : فكنا إذا اجتمعنا فى بيت إحدانا بعد وفاة الرسول نمد أيدينا فى الجدار نتطاول ، فلم نزل كذلك حتى ماتت زينب ، وكانت امرأة قصيرة ، فعرفنا حينئذ أن النبى صلى الله عليه وسلم إنما أراد طول اليد بالصدقة .

قالت برزة بنت رافع : أرسل عمر إلى زينب بالذى لها ، فلما أدخل عليها قالت : غفر الله لعمر ، غيرى من أخواتى أمهات المؤمنين كان أقوى على قسم هذا منى ! قالوا : هذا كله لك ، فاستترت منه بثوب وقالت : صبوه واطرحوا عليه ثوباً . ثم قالت لى : أدخلى يدك فاقبضى منه قبضة فاذهبى به إلى بنى فلان وبنى فلان — من أهل رحمها ويتاماها — حتى بقيت بقية تحت الثوب ، فقالت لها برزة : غفر الله لك يا أم المؤمنين ، والله لقد كان لنا فى هذا حق . فقالت فلكم ما تحت الثوب !

وحدث محمد بن كعب قال : كان عطاء زينب اثنى عشر ألف درهم ، حمل إليها ، فقسمته فى أهل رحمها وفى أهل الحاجة حتى أتت عليه ، فبلغ عمر . فقال : هذه امرأة يراد بها خير ، فوقف على بابها وأرسل بالسلام ، وقال : قد بلغنى ما فرّقت ، فأرسل إليها بألف درهم لتنفقها ، فسلكت بها طريق ذلك المال !

(١) رواه البخارى .

وقالت زينب حين حضرتها الوفاة : إنى قد أعددت كفنى ، ولعل عمر سيبعث إلىّ بكفن ، فإن بعث بكفن فتصدقوا بأحدهما ، وإن استطعتم إذا واريتمونى أن تصدقوا بحقوى — إزارى — فافعلوا)[١].

وروى البخارى فى صحيحه قال : جاء أبو طلحة — وهو من زعماء الأنصار وسراتهم — إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، يقول الله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، وإن أحب أموالى إلى بيرحاء . قال : وكانت حديقة كان رسول الله يدخلها ويستظل بها ويشرب من مائها .. فهى إلى الله عز وجل وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم أرجو بره وذخره ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله !

فقال الرسول : بخ يا أبا طلحة ، ذلك مال رابح (وكررها) قبلناه منك ورددناه عليك ، فاجعله فى الأقربين ، فتصدق به أبو طلحة على أقاربه[٢] ! !.

يالله .. ما أبرك السخاء ، وما أعظم التربية الإسلامية التى يثنى الرسول فيها على كرم الرجل وطهارة ماله ووفرة أجره ، ثم يرده عليه ليجعله فى أقاربه ! !

وكان عبد الله بن جعفر بن أبى طالب كريماً معطاء ، حتى لامه الحسن والحسين فى ذلك ، فقال : (بأبى وأمى أنتما يا ابنى رسول الله ، إن الله عز وجل عودنى أن يفضل علىّ وعودته أن أفضل على عباده ، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع الله عادته عنى) !

وعبد الله يقرض من بيده خزائن السموات والأرض ، ويضع نفسه بإحسانه بين الأخيار الذين عناهم أبو حفص عمر رضوان الله عليه بقوله : (اللهم اجعل المال عند خيارنا ، فلعلهم أن يعودوا به على ذوى الحاجة منا) !

وما أجدر عبد الله بأن يكون جواداً ، فأبوه أول من أطلق عليه الرسول لقب (أبو المساكين) ، لما استفاض من أنباء بره ! !

ومن أروع ما قال الشريف الرضى ، رضى الله عنه :

خذ من زمانك ما استطعت فإنما ... شركاؤك الأيام والوراث
لم يقض حق المال إلا معشر ... وجدوا الزمان يعيث فيه فعاثوا

---

(١) الإصابة لابن حجر ، ج ٧ ، ص ٩٢ و ٩٣

(٢) متفق عليه عن أنس رضى الله عنه .

المـال مـال المـرء ما بلغــت به الشهــوات أو دفعت بــه الأحـداث
ما كان منه فاضــلا عن قوتـه   فليـوقـنن بأنــه ميــراث
إنى لأعجب من أناس أمسكوا   بعــلائق الدنيـا وهن رثـاث
كنزوا الكنوز وأغفلوا شهواتهم   فالأرض تشبع والبطـون غراث
ما لى وللدنيـا الخئـونة حاجـة   فليخش ساحر كيدها النفـاث
عاداتهـا منقوضـة وعهودهـا   منكوثة وحبـالهـا أنكاث
طلقتهـا ألفاً لأحسم داءهـا   وطلاق مـن عـزم الطلاق ثـلاث

وقد سئل المغيرة بن شعبة : من أحسن الناس عيشاً ؟! فقـال : من عاش غيره فى خير عيشه !

وما شد حبال التآخى بين الناس كالمعروف والبر ، ولن يستطيع إنسان ، مهما كثر ماله واتسع ثراؤه ، أن يعيش بمعزل عن الآخرين .

يسقط الطير حيث ينتثر الحـب   وتغشى منـازل الـكرمـاء !

فأمـل لعقلك ولقلبك فى قول الله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم »(١).

وتعال نتفيأ سوياً من رياض السنة قول الرسول الكريم : (إن الله يدخل بلقمة الخبز وقبضة التمر ومثله مما ينتفع به المسكين ثلاثة الجنة ، رب البيت الآمر به ، والزوجة تصلحه ، والخادم الذى يناوله المسكين) . ثم قال صلى الله عليه وسلم : (الحمد لله الذى لم ينس خدمنا)(٢).

فإذا استجليت هذه الصور من القرآن والسنة وحياة الأسلاف فعد إلى المجتمع الإسلامى اليوم ، ففيه بر وتراحم وجود وسخاء وتعاون كريم ، وفهم للتوجيه النبوى : (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم) ، وإن كان ذلك الذى نحسه دون ما ينبغى ، وإن كان يعوزه التنظيم والتخطيط الذى يلزمنا فى وجوه حياتنا المختلفة ، فنحن على الطريق إلى المجد والسؤدد والإخاء الوثيق ، والله من وراء القصد .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٦١   (٢) رواه الحاكم والطبرانى .

البخيل لا يسود

بقدر ما يؤلف الجود بين القلوب ، ويدعم جوانب المجتمع الصالح ، يبدو البخل على نقيض ذلك ، فيبغض صاحبه إلى أبنائه وآبائه وأقربائه ، حتى ليتمنون مماته ، ويتعجلون وفاته ، ليتقاسموا مالا حالت دون انتفاعهم به ، حواجز الشح والإمساك ، وكأنما قيل فيه وفيهم :

هالوا عليه الترب ثم انثنـوا　　　عنه ، وخلـوه وأعمـــــاله
لم ينتـــه النـوَّح مـــن داره　　　عليه ، حتى اقتسموا مـالـــه

ومن نوابغ حكم أمير المؤمنين عليّ : (إن البخل والخبث والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله) ! والبخيل قبل ذلك عدو نفسه ، فهو يحرمها من متع الحياة المشروعة ، ويضن عليها بأدنى حظوظ السعة التى يبدو من خلالها أثر نعمة الله عليه ، وفى الأثر : (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عباده ويكره البؤس والتباؤس) ، لكن البخيل يجعل المنع والتقتير قاعدة لا يشذ عنها ، ولا يستثنى — حتى نفسه — منها ، وإنه ليحيا فى الدنيا حياة الفقراء ويحاسب يوم القيامة حساب الأغنياء .

ولقد وضع القرآن الكريم هذه الرذيلة ، ومن التاثوا بها ، فى صورة زاجرة عنها ، منفرة منها .

قال تعالى : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السموات والأرض ، والله بما تعملون خبير »(1) تطويقاً يجلوه قوله تعالى : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم * يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون »(2) الجباه التى تجهمت للسائل ، والجنوب التى ازورّت عنه ، والظهور التى أديرت له ،

---

(1) سورة آل عمران ، الآية ١٨٠

(2) سورة التوبة ، الآيتان ، ٣٤ و ٣٥

أما النفوس الموحية ، فلها الإخزاء ، والتقريع الذى يخلص إليها من قوله سبحانه : « هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ! » .

والرسول يصور لهؤلاء الأشحاء مالهم يوم يلقاهم فى الآخرة شجاعاً أقرع . فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما من أحد لا يؤدى زكاة ماله إلا مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع حتى يطوق عنقه)(١) . ثم قرأ علينا النبى : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم ، بل هو شر لهم ، سيطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة ... »(٢).

وفى رواية مسلم عن جابر بزيادة : (إلا جاء كنزه يوم القيامة شجاعاً أقرع يتبعه فاغراً فاه ، فإذا أتاه فر منه ، فيناديه : خذ كنزك الذى خبأته فأنا عنه غنى ، فإذا رأى أن لابد له منه سلك يده فى فيه فيقضمها قضم الفحل) . والشجاع نوع من الحيات ، وقيل الذكر خاصة . والأقرع : الذى تساقط شعره من طول عمره .

ويقول صلوات الله عليه : (شر ما فى المرء شح هالع ، وجبن خالع)(٣) .

وكيف لا يكون البخيل طائر القلب ، مضطرب اللب ، لا يجد إلى الاستقرار سبيلا ، والناس يزورّون عنه ازوراراً ، ويمكرون به مكراً كباراً ، لأنه منع رفده ، وحبس مال الله عنده ، فلم يسد به جوعة جائع ، ولم يقض به حاجة محتاج !

وما أشبه إحسان الله إلى هؤلاء بما قيل :

نعمة الله لا تعاب ، ولكن ... ربما استقبحت على أقوام !

ومال هذه حاله ، من الجمود والركود ، يعاجله النفاد ، ويسارع إليه الفساد بقدر ما يصيب أعمال صاحبه من بوار وكساد ، ذلك وعيد أصدق القائلين وأسرع الحاسبين :

« وأما من بخل واستغنى ٭ وكذب بالحسنى ٭ فسنيسره للعسرى ٭ وما يغنى عنه ماله إذا تردى »(٤).

وصلوات الله على رسوله الذى يقول : (... والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار)(٥).

---

(١) الحديث عند أحمد ومسلم . (٢) سورة آل عمران ، الآية ١٨٠
(٣) رواه أبو داود وابن حبان فى صحيحه .
(٤) سورة الليل ، الآيات ٨ — ١١ (٥) رواه الترمذى .

ولقد قرر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن البخلاء ليسوا أهلا للسيادة ، ولا خلقاء بوصف الإيمان فقال : (خصلتان لاتجتمعان فى مؤمن : البخل وسوء الخلق)[1].

ذلك لأن مقتضى الإيمان أن تسخو نفوسنا ، وأن تلين بالبذل أيدينا ، ثقة فى الله الذى ينفق على من أنفق ، وطمعاً فى مزيد من يضاعف العطاء ويجزل المثوبة والجزاء . وأبو العلاء يقول :

أنفق لترزق ، فالعطاء الظفر[2] إن   يترك يشن ، ويعود حين يقــلم

وثمرة الإيمان ، مرة أخرى ، هى الخلق الذى لا يكون لامرئ حتى يكون جواداً !

وقد سأل النبى بنى سلمة : من سيدكم ؟ قالوا : سيدنا الجد بن قيس ، على بخل فيه ! قال : وأى داء أدوأ من البخل ؟ ! سيد بنى سلمة ، الأبيض الجعد بشر بن البراء ابن معرور !

وقد أبصر الذى يقول :

ذرينى فإن البخــل يا أم هيـــثم   لصالح أخــلاق الرجال سروق !

وأى خلق فاضل لرجل يقيض يده حين تجتاح الناس الشدائد ، وتأخذ بمخانقهم الأزمات ، وتقعد بهم عن النهوض نوازل مذهلة ؟

أين مصباح يوحين الكلبى لنبحث فى جثمان هذا الإنسان عن ضمير ، أوصالح شعور !

وهل يناط بمثل ذلك أمل ؟ أو يرجى منه خير ؟ وإن مصيبته بنفسه لأفدح من مصاب الناس به .

يقول السيد مصطفى صادق الرافعى فى كتابه (المساكين) :

(ولقد يصاب الناس بألوان من العذاب ، ويمتحنون بضروب من المكروه ، وترسل عليهم الآفات تختلجهم من ههنا وههنا ، غير أنهم يجدون لكل مصيبة محلا من الصبر ، يمسكونها فيه ، فتجيء وحدها وتذهب وحدها ، وإنما هى الغمرات ثم

---

(١) رواه الترمذى .   (٢) الظفر : أحد أظفار الأصابع .

ينجلين .. فإن من رحمة الله ، أن لا يزال الليل والنهار يتراكضان بيننا وبين النسيان بالسلوى والعزاء أو نحو ذلك) .

ولكن الطائفة من الناس ، إذا ابتليت بالغنى البخيل ، ابتليت منه بالمصيبة التى تأكل المصائب ! إذ يرون فيه أشياء من معانى القحط والجدب والوباء والفقر والعداوة والبغضاء ، وطرفاً من كل جائحة ، ومعنى من كل آفة ، بحيث تضيق به جوانب الصبر على سعتها وانفساحها ، وتنزوى دونه ، فتختلط كل مصيبة بكل مصيبة ، وليس يأتى على هذا الإنسان شىء (أى يهلكه — كتداخل مصائبه بعضها فى بعض ، فإن ذلك يمحق الصبر ، ويذهب بالسكينة ، ويفسد الرأى ، ويفتق على العزم من كل ناحية فتقاً ، ويترك المرء كأنه مجنون بشىء أكبر من الجنون !! فالغنى البخيل من ذلك كله ، بل هو ذلك كله) .

فهل يكثر على مثل هذا أن يتخلى الله عنه فى الآخرة كما تخلى عن الناس فى الدنيا ، وأن يدعه لأمواله التى عكف عليها ، وركن فى الدنيا إليها ، وكان معها كما قال السيد حسن الغاياتى :

كناحت صنماً يوماً على يده وبعد ذلك يرجوه ويخشاه !!

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (خلق الله جنة عدن بيده ، ودلى فيها ثمارها ، وشق فيها أنهارها ، ثم نظر إليها فقال لها : تكلمى ، فقالت : قد أفلح المؤمنون ، فقال : وعزتى وجلالى ، لايجاورنى فيك بخيل)[1] .

* * *

والحديث عن شناعة البخل ، وضعة الأشحاء ، يطول وتتسع جوانبه ، ولكنى أرفه عن القارئ بطرائف ، ولعلها مع ذلك توقظ الغافلين الذين أعطاهم الله ما لم يعط سواهم ، فشحوا ومنعوا ، ولو عاملوا الناس بالإحسان ، لضاعف الله لهم العطاء ، وبادلهم الناس وفاء بوفاء وولاء بولاء ، ونعم أجر العاملين .

---

(١) رواه المنذرى بسنده فى « الترغيب والترهيب » .

عرف أحد الأزواج بتقتيره على زوجه وأهله ، فخاصمته امرأته يوماً ، وقالت : (والله ما يقيم الفأر فى بيتك إلا لحب الوطن ، فهو يسترزق من بيوت الجيران) ! !

وحدثوا أن رجلا تصدق على سائل ضرير فى أصفهان ، فقال الضرير : رد الله غربتك ! فسأله المتصدق : ومن أنبأك أننى غريب ؟ !

فقال السائل : إننى أسأل ههنا منذ عشرين عاماً ، فما تصدق علىَّ أحد من أهل أصفهان برغيف صحيح ، فلا بد أن تكون غريباً ! !

وكان رجل إذا صار الدرهم فى يده خاطبه وناجاه واستبقاه وفداه . وكان يقول : بأبى أنت وأمى ، كم من أرض قطعت ؟ وكم من كيس دخلت ؟ وكم من خامل رفعت ؟ لك عندى أن لا تعرى ولا تضحى . ثم يلقيه فى كيسه ويقول : (اسكن على اسم الله فى مكان لا تزال فيه ولا تزعج عنه !) .

ومرة أخرى : إن البخل يضاعف على العليل علته ، وعلى المعوز عوزه وفاقته ، وعلى اليتيم يتمه ووحشته ، وعلى التى فقدت كافلها قسوة الحياة ، وعجزها عن مواجهة تكاليفها .

قال الأصمعى : حججت فمررت على بعض المناهل ، فإذا بجارية تسأل الناس ، وكأن وجهها بدر طالع . فقلت لها : مثل هذا الوجه يسأل ؟! فأخرجت كفاً لها من تحت خمارها ، كأنه كف صبى ، ولطمت به وجهها ، ثم أنشأت تقول :

لم أبده حتى تقضت حاجتى ... فبذلته ، وهو الأعز الأكرم
قد صنته وحجبته حتى إذا ... لم يبق لى سبد[1] ومات الهيثم
أبرزته من خدره ، مقهورة ... والله يشهد لى بذاك ويعلم
كشف الزمان قناعه فى بلدة ... قل الصديق بها ، وعز الدرهم

قال أبو الأسود الدؤلى : وقف علىَّ أعرابى ، وأنا آكل تمراً ، فقال : شيخ هِمٌّ[2] — ضعيف عاجز — غابر ماضين — خلف من سلف . ووافد محتاجين ، أكلنى الفقر ، وردنى الدهر ضعيفاً أسيفاً ذهب مالى . فناولته تمرة ، فضرب بها وجهى ، وقال : جعلها الله حظك من عنده ! !

---

(١) السبد : أقل ما يملك . (٢) الهم بكسر الهاء : الكل الضعيف .

وقد رأى النبى صلوات الله عليه ، قنواً من حشف — ردىء التمر — معلقاً فى المسجد للصدقة ، فقال : (إن صاحب هذا يأكل الحشف يوم القيامة)[١].

قال ابن القيم فى تفسيره القيم ، ص ١٢٤ : (فأخبر أن جزاءه يكون من جنس عمله ، فيجزى على تلك الصدقة بحشف من جنسها !) .

والله عز وجل يقول : « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد ◌ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم »[٢].

فهل تلين يد البخيل ... ولو بالحشف ؟ !

ولا يطب من داء البخل غير الإيمان ، والثقة فى إخلاف الرحمن ، ويرحم الله السيد الرافعى فهو يقول : (إن البخل وحده لفى حاجة إلى نبى يصلحه) .

وفى صريح القرآن والسنة ، وفى قصص الأولين — محسنين وباخلين — شفاء لمن برحت بهم هذه العلة ، إن أرادوا ، فهل يريدون ؟ !

(١) رواه النسائى وأبو داود .
(٢) سورة البقرة ، الآيتان ٢٦٧ و ٢٦٨

جوارحنا لنا أم علينا

الأخلاق العالية وجه وضيء للتقوى ، والأخلاق النازلة أثر من آثار الغفلة عن الله . وما دامت التقوى هي لب الإيمان ومغزاه ، تعرف بآثارها ومظاهرها من خلال أقوالنا وأعمالنا ، فنحن مدعوون إلى اعتبار جوارحنا التي نقول بها ونعمل ، ونأخذ بها وندع ، حتى نجعلها أقرب ما تكون إلى قصد السبيل من تعاليم الإسلام ووصايا النبي عليه الصلاة والسلام ، حتى تكون لها الحياة وما وراءها .

وإذا كنا نضن بتجاراتنا وذخائر حياتنا أن تمتد إليها يد بسوء أو يسطو عليها اللصوص ، فنقيم دونها الحواجز والسدود — ما استطعنا — فإن أسماعنا وأبصارنا وبصائرنا تستوجب منا مزيداً من العناية بها ، ورد العوادى عنها ، فهى أعز وأغلى من المال المكنوز الذى لا يغنى مع الحرمان منها شيئاً ، وهى — إن أحسنا استعمالها واستغلالها — تضاعف لنا المال ، وتوفر من حولنا أسباب الرفاهية والكمال ، وإنها لنعم يمن الله عز وجل بها على عباده ، وتوجب صادق الشكر له سبحانه : « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »[1] ، « الذى أحسن كل شىء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ۝ ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ۝ ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، قليلا ما تشكرون »[2] ، « قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون »[3] .

إن الخوض فى الأعراض وتدبير السوء للآخرين ، وأحاديث الشر التى يتفكه بها الفارغون اللاهون ، ويقتلون بها أوقات فراغهم فى كثير من أنديتنا ومجامعنا — وما يقتلون إلا أنفسهم وما يشعرون — إنما هى لصوص تسرق أسماعنا وتتسلل إلى قلوبنا لتتركها بوحشة من الأنس بالله تعالى !

---

(١) سورة النحل ، الآية ٧٨ (٢) سورة السجدة ، الآيات ٧ — ٩
(٣) سورة الملك ، الآية ٢٣

والعاقل الرشيد هو الذى يعرف وظيفة سمعه ، فيفتحه على ما خلق له ، ويكفه عما نهينا عنه ، فلقد أدبنا الله تعالى بقوله : « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين »(١) ومدح المؤمنين بقوله : « وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، سلام عليكم لا نبتغى الجاهلين »(٢) ، وهو سلام الترك — بعد الوعظ — والإعراض الذى يكرمون به أنفسهم عن الزور الذى قرنه الله بعبادة الأوثان فى قوله : « فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور »(٣).

وإن أسماعنا لأكرم علينا من أن نجعلها أقماعاً للغو اللاغين ، وإفك الآفكين ، وأى نذير أبلغ من أن يقرن الله سامعى الكذب مع آكلى السحت فى قوله : « سماعون للكذب أكالون للسحت »(٤) !

وحينما هانت أسماع الكثيرين عليهم فارتضوها مرتعاً للترهات ، فشت فيهم فاشية الغيبة وشاعت شيوع الهواء فى أوساط وبيئات ، واستطاع الشيطان الرجيم أن يزكم بها الأنوف وهو يضع على أفواه المغتابين بعض العسل ، كما ورد فى بعض الآثار : (أن عيسى عليه السلام رأى إبليس وبإحدى يديه عسل وبالأخرى تراب ، فسأله عيسى ماذا هو صانع بهما ؟ فقال : أما العسل فأضعه على أفواه المغتابين حتى يجدوا حلاوة الغيبة فيتكثروا منها ، وأما التراب فأضعه على وجوه اليتامى حتى يتقذرهم الناس) ! ونعوذ بالله من أشراك الشيطان وفخاخه !

وقد نهى الله عن هذه الرذيلة بين حشد من الرذائل ، بصورة تخلع عن فاعليها وصف الإنسانية ، وهم لا يلغون فى دماء الناس فحسب ، ولكنهم يتضلعون من لحوم الموتى ، فقال : « ولا يغتب بعضكم بعضاً ، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ، واتقوا الله ، إن الله تواب رحيم »(٥) ، وقد مر الشعبى يوماً على رجل اغتابه ، فأنشد :

هنيئاً مريئاً غير داء مخامر ... لعزة من أعراضنا ما استحلت

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ٦٨
(٢) سورة القصص ، الآية ٥٥
(٣) سورة الحج ، الآية ٣٠
(٤) سورة المائدة ، الآية ٤٢
(٥) سورة الحجرات ، الآية ١٢

وبلغ الحسن البصري أن رجلا وقع في عرضه ، فأرسل إليه طبقاً من التمر ومعه بطاقة كتب فيها : (بلغني أنك أهديت إليَّ بعض صالح عملك فأحببت أن أرسل إليك هذه الهدية) ! !

وأي شيء وراء الويل الذي توعد الله به هؤلاء في قوله : « ويل لكل همزة لمزة » (1) ؟!

وأي تدبر أبلغ من قول الله في حديث الإفك : « ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا ، سبحانك هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين »(2).

قيل للربيع بن خيثم : نراك لا تذم أحداً . فقال : لست عن نفسي راضياً فأتفرغ لذم الناس .. ثم أنشد :

لنفسي أبكي لست أبكي لغيرها لنفسي من نفسي عن الناس شاغل

(وطوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس) كما قال المعصوم صلوات الله عليه .

* * *

وما أعظم خطر اللسان ، وأفدح مصاير من لا يجعلونه وراء عقولهم ، والنبي يقول : (إن أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا ، يهوي بها سبعين خريفاً في جهنم ، وإن أحدكم ليتكلم بالكلمة من رضى الله يرفعه الله بها أبعد ما بين السماء والأرض) .

وقد ضرب الله مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة فقال : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار »(3) .

فلئن وصلت الكلمة الطيبة الأرض بالسماء ، وكانت كالشجرة المظلة المثمرة ، لقد راحت الكلمة الخبيثة كالشجرة التي تعوق السير ولا يجني الناس منها إلا الضرر والضير ! وما أبعد مسافة الخلف بين قول وقول ، وكلام وكلام « لا خير في كثير من

(1) أول سورة الهمزة .

الهمزة : عتاب الناس في وجوههم ، واللمزة : مغتابهم من خلفهم .

(2) سورة النور ، الآيتان ١٦ و ١٧ (3) سورة إبراهيم ، الآيات ٢٤ — ٢٦

نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً »(١).

ولقد حذر الرسول المؤمنين من عثرات اللسان ، وذكرهم ببركاته ، فقال لعقبة ابن عامر حين سأله : ما النجاة : (أمسك عليك لسانك ، وليسعك بيتك ، وابك على خطيئتك) . وحين أمر الرسول معاذ بن جبل ونهاه أشار إلى لسانه ، فقال معاذ : أو نحن مؤاخذون بما تتكلم به ألسنتنا يا رسول الله ؟ فقال : (ثكلتك أمك يا معاذ .. وهل يكب الناس على مناخرهم فى جهنم إلا حصائد ألسنتهم(٢)؟ إنك ما سكت فإنك سالم ، فإذا تكلمت فإنما هو لك أو عليك)(٣) أخذ ذلك المعنى النبوى أبو نواس فقال :

خـــل جنبيك لـــرام ... وامض عنـــه بسلام
مـت بـداء الصمت خـير ... لك من داء الـــكلام
إنمـــا الســـالم ألجم ... ... فـــاه بلجـــام !

وما ينبغى أن تأخذنا بألسنتنا رأفة ، وهى فى سجنها وراء أسوار الشفاه والأسنان ، فلا نطلقها من أسارها حتى ينتدبها العقل ويدعوها الإيمان ، ورضى الله عن ابن مسعود إذ يقول : (والله الذى لا إله إلا هو ما على ظهر الأرض شىء أحوج إلى طول السجن من اللسان) ! فهل ندرك كيف كان يحوز أبو بكر لسانه فيضع الحصاة تحته ؟ ! وأنه كان يشير إلى لسانه ويقول : (هذا الذى أوردنى الموارد) ؟ ! وكيف سئل عمر ابن عبد العزيز عن رأيه فى قتلة عثمان وخاذليه وناصريه ؟ فقال : (تلك دماء كف الله يدى عنها فلا أحب أن أغمس لسانى فيها) !

فليقل من شاء ما شاء ، وليجردوا ألسنتهم بالسوء فى جميع الأحياء ، وليحرفوا الكلم عن مواضعه ، وليزيفوا الحقائق إشفاء لقلوب حاقدة وصدور واجدة ، فإن الناقد بصير ، والله عليم بذات الصدور ، ورحم الله الإمام الشافعى إذ يقول :

لسانك لا تذكر به عـــورة امرئ ... فكلك عـــورات وللنـــاس ألسن ! !

والبصر آية كبرى من آيات الله الكثيرة ، إن نحن أدرناه فى كتاب الكون

---

(١) سورة النساء ، الآية ١١٤ (٢) أخرجه الترمذى قال : حديث حسن صحيح.
(٣) الترمذى : قال : حديث حسن صحيح (وإنك ما سكت .. من زيادة معاذ ، إذ لم تكن من نص الحديث) .

وأرسلناه فى ملكوت السموات والأرض ، كشف لنا من أسرار الله فى الأنفس والآفاق ما فيه هدى واعتبار ، وذكرى لأولى الأبصار ، وبقدر إفادتنا من إنعام النظر فيما يقوم حولنا ويضطرب بين أيدينا من أحداث الحياة وجوانب الكون تكون خلافتنا عن الله فى عمارة كونه وإصلاح خلقه « وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون ، وفى السماء رزقكم وما توعدون »[١].

كان النظر سبيل إبراهيم عليه السلام إلى معرفة ربه : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين »[٢].

وكان النظر والتفكر عبادة محمد وزاده من الطاعة حتى اصطفاه الله ونزل عليه الوحى : « ألم يجدك يتيماً فآوى ، ووجدك ضالا فهدى .. »[٣].

وأين من هذه النظرات الهادية المؤمنة ، نظرات الغواة الغافلين عن قصاص الحياة وانتقام الله ، وهم يقتحمون بأبصارهم الحرمات ، ويتبعون العورات ، ويرمقون الناس بالنظر الظالم غادين ورائحين ؟!

إن العرى الفاضح الذى يواجهنا فى الشوارع والمجامع والذى يتجاوز الشواطئ عن طريق الصحافة الهادمة ووسائل الإعلام المنظورة إلى البيوت ، وهذا الاختلاط الذى فشا فى كثير من البيئات ، وعمت به البلوى ، إنما هى لصوص تسرق أبصارنا ، وتعدو شيئاً فشيئاً على إيماننا فتنتزعه من بين جوانحنا ، ولو أننا عرفنا وظيفة هذه الأبصار ، فرددناها إلى ملكوت السموات والأرض ، وأنفقنا بعض نورها الإلهى فيما خلقها الله من أجله ، ومع هؤلاء الذين يرتادون الفضاء ويحاولون اكتشاف ما وراء المنظور ، لوجدنا الله من أمام مشكلات حياتنا كلها ، يذلل صعبها ، ويعين على بلوغ أقصى درجات الكمال فيها . وفى الحديث القدسى : (وعزتى إن من اعتصم بى فإن كادته السموات السبع ومن فيهن والأرضون السبع ومن فيهن فإننى أجعل له من كل

(١) سورة الذاريات ، الآيات ٢٠ — ٢٣ .
(٢) سورة الأنعام ، الآيات ٧٥ — ٧٩ (٣) سورة الضحى ، الآيتان ٦ — ٧

ذلك مخرجاً ، ومن لم يعتصم بى فإننى أقطع يديه من أسباب السماء وأخسف من تحت قدميه الأرض ، فأدعه معلقاً فى الهواء ، كفى لعبدى ملأى إن كان عبدى فى طاعتى أعطيته قبل أن يسألنى وأجبته قبل أن يدعونى ، وأنا أعلم بحاجته التى ترفق به من نفسه)(١)

ولقد كان المسلمون فى عصور الخير والنور — وما تزال طائفة منهم ظاهرين على الحق إلى قيام الساعة — يغضون أبصارهم عن الشر ، ويكفونها عما لا يحل لها نظره ، طاعة لله الذى أمر بغض البصر قبل أن يأمر بحفظ الفروج فى قوله : « قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون * وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ... »(٢).

وكانوا يشقون على أنفسهم فى غير ما حرم الله عليهم من ذلك ، ردعاً لأنفس إن أرخينا لها الزمام كرعت من الخطايا والآثام ! واستمرأت مرعى الشرور ، فلا يزعها بعد ذلك وازع !

روى هارون بن رئاب أن غزوان كان مع أبى موسى الأشعرى فى حرب الروم فتكشفت رومية ووقعت عين غزوان عليها ، فآلمه ذلك وجاش بخشية الله قلبه ، فلطم عينه بجمع كفه حتى نفرت — هاجت وتورمت — وقال : يا عين السوء إنك لحاظة إلى ما يضرك ولا ينفعك ، ثم لقى أبا موسى فقص عليه قصته ، فقال أبو موسى : (ظلمت نفسك فاستغفر الله وتب ، فإن لك النظرة الأولى وعليك ما كان بعد ذلك) .

قال الإمام الأوزاعى : وما رئى غزوان بعدها ضاحكاً حتى لقى الله ! وأين الخلف من السلف أيها الناس ؟!

ولقد تلقى من يقول لك إننا فى الشواطئ نرى هذه وتلك عاريات ، إلا من قدر كف ، أو كما يقولون : (إلا من ورقة التوت) ، فلا تثير إحداهن فينا نزوة ، ولا تحرك شهوة ! ! هؤلاء يخدعون أنفسهم ، ويخطئون الحق فى قولهم ، فالذى لايحسونه فى الواقع ، ماثل لا يحتاج إلى دليل ، وهم لذلك لا يتلهفون عليه ولا يتعبون أنفسهم فى الوصول إليه ، فهو عن يمين وشمال وخلف وأمام وعلى كل حال .. ولكن القوم كما قال الله : « يجادلونك فى الحق بعد ما تبين »(٣) والهدى هدى الله ! !

---

(١) رواه أحمد ، إغاثة اللهفان ، لابن القيم ، ج ١ ص ٣٤

(٢) سورة النور ، الآيتان ٣٠ و ٣١ (٣) سورة الأنفال ، الآية ٦

والحقد والحسد لصوص تسرق قلوب ذويها، وتطمس معالم الإيمان فيها، وأصحاب هذه العلل النفسية، لا يصلحون للسيادة، ولا يملكون وسائل القيادة، ولقد أدب الله داود عليه السلام فقال: «يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب»(١)، ونهى المؤمن، فقال: «ولا تقف ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا»(٢)، وقديماً فاخر المقنع الكندى على قومه فقال:

ولا أحمل الحقد القديم عليهم ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

والقلوب تتسع وتشرق وتغمرها السكينة بذكر الله «الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله، ألا بذكر الله تطمئن القلوب. الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب»(٣).

وإنها لتضيق وتظلم بآثار المعصية، فما تزال النكتة السوداء تجتمع بأختها فى قلوب العصاة حتى تتركها قطعاً من السواد لا عهد لها بالنور «كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون»(٤). ويقول معلم الناس الخير صلوات الله عليه: (تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عوداً عوداً، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء حتى تعود القلوب على قلبين، قلب أسود مرباداً كالكوز مجخياً — منكوساً — لايعرف معروفاً، ولا ينكر منكراً، إلا ما أشرب من هواه، وقلب أبيض فلا تغره فتنة ما دامت السموات والأرض)(٥).

قال صاحب التحرير: (معنى الحديث أن الرجل إذا اتبع هواه، وارتكب المعاصى، دخل قلبه بكل معصية يتعاطاها ظلمة، وإذا صار كذلك افتتن وزال عنه نور الإسلام، والقلب مثل الكوز، فإذا انكب انصب ما فيه ولم يدخله شىء بعد ذلك)(٦).

---

(١) سورة ، ص ٢٦ (٢) سورة الإسراء، الآية ٣٦
(٣) سورة الرعد، الآيتان ٢٨ و ٢٩ (٤) سورة المطففين، الآية ١٤
(٥) عن حذيفة بن اليمان.
(٦) هامش ص ٢٢ ج ١ من إغاثة اللهفان، طبعة الحلبى.

وسلامة القلب من الأضغان هي من أمارات الإيمان . وبها بشر الرسول سعد بن مالك بالجنة ، فقد روى أن الرسول كان بين أصحابه يوماً فقال : يدخل علينا الآن من هذا المكان رجل هو من أهل الجنة ، وأشار إلى ناحية ، فلم يلبث أن دخل منها سعد بن مالك ، ثم جلس فى يوم آخر وقال : يدخل علينا الآن من هذا المكان رجل هو من أهل الجنة ، وأشار إلى ناحية ، فلم يلبث أن دخل منها سعد بن مالك ، وكرر ذلك أياماً كان الداخل فيها سعد بن مالك ، فلزمه عبد الله بن عمرو بن العاص ليالى وأياماً ، فلم يجد من عبادته ما يستوجب به هذه البشريات النبوية ، فصلاته وقيامه وطاعاته لا تزيد بها عن غيره من الصحابة ، فلما سأله فى ذلك قال سعد : إننى أصبح وأمسى وليس فى قلبى مثقال ذرة من كيد لأحد ، قال عبد الله بن عمرو : فذكرت عند ذلك قول الله تعالى : « يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم »(١).

إن ألسنة نمسكها عن الشر ، وآذاناً نغضها دون الإثم ، وأعيناً نغمضها عن محارم الله ، وقلوباً نأبى أن تنفذ إليها عن طريق جوارحنا رواسب عقلتها ، لهى جوازنا إلى رضى ربنا ، وسبيلنا إلى حياة راضية تتناجى فيها القلوب بالبر والتقوى ! !

فاحذر — أيها المؤمن — أن تغلبك على جوارحك لصوص الشهوات ، وإذا ضعفت نفسك أمام بريق الفتن ، وزحوف الشر ، فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون »(٢).

---

(١) سورة الشعراء ، الآيتان ٨٨ و ٨٩

(٢) سورة النحل ، الآيتان ٩٩ و ١٠٠

تناصح المؤمنين ضرورة

تختلف منازل كلام الناس ، وتتفاوت درجاته ، وأزكاه وأنفعه ، ما دعا إلى هدى، أو ردّ عن ردى ، وحبب فضيلة ، وبغض رذيلة، وما أسديت به إلى أحد نصيحة تريد بها خيره ، فذلك من المعروف والإصلاح اللذين أرادهما الله بقوله : «لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً »(١) .

ولقد كان أنبياء الله ورسله ، نصحة وادين، يأخذون بأيدى أممهم أفراداً وجماعات فى هوادة وصدق ، إلى سواء السبيل ، بعد أن لبس عليهم الشيطان معالم الخير ، ومشاهد الكمال ، وجاء خاتمهم محمد صلوات الله عليه بهذا الدين من ربه ، فجعل ذروة الإسلام وسنامه ، وجماع أصوله وقواعده ، فى كلمة واحدة ، هى (النصيحة) فقال : (الدين النصيحة ، قلنا : لمن يا رسول الله ، قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المؤمنين وعامتهم)(٢).

الدين النصيحة ، والذين يعطلون النصيحة فلا يسدونها لسواهم ، كالذين تضيق صدورهم حين ينصح لهم ناصح أمين ، ما أبعدهم عن سنن الإسلام ، وهدى محمد عليه الصلاة والسلام ، وما أبعد مسافة الخلف بينهم وبين صحابة رسول الله ، وصالحى هذه الأمة والراشدين عبر الحياة .. فلقد وقف الصديق أول يوم فى خلافته ، على منبر رسول الله فقال : (أيها الناس ، إنى وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن رأيتمونى على حق فاعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فقوّمونى ، أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لى عليكم) .

وولى أمر المسلمين من بعده عمر الفاروق ، فحرض المؤمنين على النصيحة له ، وقال : (رحم الله امرأ أهدى إلىّ عيوب نفسى) ، فقال له رجل : (لو رأينا فيك

---

(١) سورة النساء ، الآية ١١٤ (٢) عن تميم الدارى – متفق عليه .

اعوجاجاً لقومناه بحد سيوفنا) ، فهش لها أبو حفص وقال : (الحمد لله الذى جعل فى أمة محمد من يقوّم اعوجاج عمر إذا اعوج) !

وبلغ رضوان الله عليه القمة فى فرض سلطان الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتناصح الناس ، حين قال له رجل : (اتق الله) ، وكاد المسلمون يبطشون بالرجل ، لولا أن بادرهم الخليفة بقوله : (لا خير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نقبلها) !

وهكذا نصح علىّ — كرم الله وجهه — للعمرين ، ونصح ذا النورين ، ونصح الذين خالفوا عن أمره ، فلم يغنهم النصح شيئاً ، يوم التحكيم ، وكان عاقبة ذلك ما نتجرع مرارته حتى الساعة من فتن يحاول قمعها أقوام ، ويشعل نارها ويذكى أوارها آخرون ، لهم فى الفرقة يد طولى ودنيا مؤثرة ، والعياذ بالله !

* * *

ولقد تعاقب المسلمون وهم يسارعون إلى النصيحة ، وتشرق بها وجوههم وقلوبهم ، بعد أن سمعوا الله عز وجل يذم الأخنس بن شريق بقوله : « وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد »(١) .

وبعد أن تكاثرت وصايا الصالحين فيها ، وفى ضرورة شيوعها بين الأفراد والجماعات . فقال ابن عمر : (أيها الناس ، تهادوا النصائح كما تتهادون الأطباق) . وقال أحد الصالحين : (صديق لك كلما لقيك ذكرك بعيب فيك خير من صديق لك كلما لقيك وضع فى كفك ديناراً) ! ولقد فقه الرجل ، فإن الدينار ينفد ويبقى العار ، وتنتهى الأطباق ، ولكن الرذائل التى لم ينخلع عنها أهلوها تنمو وتزيد ، حتى تكون زادهم من دنياهم إلى أخراهم ؟!

ولقد صلح أمر هذه الأمة بقدر سيادة النصيحة ، وانطلاق ألسنة العارفين بها ، وإشراق صدور المنصوحين لها .

وما استطال سلطان الباطل ، واتسع نطاق الفوضى ، واختلطت موازين الحق ، ووسد الأمر إلى غير أهله ، وابتليت المجتمعات بمن يملكون وسائل التوجيه والأمر والنهى قبل أن يلوح لهم وجه الصواب ، ويملكوا الإنصاف والتجرد عن الهوى فيما

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٠٩

يقولون ويفعلون ، إلا حين تضاءل أمر النصيحة ، وتقلص ظلها ، أو حين أعدنا إلى الحياة صورة النفاق الإسرائيلي الذى كان به هؤلاء الناصحون للعصاة الأثمة يلقونهم بعد ذلك فيجالسونهم ويؤاكلونهم ويشاربونهم — كما قال المعصوم صلوات الله عليه — ثم قرأ قول الله تعالى : « لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ❊ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون ❊ ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون ❊ ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ، ولكن كثيراً منهم فاسقون »(١).

والإسلام حين أوجب أن نتناصح ، إنما قرر بدهية تخفى على الكثيرين : فالمرء لا يرى عيب نفسه أو كما قيل : (ويل لمن يرى القذاة فى عين أخيه ولا يرى الجذع فى عينه) .

وليس الناس على درجة واحدة من العلم بالله وأحكامه ، وحلال هذا الدين وحرامه ، ووجوه العمل المثمر ، والتصرف البصير فى شؤون الحياة ، وأمور المعاش ، ولا تزكو النصائح ، ولا تؤتى أكلها ، إلا حين تجىء على الأساس الإسلامى ، من إخلاص الناصح ورفقه ، وابتغاء إصلاح المنصوح ، لا التشهير به ، والغض من قدره ، و (النصيحة فى الملإ فضيحة) كما قال الإمام الشافعى !

❊ ❊ ❊

وما أجدى اللين ، وأينع ثمراته فى الموعظة ، وما أبرك الرفق والحكمة فى محاولة صرف الناس عما ألفوا ، إلى ما يوافق الدين ويواكب أمر الله ، وهشاشة الطبيب أدخل فى وسائل شفاء مرضاه من عقاقير وأدوية ذوات عدد .. ولقد وصى الله موسى وهارون فقال : « اذهبا إلى فرعون إنه طغى ❊ فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى »(٢) وقال لصفوته من خلقه محمد صلى الله عليه وسلم : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن »(٣).

---

(١) سورة المائدة ، الآيات ٧٨ — ٨١ ، وفى الباب أحاديث أخرجها أبو داود والترمذى وأحمد وغيرهم .

(٢) سورة طه ، الآيتان ٤٣ و ٤٤ (٣) سورة النحل ، الآية ١٢٥ .

والناصح والطبيب وكل ذى عمل ، لايبلغ من الخير إلا بقدر سلامة وسائله وصدق نيته ، ونبل مقصده ، وما أشقى الحياة بهؤلاء الذين يزيفون الحقائق ، ويتملقون العامة ، ويذرفون دموع التماسيح ، فى مناسبات توجب الجد لا العويل الذى يحسنه النساء أكثر مما يحسنه هؤلاء ! الجد فى المعرفة والقدرة وإشاعة الحب بين الإخوة ، بقدر ما يدعون إلى المحبة والتسامح بين أهل الأديان فى بلد واحد — على الأقل — بمناسبة وغير مناسبة ! وأين من يسمع ، وأين من ينصف ؟

وإلى الدعاة إلى الله قبل سواهم يساق هذا الحديث ، إلى الذين ينقضون اللبنات الصالحة التى دعم بها (جد كل تقى) عليه الصلاة والسلام بناء هذه الأمة ، التى فارقها وأمرها جميع على قلب رجل واحد ، وتركها وديعة فى أعناق المخلصين يحفظون وحدتها ، ويأبون أن تتفرق كلمتها ، وفيهم عين تطرف !

ولقد ضرب رسول الله للناس ، برهم وفاجرهم ، مثلا ، فقال فيما روى النعمان ابن بشير رضى الله عنه : (مثل القائم[1] فى حدود الله[2] ، والواقع فيها ، كمثل قوم ، استهموا[3] على سفينة ، فأخذ بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها ، إذا أرادوا الماء ، مروا على من فوقهم ، فقالوا لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ، ولم نؤذ من فوقنا ! فإن تركوهم وما أرادوا ، هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم ، نجوا ونجوا جميعاً)[4].

فأين نحن مما يفدح الأمة من سطو البغاة وبطش بعض الولاة ، وتحكم الآثمين ، واجتياح أمم ، وتشريد شعوب ، بغير ذنب أتته ، إلا أنها فى وفرة من مال ، وازدهار واستقرار فى حال ومبادرة إلى إسداء المعروف ، وكأن لسان حالها يقول :

إذا محاسنى اللاتى أدل بها   كانت ذنوباً فقل لى : كيف أعتذر ؟

---

(١) القائم فيها : منكرها والدافع لها . (٢) حدود الله : محارمه .

(٣) استهموا : اقترعوا . نجوا ونجوا جميعاً : أى الآخذين على الأيدى لمنعهم من الخرق والمأخوذين .

(٤) رواه البخارى بلفظه .

سبيل السيادة

يتطلب الإنصاف — فضلا عن المروءة ووازع الدين — ممن يلي للناس عملا ، أن يتحرى الحق جهده ، فلا يحركه غرض ، ولا يدفعه إليه هوى ، ولا يجامل بالباطل أناساً لا يدفعون عن أنفسهم ، فبالحق قامت السموات والأرض ، والله هو الحق المبين .

تلك بعض بدهيات العلم التي لا يرتاب فيها مرتاب ، جرت عليها الحياة ، فى عصور الخير والنور ، فكان لا ينهز العاملين غير استهداف الخير ، واصطناع من يؤمن به ، ويعين عليه من الأقران والأعوان والموالين .

ولقد امتن الله على داود عليه السلام فقال : « يا داود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »(1).

والآية تؤكد — بالنظرة الأولى — جلال الخلافة عن الله ، وشرف حكم الناس ، وأن سوء القصد ، والهوى النفسى فى تصريف أمور الناس ، فساد فى الدين ، ومضلة للأحياء ، وصنيع يتضاءل فى جواره كاذب جاه الحياة ، وباطل زخرف العيش ، وهذا الأمل الفسيح الذى يسوّل لأقوام انتقاص حقوق الآخرين ، بفضل سلطانهم الذى لن يغنى عنهم من حساب الله كثيراً ولا قليلا .

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا ... فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

وقد أمر الله المؤمنين فى أكثر من موضع فى كتابه الكريم أن يكونوا « قوّامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسهم أو الوالدين والأقربين » ، وحبب إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقولوا الحق وإن كان مراً ، وكان هو صلوات الله عليه لا يرى سوى وجه الحق فيما يقول ويعمل ، لا يحيد عن ذلك أبداً ، لأن مدده وهاديه وحى

---

(1) سورة ص ، الآية ٢٦

الله ، وأنه سبحانه ، ليشهد لرسوله بالصدق واستهداء الحق فى قوله : « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين »(١).

وأنت على ذكر من المخزومية التى سرقت . وردّ فيها الرسول شفاعة الشافعين ، وقال : (لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها)(٢) .

واختلف الزبير بن العوّام ، ابن عمة الرسول ، مع أنصارى على الرى .. فاحتكما إلى النبى ، فقال صلوات الله عليه : (يا زبير ، اسق ثم أرسل إلى جارك) . فغضب الأنصارى وقال : أن كان ابن عمتك !! فتلون وجه النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قال للزبير : (اسق يا زبير واحبس الماء حتى يبلغ إلى الجدار ، ثم أرسله)(٣).

لقد أراد الرسول أن يصلح بين الرجلين ، على حساب ابن الزبير — ورحمه برسول الله ماسة — فلما لم يرض الأنصارى عمد الرسول إلى العدل ، وبيان الحكم الواجب !!

إنه العدل المثالى يجلو آيته محمد صلى الله عليه وسلم ، ويدعو أصحابه والمؤمنين إليه ، بقوله وعمله معاً ، فلئن رأيناه فى تلك الصورة حازماً ، يمضى أمر الله فى القريب والبعيد ، فإنه لأعز وأكرم ، وأوفر حزماً فى موقفه الرقيق الرفيق من بريرة ، تلك التى كانت جارية لعتبة بن أبى المهلب ، فزوّجها عبداً من عبيده على غير رضاها ، فبرمت به واستقلته وقلته ، فاشترتها عائشة رضى الله عنها ، رحمة بها ، وأعتقتها ، وكان زوجها كلفاً بها ، لا يطيق لها نسياناً ، ولا يجد عنها مصرفاً ، يتبعها أينما توجهت ، فلا تزداد على ذلك كله إلا قلى له ، وإعراضاً عنه ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم لها يوماً : (اتقى الله ، زوجك وأبو ولدك) .

فقالت : أتأمرنى يا رسول الله ؟ فقال : (إنما أنا شافع) .

فقالت : إذن لاحاجة بى إليه(٤) !!.

والرسول يقيم حكم الله فيما يرفع من أمور المؤمنين إليه ، ويدع لهم مالم يحتكموا إليه فيه ، فيسقط حد السرقة حينئذ بعفو رب المال !

---

(١) سورة الحاقة ، الآيات ٤٤ — ٤٧ (٢) رواه البخارى ومسلم .
(٣) متفق عليه . (٤) المبسوط ص ٩٩ وهو فى الصحاح .

فلقد اتكأ صفوان بن أمية فى المسجد فتوسد رداءه ، فجاء سارق فأخذه من تحت رأسه ، فقبض صفوان على السارق ، وجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمر بقطع يده ، فقال صفوان : إنى لم أرد هذا يا رسول الله ، وهو عليه صدقة . فقال صلوات الله عليه : هلا كان هذا قبل أن تأتينى به[١] ؟!.

وفى رواية : أن صفوان قال : عفوت يا رسول الله ؟ فقال الرسول لاعفا الله عنى إن عفوت ، وقطع يد السارق !

ومن مدرسة الوحى تخرج عمر رضى الله عنه.. فقد لقى قاتل أخيه زيد، فلم يبطش به ، ولم يجعله عبرة للمعتبرين، ولكنه قال له : لا أحبك حتى تحب الأرض الدم !

فقال الرجل : أو يمنعنى ذلك شيئاً من حقى لديك ! قال عمر : لا . فقال الرجل : فأحب أو أبغض ، فإنما يأسى على الحب النساء !

إن الحكم نعمة أنعم الله بها على من يتحرون الحق ما استطاعوا .

وهو غل لأقوام ، يصرفهم عن رعاية حقه ، ملق المتملقين ، ونفاق المنافقين ، وما نريد أن نبغض إلى المنصفين ولاية الناس ، كلا ، فما أحسن أن يجعل الله حاجة عباده إليك ، ومعول هناءتهم عليك ، وتيسير شئونهم بين يديك ، حتى يكون الحكم وساماً يزين الحاكم ، ثم يكون شفاعة له إلى جوار الله فى ظل عرشه على منابر النور مع المقسطين يوم لا ظل إلا ظله !

وإن واجب الحاكم الذى هو ظل الله فى الأرض ، أن يكون أذناً مرهفة للحق ، وعيناً بصيرة للخير ، ويداً عاملة على إرساء قواعد العدل والرفاهية والرخاء بين الخصوم والأولياء على السواء ، فإلى ظل الله يفزع الضعفاء من ظلم الأقوياء ، وعنده يجد الخائف الملهوف مستقراً ومقاماً ، وإلى هذا الجوار الكريم ينبغى أن يقدم الأمناء النصحة الذين يرى الحاكم بأعينهم ، ويسمع بآذانهم ، ويعمر ويبنى بعقولهم وأيديهم ، وأسوتهم فى ذلك نبى الله يوسف عليه السلام وهو يقول للعزيز : « اجعلنى على خزائن الأرض ، إنى حفيظ عليم »[٢] .

فما أكثر الذين يختلفون إلى هذه المجالس الشريفة ، غاشين لا وادين ، وقد ينفع من التاريخ : أن رجلا قال لعبد الملك بن مروان : إنى أريد أن أسر إليك كلاماً ،

---

(١) الشافعى والنسائى وابن ماجه وغيرهم . (٢) سورة يوسف ، الآية ٥٥

فأشار الخليفة إلى أصحابه بالانصراف ، فلما أراد الرجل أن يتكلم قال الخليفة : قف لا تمدحنى . فأنا أعلم بنفسى منك ، ولا تكذبنى . فأنا لا أعفو عن كذوب ، ولا تغتب عندى أحداً فلست أسمع إلى مغتاب .. فقال الرجل : فهل تأذن لى فى الخروج ؟ فقال : إن شئت !

إنها لذكرى نسديها إلى ظلال الله فى الأرض ، حتى يأمن طلاب الحق من ألسنة السوء ، وسدنة الشر فى مجالسهم !

وما كان هذا الخليفة بدعاً فى الناس ، يصون أذنه عن سماع تنقص الآخرين ، والافتراء عليهم ، ويكرم نفسه عن إطراء إنسان ، هو وأشباهه يبذلون كرامتهم ويبتذلون إنسانيتهم ، ويسقطون — كما يسقط الذباب على الشراب — فى مجالس القضاء ، ودور الحكم ، يشفعون شفاعة سيئة لقاء ثمن بخس ، وعرض من الدنيا زهيد ، ولا كان الخليفة أول من رد هذه الزعانف الزاحفة عن مخادعة الرؤساء ، فلقد كان معلم الناس الخير — صلوات الله عليه — يربأ بنفسه عن أن يستبد بها مدح مادحيه .

روى أحمد وأبو داود فيما ذكر المناوى أن رجلا قال للرسول : أنت سيد قريش .. فقال صلى الله عليه وسلم : السيد الله . قال : فأنت أعظمها فيها طولا ، وأعلاها قولا . فقال : يا أيها الناس ، قولوا بقولكم ، ولا يستهوينكم الشيطان ، فإنما أنا عبد الله ورسوله .

وحرض صلوات الله عليه — أمته أن يحثوا فى وجوه المداحين التراب ، لأنهم يقلبون أوضاع الحق ، ويعكسون موازين العدل ، ويرسلون ألسنتهم فى أردية من البسمات الصفراء ، وتلون الحرباء ، ولين الحية الرقطاء ، وفى حفنة من إيمان على محض الولاء ليزيغوا أبصار الحكام وبصائرهم عن حقائق الأشياء .

وحمد الحاكم على خير أمضاه ، ورخاء أجراه على يده الله ، لاينكره الإسلام مادام يبعثه الإخلاص .. فلقد حمد الحق سبحانه نفسه ، وعلم عباده كيف يشكرونه ، وأوجب ذلك عليهم ، وكان رسول الله صلوات الله عليه ينصب بيده المنبر لحسان ليدافع عن رسول الله ويمدحه بما جمله الله به من أدب وأرسله به من خير ، لا لهوى نفسه ولكن لإعلاء قدر رسالته وأين من ذلك ما تنافس فيه شعراء العرب وخطباؤهم من تمجيد كبرائهم ، بمحامد ومزايا فيها قليل من الحق وكثير من الباطل ..

وقد سأل بعض الشعراء ، المأمون ، فلم يعطه ، فقال له : إن لى شكراً ، يا أمير المؤمنين ، فقال الخليفة : ومن يحتاج إلى شكرك ، فأنشد الرجل :

فلو كان يستغنى عن الشكر ماجد لـــكثرة مـــال أو علـــو مـــكان
لمـــا ندب الله العبــــــاد لشـكره فقال أشكروا لى أيهــــــا الثقــلان !

فقال المأمون : أحسنت ، وقضى حاجته .

إنما نقول لمن أوجب الرسول أن نحثو فى وجوههم التراب ما قال الشاعر :

أيهـــا المـادح العبـــــاد لتعــطى إن لله ما بأيـدى العبــــــــــاد
لاتقـــل فى الجبـــان ما ليس فيـــه وتسمى البخيل باسم الجـــواد !

روى أن محمد بن كعب القرظى كان حاضراً يوم قدم وفد الحجاز لتهنئة عمر بن عبد العزيز بالخلافة ، وحين تكلم الغلام وأشرق لكلامه وثنائه وجه ابن عبد العزيز ، قال ابن كعب : كان فى كلام الغلام .. يا أمير المؤمنين جهل القوم بك معرفتك بنفسك ، فإن قوماً خدعهم الثناء ، وغيرهم الشكر ، فزلت أقدامهم فهووا إلى النار ، أعاذك الله أن تكون منهم ، وألحقك بسلف هذه الأمة . فبكى عمر حتى خيف عليه وقال : (اللهم لا تخلنا من واعظ زاجر) ! !

والحاكم العادل أعود بالفائدة على الدنيا من الخصب والنماء .

روى الطبرانى بسند حسن عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يوم من إمام عادل خير من عبادة ستين سنة) !

وقال عمرو بن العاص رضى الله عنه : (ملك عادل خير من مطر وابل) :

ويقول القاضى عياض : (لو كانت لى دعوة مستجابة ما جعلتها إلا فى الإمام ، لأنه إذا صلح أخصبت البلاد وأمن العباد) .

وما ابتلى بعض الحكام بشر من تلكم البطانات ، التى تفتل فى الذروة والغارب ، وهى تغرى بالسوء ، وتحجز عن الخير ، وتنفخ فى الأوداج حتى يتعالى غافل ويتكبر ، وفى ذلك كل المذلة والهوان ، لأن الكبرياء رداء الله عز وجل ، من شاركه فيه أذله وأرداه .

قال تعالى فى فرعون : « إن فرعون علا فى الأرض ، وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفة منهم ، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين »(١).

« ونادى فرعون فى قومه قال : يا قوم ، أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى »(٢).

ثم ضاقت الأرض بما رحبت عن الإحاطة بغروره ، فرمق السماء بطرفه ، وهو يقول : « يا هامان ابن لى صرحاً لعلى أبلغ الأسباب ، أسباب السموات ، فأطلع إلى إله موسى »(٣) ...

ثم اختصر لنفسه الطريق ، فقال : « أنا ربكم الأعلى »(٤).

فأمر الله البحر أن يسكت هدير هذه النفس الطاغية ، وأن يوقظ فرعون من غفلته ، وينبهه من سكرة الجاه ، وغرور الحياة .

« حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت »(٥).

ونجاه الله ببدنه ليكون لمن خلفه آية ، على قمعه سبحانه للطغاة وشديد أخذه لمن أدبر وتولى ، وفى كل واد من فرعون موسى أشباه وددت أن لا يغرهم حلم الله عن أخذه الحق للطغاة .

وبعد : فهل يقول بعض أولى الأمر لفريق من جلسائهم ، مقالة عبد الملك : (إن شئت فاخرج) لتصان مواريث الخير التى أسلم الله أزمتها إلى خلفائه فى عباده وأرضه ؟! فجليسك كالرقعة فى ثوبك لا تصلحه إلا إذا شابهته . والمرء على دين خليله كما قال المعصوم صلوات الله عليه .

ولقد استشرى النفاق ، وصار فاشية تهدد المجتمع الإسلامى فى بعض دياره بخطر فادح ، على أيدى الذين يأكلون على جميع الموائد ، ويستديرون كعباد الشمس مع شتى الظروف ، ويرصدون الأجواء من بعيد ، فيعدّون الأهبة لها ، ويعرفون كيف يترضون من يلقونه باللفظ واللحظ والعمل .. أولئك شر خلق الله ، أفرد الله باسمهم سورة من القرآن ، وذكرهم فى آيات كثيرة ، هتكت أستارهم وفضحت أسرارهم ، فى سورة النساء وفى سورة التوبة وسورة النور . ولئن أمنوا ، فى الدنيا ، السيف الذى

---

(١) سورة القصص ، الآية ٤ (٢) سورة الزخرف ، الآية ٥١
(٣) سورة غافر ، الآيتان ٣٦ و ٣٧ (٤) سورة النازعات ، الآية ٢٤
(٥) سورة يونس ، الآيات ٩٠ — ٩٢

الذى عرف مكانه من أعناق الكافرين ، لقد جعلهم الله فى الدرك الأسفل من النار ، فقال تعالى : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً »(١).

والمنافق كما قال بعض العلماء : (خنع الأخلاق ، يصدق بلسانه ، وينكر بقلبه ويخلف بعمله ، يصبح على حال ، ويمسى على غيره ، ويمسى على حال ، ويصبح على غيره ، ويتكفأ تكفؤ السفينة ، كلما هبت ريح هبت معها ، فما بقاؤهم فى بعض المجالس والأمناء العارفون فى أبعد مكان منها) ؟!

جاء رجل إلى عمرو بن عبيد فقال له : إن الأسوارى ما زال يذكرك فى مجالسه بشر ! فقال له عمرو : (يا هذا ، ما رعيت حق مجالسة الرجل حين نقلت إلينا حديثه ، ولا أديت حق حين أعلمتنى عن أخى ما أكره ، ولكن قل له : إن الموت يعمنا ، والقبر يضمنا ، والقيامة تجمعنا ، والله يحكم بيننا ، وهو سريع الحساب) .

أما بعد .. فقد قالوا لمحمد بن واسع : لم لا تدخل على السلطان ؟ فقال : لأن ألقى الله مؤمناً مهرولا ، خير من أن ألقاه منافقاً سميناً !

ولئن تورع الرجل وزهد فى مقاربة الحاكمين ، فكيف نقضى حق هؤلاء فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، إذا لم نغش لهذا مجالسهم ؟ !

ولن نضع قيد أنظار الحاكمين أمثلة من صدر الإسلام ، ولكننا نقدم الأحنف ابن قيس ... فقد سئل : بم سدت قومك ؟ فقال : لو علمت أن قومى يعافون الماء ما شربته ! !

وبهذه العاطفة كان يغضب لغضبه الآلاف لا يسألونه فيم غضب !

وعامر بن الطفيل ، لم يغنه الحسب الموروث فى مجال المفاخرة والمكاثرة ، حتى راح يكتسب المجد الصحيح فى العمل لقبيلته ، فيقول :

وإنى وإن كنت ابن فارس عامر ... وفى المجد منها والصحيح المهذب
فما سودتنى عامر عن كلالة ... أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكننى أحمى حماها ، وأتقى ... أذاها ، وأرمى من رماها بمقنب

فلنقسط فى أنفسنا وفيمن يلينا : « إن الله يحب المقسطين »(٢).

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٤٥ (٢) سورة الحجرات ، من الآية ٩

آيتان من سورة الكهف

آيتان من سورة الكهف يقول الله تعالى فيهما :

« واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح ، وكان الله على كل شيء مقتدراً . المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا »(1).

كثيراً ما سمعناهما ، ورددناهما ، فهل نفذ مغزاهما إلى القلوب ، وبلغت عظتهما الأفئدة ؟!

وهل استبان المثل الذى ضربه الله فيهما للحياة فى سرعة زوالها وتقضيها ؟ فما أنزل الله القرآن على مصطفاه ، إلا ليهدينا للتى هى أقوم ، ويخرجنا من الظلمات إلى النور ، ويقدم لنا من قصص الأولين ، ومصارع الظالمين ، ما فيه ذكرى ومعتبر ، مهما بعد عهد الحياة بنزول القرآن ، وأوغل الزمن فى سيره وتقدمه ودعوى مدنيته .

والعجب من قوم يعرفون لدساتير الأمم حرمتها ، ويقفون عند حدود أحكام الناس وقوانينهم ، باسم النظام ، والسلامة من العقوبات ، والأجزية البينة لمن يجاوزون حدود الدساتير والقوانين ، ولكنهم ، وكتاب الله بينهم غض طرى كأن عهده بالسماء الساعة ، يعرضون عنه ، ويتقاعسون عن الاستجابة له فى أمره ونهيه ، وما أمر إلا بخير ، ولا نهى إلا عن شر !

ولقد كان المسلمون فى عصور النور ، أحرص من عرفت الحياة ، على هذا الوحى الإلهى ، يشهدون مجالسه ، ويفهمون نفائسه ، ويطبعون بها تصرفاتهم ، حتى صاروا تفسيراً حياً لكتاب الله ، لايشذون عن أحكامه وتعاليمه قيد أنملة ، ولا يغفلون عن هدايته طرفة عين ، فسعدوا بما أضفاه على حياتهم من سعة ، وما أفاضه فيها من نور .

والقرآن الكريم يحكى شهادة الرءوف الرحيم ، صلوات الله عليه ، فى أقوام ، شغلوا عن القرآن ، بثقافات لا تنفع ، وفلسفات ليس فيها مقنع ، ومعارف هى دعاوى

(1) سورة الكهف ، الآيتان ٤٥ و ٤٦

ما زال ينقصها الدليل ، فقال تعالى على لسان رسوله الكريم : « وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً »(١) .

وأعظم عليه الصلاة والسلام من جهل الذين يظنون أن شيئاً من حظوظ الحياة يفضل أو يعدل كلام الله ، فقال : (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)(٢).

وقال : (من أوتى القرآن فظن أن غيره أوتى خيراً مما أوتى فقد حقر عظيماً وعظم حقيراً) ! !

وقال : (من حفظ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يوحى إليه)(٣).

ولو أننا استطعنا أن نخرج بآية واحدة من كل مجلس نصغى فيه للقرآن أو نقرأ فيه بعض آياته ، لكان لنا بعد زمن يسير من هداياته ما ليس عند أحد ؟!

وقد كان أصحاب الرسول لا يتناولون جديداً من آياته ، التى نزلت على الرسول فى ثلاث وعشرين سنة حسب الوقائع والأحداث ، حتى يحفظوا ما عندهم منه ويأتمروا بما فيه ، وينتهوا عما نهى عنه .. وإن لنا فى هؤلاء بعد الرسول لأسوة حسنة .

* * *

ومرة أخرى .. هل نفذ مغزى هاتين الآيتين إلى القلوب ، وبلغت عظمتهما الأفئدة ؟!

إن الله يصحح بهما للمغرورين بالحياة فهمهم المغلوط ، وإدراكهم الضال . فالحياة قنطرة ، ولكنهم حسبوها الأولى والآخرة ، وهى بمباهجها التى لا تقف عند حد ، وبأموالها التى تربو على العد ، وبمظاهر الملك والسلطان فيها ، إنما خلقت لتكون وسيلة إلى ما وراءها من نعيم لا ينفد ، وهناءة تتجدد « فى جنة عالية ° لا تسمع فيها لاغية ... » الآيات(٤).

ويا عجباً .. أتذهلنا النعم عن شكر المنعم ؟!

وتذهلنا الحياة عن معرفة الله ؟!

---

(١) سورة الفرقان ، الآية ٣٠ (٢) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

(٣) رواه الحاكم . (٤) سورة الغاشية ، الآيات ١٠ – ١٦

وتصرفنا دنيا تضمحل غداً عما ادخر الله للمؤمنين فى دار المقامة !

والله لـو كانت الدنيــا بأجمعهـا تبقى علينا ، ويبقى عيشهـا رغـدا
ما كان من حق حر أن يذل لهـا فكيف ، وهى متاع يضمحل غدا !

ومع أننا خلفاء عن الله فى عمارة الدنيا ، وإبلاغها أعلى درجات كمالها الذى لا تدخر فيه وسعاً ، أو نضن عليه بإمكان ، فإن الله يضرب لها مثل الماء ينزل من السماء ، فيحيى الأرض بعد موتها ، وتهتز جوانبها بالبذرة ، وتخرج من أحشائها نبتاً صغيراً ، لا يلبث أن يقوى وينمو ويتكامل نموه ، ثم يعطى الثمر الذى تحصده الأيدى وتجنيه ، أو يصفر فيكون حطاماً .

« إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون »(١).

وما أحقها بهذا القول الإلهى .

« كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً ، وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور »(٢).

وانظر فى الآيتين ، مرة أخرى :

إن الله لا يبغض إليك الدنيا ولا يزين لك الانصراف عنها ، ولكنه يحبب إليك أن تأخذ من متاعها ما أحل لك ، وأن تضع فى اعتبارك أن ما عنده للمتقين خير لهم وأدوم نفعاً .

« زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب « قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات .. »(٣).

وكانت أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها تقول إذا قرأت هذه الآية : (يا ويلنا حيث بدأ الله بنا) .

---

(١) سورة يونس ، الآية ٢٤ (٢) سورة الحديد ، الآية ٢٠
(٣) سورة آل عمران ، الآيتان ١٤ و ١٥

... « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » كما قال الله تعالى . و (نعم المال الصالح عند الرجل الصالح) ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم .

وكان عليّ كرم الله وجهه يقول : (غالبت كل شيء فغلبته ، إلا الفقر فإنه غلبني ، إن سترته قتلني ، وإن أذعته فضحني) !

أخذ ذلك المعنى من قال :

غالبت كل شديدة فغلبتهـــا والفقر غالبني فأصبح غالبي

وكان عمر رضوان الله عليه يقول : (اللهم اجعل المال عند خيارنا ، فلعلهم أن يعودوا به على ذوى الحاجة منا) .

إنه نعمة على الذين أخذوه من خير وجوهه وشكروا الله على تيسيره لهم . فنافسوا به فى إسداء المعروف ، وإغاثة الملهوف ، وتفريج كربات المكروبين ، وقضـــاء حوائج الغزاة والمرابطين على الحدود الإسلامية التى يتآمر عليها الظالمون — والله من ورائهم محيط .

وهو بعد ذلك وبال ونقمة على الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله ، ويمنعـون من بركاته أنفسهم ، وأبناءهم ، وإخـوانهم ، الذين جعـل الله لهم فيه حقاً معلوماً ، ونصيباً مقسوماً .

والبنون ، ليسوا هم الأسنان ولا العيون ، كما يجب أن يتعالم بذلك الفارغون الذين يحدثون الناس بما لا ينفع ، فما أكثر من سألنى فى بيروت ومصر عن كلمة « البنون » وهل تعنى الأسنان والعيون ؟!

إن البنون هم الأبناء، بذلك عرفوا فى آيات القرآن الكثيرة وفى أحاديث الرسول وفى كلام أوائلنا رضى الله عنهم .

وهم زينة ، إن نحن نشأناهم على حب الإسلام منذ طفولتهم الباكرة ، ودربناهم — والعود غض طرى — على فضائل الإسلام ، وجعلنا قلوبهم أوعية للقرآن والسنة المطهرة وطرائف الحكم ، قبل أن تغلبنـا عليهم الشهوات المردية والأهواء المخزية ، والنزوات التى لم نجعل فى نفوسهم مناعة منها ، وهم أطوع لنا من أناملنا :

وفى أضواء الإسلام ، وهداياته ، وتعاهدهم بها ، ما يثلج بهم الصدور ، ويقر الأعين ، فى البيت والمجتمع :

نعم الإله على العباد كثيرة ... وأجلهن نجابة الأولاد

والباقيات الصالحات عنوان يتسع لذكر الله وطاعته واتباع سبيل المؤمنين ، وهى أعود فائدة ، وأجزل عائدة من مال لا يثبت فى يد ، وأولاد ، هم مرتهنون بآجالهم وأعمالهم التى نقاسم فى خيرها وشرها .

والمال والبنون يدخلان فى الباقيات الصالحات إن عرفنا فيهما الله ، وحق الحياة وحسن فيهما العمل ، وتحقق بهما الأمل .

وردد معى ، حتى تبلغ عظة الآيتين فؤادك ، قول أبى الوليد الباجى :

إذا كنت أعلم ، علم اليقين ... أن حياتى ، جميعاً ، كساعه

فلم لا أكون ضنيناً بها ... وأصرفها فى صلاح وطاعه؟!

فهى بذلك تسلمنا إلى الحياة السرمدية التى لا يأتى عليها النفاد ، قال تعالى :

« وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون »[1] .

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٦٤ ، والحيوان : أى الحياة الحقة .

عناصر السعادة فى الاسلام

السعادة حلم الملايين ، وأمنية الأحياء أجمعين ، ينشدها كل فرد ، وترصدها كل جماعة ، وهم على ذلك الإجماع عليها ، يختلفون فى مدلولها ومعناها ، فيراها أقوام فى المال الكثير الذى تنال به الرغائب ، وتقضى الحاجات ، ويراها آخرون فى المركز الكبير الذى يرتفع بصاحبه فى سلم المجتمع ، ويغدو به السيد المطاع ، ويراها فريق آخر فى الجاه العريض والنسب العالى ، بينما تتمثل لمن وراءهم فى اكتمال الصحة أو نجابة الولد ، أو صلاح الزوج ، إلى آخر ما يذهبون إليه !

وهذه الأمور كلها من السعادة ، ولكنها ليست السعادة التى رضيها الله تعالى للمؤمنين .

فسعادة المؤمن تتمثل — أول ما تتمثل — فى إيمانه بربه ، إيماناً عميق الجذور . تابعاً من نفس راضية بالله ، متقبلة كل ما قدره وقضاه ، بارتياح رضىّ ، وقبول حسن ، لا ترضى دون أمره أمراً ، ولا تستبيح من نواهيه كثيراً ولا قليلا .

« ومن يؤمن بالله يهد قلبه ، والله بكل شىء عليم »(١) .

« ألا بذكر الله تطمئن القلوب * الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، طوبى لهم وحسن مآب »(٢) .

والإيمان الذى يثمر السلوك الكريم ، والعمل الصالح ، هو الذى يجمع القلوب على محبتك ، ويجعلها جنداً كثيفاً يغدو معك ويروح ، فى أيام الرخاء ، ويفتديك حين تلم شدة أو يفاجئ مكروه .

ولقد قال أحد التلاميذ لشيخه يوماً : إن أناساً ما صنعت لهم معروفاً ، ولا أسديت لأحدهم فضلا يلقوننى بالودّ والإعزاز كلما رأيتهم .. فقال الشيخ : يا بنى ، اشكر الله الذى ذاك من قبله ، أما قرأت قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً »(٣) .

---

(١) سورة التغابن ، الآية ١١ (٢) سورة الرعد ، الآيتان ٢٨ و ٢٩

(٣) سورة مريم ، الآية ٩٦

ولقد أكد الله الخسران والهوان للغافلين ، وجمع عناصر السعادة للمؤمنين ، فقال : « والعصر ، إن الإنسان لفى خسر ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »[١] .

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا أحب الله تعالى العبد ، نادى جبريل إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه جبريل ، فينادى فى أهل السماء ، إن الله يحب فلاناً فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول فى الأرض)[٢] .

* * *

ولقد يقل مال إنسان ، ويتضاءل فى المجتمع مركزه ، ولا يكون ملحوظ الحسب الذى يجعل أقواماً يثيرون تراب القبور ، ويبعثرون ركام الدهور ، للمباهاة بعظام نخرة ، يقول فى مثلها ومثلهم عبد الباقى العمرى :

أقول لمن غدا فى غير شىء   يفاخرنا بآباء عظام
أتقنع بالعظام ، وأنت تدرى   بأن الكلب يقنع بالعظام ؟!

وطوبى للذين يصلون الماضى الكريم بخير وبر وإحسان ..

ولكن المؤمن السعيد — الذى قل ماله وخفى فى الناس مكانه — يفاخر ، إن فاخر ، بعمله الذى تتسع عوائد خيره ، وتتجاوز حدود ذاته ، إلى من يليه من الناس فما ملك الأحرار ، ولا استقاد النفوس كالمعروف ، والله تعالى يقول : « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً ، فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون »[٣] .

وفى الصحيح يقول صلوات الله عليه : (من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه) . المؤمنون العاملون هم السعداء حقاً ، الذين أوجب الله على العقلاء أن يكونوا منهم ، والذين باهى بهم محمد صلوات الله عليه وهو يقول لبضعته فاطمة : (اعملى فوالذى نفسى بيده لا أغنى عنك من الله شيئاً . يا فاطمة أنقذى نفسك من النار فإنى لا أملك لكم من الله شيئاً)[٤] .

* * *

---

(١) سورة العصر .   (٢) متفق عليه وللإمام مسلم رواية أخرى .
(٣) سورة سبأ ، الآية ٣٧   (٤) أخرجه مسلم عن أبى هريرة فى حديث طويل .

السعيد يثق بمن حوله، ويثقون به كذلك ، ولا يجد المرء هذه الثقة فى نفسه وفى مجتمعه ، حتى يكون تقىّ القلب ، نقىّ الضمير ، جياش الفؤاد ، بنبيل الإحساس والشعور ، يصنع الخير مع أهله ومع غير أهله ، ويؤثر المعروف الذى لا يجمل به سواه ، وأكرم الناس من لهم برسول الله أسوة حسنة فى إنسانيته ورحمته بمن آمن به ، ومن صد عن سبيله .

فلقد أصابت قريشاً مجاعة ، بعد أن تظاهرت على إخراج الرسول وصحبه من مكة عقب ظلم تعاظم ، وأذى له وللمؤمنين جاوز المدى ، فلما بلغه صلوات الله عليه بعد الهجرة خبر هذه المجاعة ، توجع لقومه ، ورثى لحالهم ، وأرسل إلى أبى سفيان ابن حرب ،زعيم المشركين يومئذ، خمسمائة دينار ليشترى بها قمحاً ويفرقه فى فقرائهم!

وهكذا النفوس الكبيرة لا تتخلى عن طبيعتها الخيرة ، وإنها لتسمو وترتفع فى مجال معاملة الخصوم ومعايشة الأعداء ، فلا تلقى السيئة بالسيئة ، ولكنها تمضى تفسيراً ربانياً لقول الله تعالى : « ولمن صبر وغفر ، إن ذلك لمن عزم الأمور »(١) .

سعادة المرء بدينه ، ويقينه فى جميل عقبى الخير ، وثقته فيمن يخالطهم ويخالطونه ويعاملهم ويعاملونه ، وما قيمة حياة لا تكون فيها على وفاق مع أهلك ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : (من أصبح آمناً فى سربه — أى نفسه أو قومه — معافى فى بدنه، عنده قوت يومه . وفى رواية : وليلته ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها) .

وصدق الله العظيم : « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون »(٢) .

وسبيل الأفراد إلى السعادة الحقة يبدأ من تقوى الله ، من القلوب السليمة ، والألسنة العفيفة ، والأيدى الشريفة ، وعزائم الخير ، والعدل فى الرضى والغضب ، بذلك يزداد الحاكم من ربه قرباً ، ويزداد من شعبه حباً ، وبذلك يحرز الإنسان ثقة الإخوان والمواطنين والمسئولين ، وتلك هى آثار التقوى :

ولست أرى السعادة جمع مال ... ولكن التقى هو السعيد

ومن أصدق من الله قيلا :

« ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل

(١) سورة الشورى ، الآية ٤٣ (٢) سورة النحل ، الآية ١١٢

والميزان بالقسط ، لا نكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ، وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »[1].

وروى الطبرانى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ثلاث منجيات ، وثلاث مهلكات ؛ فأما المنجيات : فالعدل فى الغضب والرضى ، وخشية الله فى السر والعلانية ، والقصد فى الفقر والغنى ، وأما المهلكات : فشح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه) .

وأى سعادة وراء معانى رضى الأبرار بأداء المهام التى ألقيت على كواهلهم ؟

لقد كانوا يعتبرون العذاب فيها أكاليل غار ، وأوسمة فخار ، ومطالع أنوار وانتصار .

بنفسى رسول الله يوم الطائف ، وأحجار السفهاء تأخذه من مختلف جهاته ودمه الكريم يسيل من جسمه ، ونظرات سادة ثقيف الحاقدة تفعل فيه فعل السهام النافذة ، فلا يحرك ذلك فيه غير دعائه الجليل : (إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى)[2] .

وبنفسى رسول الله وقد أمكنه الله من قريش بعد فتح مكة . فنسى مساءاتهم وذكر الفطرة التى فطره الله عليها ، فقال لهم : (ما تظنون أنى فاعل بكم ؟!) قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : (اذهبوا فأنتم الطلقاء) !

ولو شاء لروى السيوف من دمائهم ، لكنها سماحة من قدر وانتصر بالإيمان .

وما نسترسل فى ضرب الأمثال ، وإن كنت أتمثل الرجل الذى قال : (نحن فى لذة لو علمها الملوك لجالدونا عليها بالسيوف) .

وما كان الرجل فى الثوب الطارف ، ولا الثروة الطائلة ، ولا المركز المرموق ، ولكنه كان فى شىء أعز من ذلك كله وأكبر ، كان فى الإيمان بالله .

الإيمان الذى ندب إليه أولياءه ، وأجزل لهم فيه مثوبته وجزاءه : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله ، يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نوراً تمشون به ، ويغفر لكم ، والله غفور رحيم »[3] .

فإلى السعادة فى رحاب الإيمان .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٥٢ و١٥٣

(٢) رواه البخارى ومسلم . (٣) سورة الحديد ، الآية ٢٨

الاخوة الاسلامية

جاء الإسلام من أول يوم ، وهو يستهدف إحكام الروابط بين المسلمين ، وشد وثاقهم بالأخوة التى تعلو على حدود الأجناس والقبائل والأوطان . قال تعالى : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »[1] .

وهو كلام إلهى جليل ، يرتفع مرة أخرى بالرابطة الإسلامية على أخوة الصحبة والصداقة ، التى يكون الناس بها إخواناً وخلاناً ، إلى أخوة النسب ، وما أعظم حقوقها فى الإسلام !

وتتابعت آى القرآن الكريم فى مراحل دعوة رسول الله ، وهى تزيد من وثاقة هذه الصلات بين الناس ، على اختلاف أديانهم وعقائدهم تارة ، وبين المسلمين بعضهم مع بعض تارة أخرى . فبينما يهتف القرآن بالمؤمنين : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم * وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ، ورضوان من الله أكبر ، ذلك هو الفوز العظيم »[2] .

وينادى المؤمنين بمثل قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد »[3] ، « يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً »[4] .

إذا بالقرآن ينادى البشرية كلها بقوله تعالى : « يا أيها الناس إن وعد الله حق »[5] « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ... »[6] ، « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ... »[7] ، « يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان ... »[8] .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٠
(٢) سورة التوبة ، الآيتان ٧١ و ٧٢
(٣) سورة الحشر ، الآية ١٨
(٤) سورة التحريم ، الآية ٨
(٥) سورة فاطر ، الآية ٥
(٦) سورة لقمان ، الآية ٣٣
(٧) سورة الأعراف ، الآية ٣١
(٨) سورة الأعراف ، الآية ٢٧

فالتعارف ، والتآلف ، والتعاون على البر والتقوى ، هي غايات الله من عباده ، الذين ردهم جميعاً إلى أب واحد ، وأم واحدة ، فلا يتفاضلون من بعدهما بغير الإيمان والعمل الصالح لأنفسهم وإخوانهم وأوطانهم .. وما أشقى البشرية بجهل هذه الحقيقة والعمل على خلافها ، والانحراف عن جادة المنافسة فى الخيرات إلى الفخر بالأجداد والاعتزاز بآباء ماضين تنكب الأخلاف سبيلهم ، واتخذوا القدوة من غير صالحيهم ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : (ليدعن رجال فخرهم بأقوام ، إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان[١] التى تدفع بأدمها النتن)[٢] .

* * *

ولقد دعم الرسول جوانب الأخوة الإسلامية بأقوال هادية مضيئة ، واشجة ، يحمل كل قول فيها ، حقيقة جديدة من حقائق التماسك والاتصال فهم : (... كالبنيان يشد بعضه بعضاً)[٣] . وفى رواية : (وشبك بين أصابعه) .

وروى النعمان بن بشير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم ، مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[٤] .

ولا يكون المؤمن مؤمناً إلا وهو يرعى آداب المؤمنين :

(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[٥] .

(لا ينبغى لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام)[٦] .

وفى رواية بزيادة : (والذى يبدأ بالسلام يسبق إلى الجنة) .

(والمسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يخذله .. التقوى ههنا ، ثلاثاً وهو يضرب

---

(١) الجعلان : حشرات أرضية تسكن الأماكن الخربة وبيوت الخلاء .
(٢) رواه أبو داود والترمذى والبيهقى .
(٣) رواه البخارى والطبرانى فى الأوسط ، رواه أبو هريرة رضى الله عنه .
(٤) رواه البخارى ومسلم وأحمد فى مسنده .
(٥) رواه البخارى ومسلم .   (٦) رواه البخارى ومسلم .

على صدره ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله)(١) .

ولقد أينعت هذه الآداب وآتت أكلها ، وكان المسلمون بها أمة واحدة (تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم) يوم اعتصموا بحبل الله ، ولم تلن قناتهم لمغامز الأهواء والأنانيات ، ومظاهر الرياسة الخالية ، ويومئذ (ألقى الله فى صدور عدوهم المهابة منهم) وكانوا خير أمة أخرجت للناس .

وما أنفع النظرة الصادقة فى تاريخ هؤلاء ، والتعرف عليهم ، وهم يتراحمون ويتكارمون ، ويذكر بعضهم لبعض ما مجد الله من سوابق الفضل ، وخلال الخير .

قال تعالى : « والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم »(٢) .

كان أبو بكر يقول : (والله لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إلى من أن أصل قرابتى) ! !

وروى الإمام البخارى قوله : (ارقبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أهل بيتـه) .

وطالما استشار الصديق والفاروق أبا الحسن علياً — رضوان الله عليهم — فيما أشكل من أمر المسلمين ، وخفى فيه وجه الصواب ، وكان علىّ يصدقهما الرأى ويمحضهما النصيحة ، ولايداجيهما — وحاشاه — وهو يقول : (لقد سبقا سبقاً بعيداً ، وأتعبا من بعدهما إتعاباً شديداً ، فذكرهما حزن للأمة ، وطعن على الأئمة) .

وليرجع من شاء إلى قول الإمام علىّ فى أبى بكر يوم أفضى إلى مولاه ، وقوله — كرم الله وجهه — يوم صعد على المنبر حين بلغه أن أقواماً يسبون أبا بكر وعمر ،

---

(١) رواه مسلم . (٢) سورة الحشر ، الآيتان ٩ و ١٠

وقوله يوم دخل على عثمان حين أوفده الثوار ، فنصحه وذكره بالذى هو أهله(١) .

وكان يوفد أبا عبد الله الحسن ليكون مع من يذودون الثوار عن عثمان حتى وقعت المأساة ، التى جرّت فتناً ما زلنا نتجرع كؤوس بعضها حتى الساعة(٢) !

ومن خلال الخلاف بين علىّ وطلحة والزبير يطل وجه سمح وضىء .

فلقد روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمته لطلحة بن عبد الله عن الشعبى ، أن علياً كرم الله وجهه رأى طلحة ملقى فى بعض الأودية ، فمسح التراب عن وجهه ، وقال : (أعزز على أبا محمد عبد الله أن أراك مجندلا فى الأودية ، وتحت نجوم السماء .. إلى الله أشكو عجرى وبجرى(٣) .. ليتنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة) .

ودخل عليه عمران بن طلحة بعد موقعة الجمل ، فرحب به وأدناه ، وقال له : إنى لأرجو أن يجعلنى الله وإياك من الذين قال الله فيهم : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين »(٤).

وكان فى المجلس رجل حسب أنه أعلم بالله من علىّ ، فقال — يرد عليه —: إن الله أعدل من أن نقتلهم ويكونوا إخواننا فى الجنة !

فقال له علىّ : (قم إلى أبعد أرض الله واسحقها ، فمن هو ذا : إذا لم أكن أنا وطلحة فى الجنة ؟!) .

وتناول دواة فحذف الرجل يريده بها فأخطأه .

يا يد على — التى لم تخطئ هدفها فى جميع مشاهد الإسلام ومواقع جهاده — ماذا كنت صانعة حين تسمع الآذان التى تقيمك كلمات تثور هنا وهناك بغير الحق ، ولغير وجه الله ؟ !

ولقد استحكم الخلاف بين علىّ كرم الله وجهه ومعاوية رضى الله عنه ، وكان كل

---

(١) تجد هذه (القطوف) الغالية فى كتابى (ملامح ... من حقائق السماء) ، و (لطائف القرائح) قريباً بعون الله ! !

(٢) اقرأ فى ج ١ ص ٦٧ و ٢٨ ، و ص ٢٤٥ كلاماً نفيساً لابن أبى الحديد من (نهج البلاغة) .

(٣) سرائرى وأحزانى التى تجول فى جوفى . رواه الأصمعى .

(٤) سورة الحجر ، الآية ٤٧

يستعين على صاحبه بمن يعينه ، ولكن النفوس الكبيرة تأبى أن تستعين بكافر على مؤمن فى غير ضرورة داعية وأن تستنصر عدواً على أخ ، ملتزم بدينه ، فلقد أرسل قيصر الروم إلى معاوية يعرض أن يمده بجيش وعدة ، رعاية للجوار ، ورغبة فى جميل التعاون بينهما ، فكتب إليه معاوية : إنك إن فعلت ذلك انضممت إلى ابن عمى ، وأقبلت إليك أجاهدك بجيش أوله عندك وآخره عند على"(١) !.

وكانت حكمة من معاوية ، وعرفاناً لما يجب أن يحرص عليه المؤمنون ورد معاوية بذلك عن الدولة الإسلامية الناشئة مكراً أجنبياً متوارثاً حتى اليوم !

* * *

هذه صحائف من نور ، وددنا أن نطيل تأملها ، عسى أن تسارع بنا إلى القدوة بهؤلاء الذين تآخوا فى الله صادقين ، ولو قد عاد الراشدون ، رضوان الله عليهم ، إلى مجتمعنا الذى يختلف باسمهم ، ويتعادى فيهم ، ويذهب طوائف وشيعاً ، بعد أن جمعهم الله بمحمد ، وامتن عليه بذلك ، فقال : « وألف بين قلوبهم ، لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ، ولكن الله ألف بينهم ، إنه عزيز حكيم »(٢).

... ولو قد عاد هذا السلف الكريم ، لقالوا للذين يبتغون عرض الحياة ، مقالة الحسين للمحبين الذين تكذبهم أعمالهم :

يا أهل الكوفة ، إنكم تبكون علينا ، فمن قتلنا غيركم ؟ !

* * *

وفى ص ١١ من رسائل ابن تيمية .. حدث البخارى عن أنس أن عمر كان إذا قحطوا ، استسقى بالعباس بن عبد المطلب ، فقال : (اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيك صلى الله عليه وسلم فتسقينا ، وإننا نتوسل إليك بعم نبيك ، فاسقنا ، فيسقون) .

فقد أجمع أهل العلم على أن الصحابة كانوا يستسقون بالرسول صلى الله عليه وسلم فى حياته ، ويتوسلون بحضرته !

قال ابن تيمية : ولما أقحط المسلمون فى الشام ، استسقى معاوية بيزيد بن الأسود الجرشى رضى الله عنه وقال : (اللهم إنا نستشفع إليك ، ونتوسل بخيارنا ، يا يزيد ارفع يديك . فرفع يديه ودعا الناس حتى سقوا) .

(٤) ج ٨ من البداية والنهاية .   (١) سورة الأنفال ، الآية ٦٣

ولهذا قال العلماء : (يستحب أن يستسقى بأهل الدين والصلاح ، وإذا كانوا بهذه المثابة وهم من أهل بيت رسول الله كانوا أحسن) .

والدعوة الكريمة التى أرسلها الأزهر وما يزال إلى المسلمين فى مختلف منازلهم : أن تآخوا فى الله واجتمعوا على كلمة الإسلام، تثير الغبطة فى كل قلب . فحيثما وليت وجهك سمعت حديثاً واحداً لا يختلف ، إنه ثناء على الدعوة ، وإشادة بمأثرة الوحدة ، وتمجيد لفكرة استقامة الصف ، وإنكار لفترة من العمر ضاعت فى تناكر وتدابر ، ساد بهما غاصبون ، وارتفع بهما وانتفع طلاب الحطام من أى طريق ، وإن كان تخلفاً عن ركب الحياة ، وبعداً عن صراط الله ، بعد أن علمهم الله أن يقولوا : « اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » . وصلوات الله على سيدنا محمد الذى يقول : (الجماعة رحمة والفرقة عذاب) .

ولا أحصى الفرحة التى غمرت قلوب الذين تحدثت إليهم من خلال بعثتى إلى لبنان وصيدا وصور وجباع وكيفون ، بالجهود المبذولة لإنجاح مساعى الوفاق على أسس عملية صالحة ، تتجاوز نطاق العواطف والأمانى إلى التفاهم الصحيح والتعاون الصادق فى أضواء القرآن الكريم الذى ينادينا كما نادى أوائلنا حين أرسل إليهم الشيطان غلام شاس بن قيس اليهودى ، فذكرهم بماض عفى عليه الإسلام ، ويغريهم بحب الذات ، حتى تفرقوا وتنادوا إلى السيوف ، فبادرهم النبى ، فوعظهم وذكرهم وقرأ عليهم قول الله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون »[1] .

فقام الأنصار باكين يتعانقون حتى كادوا بذلك يقبل بعضهم بعضاً !

إن الله تعالى ينذر بالانسلاخ من الدين ، ويتوعد بأسوأ المصاير أقواماً ، فيقول : « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم »[2] .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠٣ (٢) سورة آل عمران ، الآية ١٠٥

ويقول : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء ، إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون »[١] .

ففى أعناق العلماء وحملة الأقلام وأولى الرأى من المسلمين وزر هؤلاء المختلفين من المسلمين ، وزر جهلهم بالأخوة الإسلامية ، ووزر تنابذ وتشبث بأوهام فى السلامة منها الإسلام والسلام .

ولقد سجل القرآن صدق المهاجرين ، وإيثار الأنصار ، وأثنى عليهم فى مواضع ذوات عدد . لقد غضب الرسول ، كما لم يغضب قط ، حينما اختلف مهـاجرى وأنصارى ، ونادى المهاجرى : يا للمهاجرين ، ونادى الأنصارى : يا للأنصار ، فقال صلوات الله عليه : (دعوها فإنها منتنة)[٢] .

(إنها منتنة) تلك الكلمات المفرقة ، والدنيا الغرور .

ولقد قال صـلوات الله عليه لعلىّ كرم الله وجهه : (عليك بالجماعة يا على ، فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية) .

والاستعمار الذى ينفق طائل الأموال ، ويصطنع لإذكاء لهيب الفرقة بعض أشباه الرجال ، حتى لا نجتمع ، هو أشـد علينا من الذئاب التى تتربص للوثبة على الغنم المتفرقة !

أما بعـد ، فلقد أصبحت استجابتنا للوحدة ضرورة دنيوية ، فلا مكان فى مدارج العز لمن عاش وحده من الأفراد والجماعات (والشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد) ، كما قال المعصوم صلى الله عليه وسلم .

وحيا الله المجاهدين المخلصين فى هذا السبيل .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٥٩ (٢) أخرجه البخارى .

دين التوحيد والوحدة

الإسلام دين التوحيد والوحدة : قضية لا ينقصها البيان ، ولا يعوزها البرهان ، فهى من الوضوح بحيث ترتفع — مع قليل من الإنصاف — إلى مرتبة البدهيات ، ولكننا نمعن فيها النظر ، وندير حولها الحديث ، راجين أن يزداد الذين آمنوا إيماناً ، وأن يجد فيه الذين يجادلون فى الحق بعد ما تبين حجة وبرهاناً ..

ورحم الله أبا حفص أمير المؤمنين ، فقد قال : (إنما ينقض عرى الإسلام عروة عروة من نشأ فى الإسلام ولم يعرف الجاهلية) .

فلنرجع البصر كرتين فى المجتمع العربى قبل الإسلام ، وما كان المجتمع البشرى فى فارس والروم بأمثل منه ، فقد فشا الفساد وسيطر فى شتى أنحاء الجزيرة ، برغم ما استفاض من إباء العربى ومضائه ونجدته ، وسخائه وما وراء ذلك من الخلائق التى أشار إليها النبى العربى بقوله : (بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

عبد القوم ما ينحتون من الحجر والشجر ، وسجدوا للشمس والقمر « واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً »(1) .

وتفرقوا شيعاً وأحزاباً ، تتعصب للقبيلة ، ولا ترى خارج حدودها لأحد فضلا وتفاخروا بالأحساب والأنساب ، حتى ذكروا من غاب من الآباء والأجداد بين الرجام وتحت التراب ، قال تعالى : « ألهاكم التكاثر ۝ حتى زرتم المقابر ... »(2) .

ونشبت بينهم الحروب لأوهى الأسباب ، فى أيام داحس والغبراء وبعاث . وقال قائلهم :

وأحياناً على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا !!

وكانت مقاييس العظمة فيهم مادية فحسب ، لا تمت للروح بسبب ، فما يعظم

---

(1) سورة الفرقان ، الآية ٣ (2) أول سورة التكاثر .

أحدهم حتى يكون أباً لعشرة رجال من صلبه ، يحملون السلاح ، ويحمون الحمى ، وقصة عبد الله والد رسول الله وافتدائه بمائة من الإبل ، مستفيضة سائرة ! !

وساد النظام الطبقى ، وانتشر الرق ، ووأدوا البنات خوف العار ، وقتلوا الذكور خشية الافتقار ، وشاع الزنا فى قبائل عدة ، وأكره بعضهم الفتيات على احترافه ، حتى أدبهم الله بقوله :

« وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله ، والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً ، وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ، ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصناً لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ، ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم »(١) .

وورثوا المرأة كسائر ما ترك الآباء ، واستأثروا دون الإناث بالميراث ، إلى أن نزل قول الله تعالى : « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً »(٢) .

وفى إجمال ، دجا ليل الشر واستطال ، لكن الله يرسل من بين غياهب الظلام أشعة النور ، ويجعل من تفاقم الشدة إيذاناً بدنو الفرج ، سنة الله التى قد خلت فى عباده « فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً »(٣) .

ولرب نازلة يضيق بها الفتى حرجاً ، وعند الله منها المخرج !
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

كانت بعثة محمد ، صلوات الله عليه ، رحمة للعالمين ، كانت الفجر الذى بدد غواشى الليل ، والفرج الذى أطلق الناس من أسر العبودية للمخلوق ، إلى عبادة الله وحده : « يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً »(٤) .

جاء الإسلام من أول يوم ينشر علم التوحيد ، بعد أن طوته الأهواء ، والجهالة الجهلاء ، ويجتث جذور الوثنية التى تعهدها الشيطان من عهد نوح عليه السلام ، وظلت تستخفى أمام رسالات المرسلين ثم تستعلن :

---

(١) سورة النور ، الآية ٣٣ (٢) سورة النساء ، الآية ٧
(٣) سورة الشرح ، الآيتان ٥ و ٦ (٤) سورة النساء ، الآية ١٧٤

« قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً ، الذى له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو يحيى ويميت ، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون »(١) .

وتابعت هذه الرسالة العامة الخالدة مسيرها ، تفتك بمفاسد الجاهلية ، وتقيم على أنقاضها الفضائل التى ستبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، عطراً يفوح ، ونوراً يلوح ، وسلوكاً قويماً ، لابد منه لمن يريد عز الدنيا وأمن الآخرة !

كان التوحيد دعامة هذا الدين ، وغاية غاياته ، إنه انعتاق من التبعية إلا لله ، الذى يجير ولا يجار عليه ، ويطعم ولا يطعم ، ويجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء عمن فزع إليه وناجاه :

من لم يكن لله متهمـــاً لم يمس محتاجاً إلى أحـد

فليس عجباً أن يحتفل القرآن بالتوحيد ، والدعوة إليه ، وأن يسلط عليه الأضواء فى الرسالات السماوية جميعاً ، حتى ما تكاد تخلو سورة من سوره أو صحيفة من صحائفه من ذلك تصريحاً أو تلميحاً .

فنوح يدعو قومه « أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون »(٢) .

ويقول الله عن إبراهيم : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ... »(٣) .

وفى وصاياه لموسى عليه السلام يقول تعالى : « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً ... »(٤) .

وقال سبحانه : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم »(٥) .

وقال لرسوله : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون »(٦) .

* * *

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٥٨ (٢) سورة نوح ، الآية ٣
(٣) سورة الأنعام ، الآيات ٧٤ — ٨١ (٤) سورة الأنعام ، الآية ١٥١
(٥) سورة آل عمران ، الآية ١٨ (٦) سورة الأنبياء ، الآية ٢٥

كان الناس أمة واحدة — كما قال الله — فلما ابتدعوا من العادات ما لم يأذن به الله ، واصطنعوا من المخلوقات آلهة مع الله ، بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين : فدين الله واحد على ألسنة الأنبياء والمرسلين ، ورسالاتهم إن اختلفت فيها الفروع والأحكام ، باختلاف الأزمنة ومواهب الأقوام ، فإنها تلتقى — لا ريب — عند التوحيد ، الذى هو جوهر الأديان وروحها قاطبة ، ومنه تتفرع مبادئ الخير جميعاً :

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »[1] .

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ... »[2] .

وفى سبيل توحيد الله ، ووحدة الكلمة ، حارب الإسلام العصبية ، فى غير هوادة ، فالعصبية لون من ألوان الشرك الذى نهى الله عنه بقوله : « ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » ، وما كان لحق أن يسود ، وللباطل أن يزهق ويبيد ، قبل أن يحطم الإسلام جدار العصبية ، وينظم المسلمين صفوفاً قد صفت منهم القلوب ، وتناجت الأرواح ، وتآلفت المشاعر ، ووضعت دبر الآذان ما كان ديناً وديدنا فى الجاهلية ، من التعصب للقبيلة ، والفخر باللون ، متجاهلين أن الناس جميعاً لآدم وآدم من تراب !

لا يقـولن امرؤ أصـلى فـما أصـله مسك وأصل الناس طين

ولن ينقضى الإعجاب بهؤلاء العرب الذين كانوا لا يلوون على شىء فى تصرفاتهم إلا الاستجابة لشهواتهم ، واتباعهم أهواءهم ، فصاروا ، بعد أن دبت فيهم روح الإسلام ، وغمرهم ضياء القرآن ، وخرجتهم مدرسة محمد ، خير أمة أخرجت للناس

وأين ذلك العهد الذى كان ينظر إلى الناس من زاوية الآباء والأجداد ، والأموال والأولاد ، والفروسية فى غير ميادين الشرف والجهاد ، من نظرة الإسلام إلى الأعمال والخصال ؟!

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٦٤ . (٢) سورة الشورى ، الآية ١٣ .

كان عمر يعرف لبلال فضله وصلاحه حتى كان يلقبه بالسيد ، فيقول : (أبو بكر سيدنا وأعتق سيدنا) ! !

وكان يرى سالماً ، مولى أبي حذيفة ، أهلا للخلافة ، ويقول : (لو كان سالم حياً لاستخلفته) .

ووصى سعد بن أبي وقاص ، وهو يوجهه على رأس جيش لفتح العراق ، فقال : يا سعد ، ابن أم سعد ، لا يغرنك فى الله أن يقال : خال رسول الله ، وصاحب رسول الله ، فإن الله لا يمحو السيئة بالسيئة ، ولكن يمحو السيئة بالحسنة ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا بطاعته ، فالناس فى دين الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ! !

ورسول الله هو الأسوة الحسنة فى ذلك لعمر وسواه ، ألم يعقد لواء جيش مؤتة لزيد بن حارثة ، وفيه مثل جعفر الطيار ، وسيف الله خالد .. ألم يولّ — بأبى هو وأمى — أسامة بن زيد إمارة جيش ، كان من أجناده مشيخة المهاجرين والأنصار ؟

لقد ربى الإسلام هؤلاء الصحابة تربية صالحة لم تدع فيهم من دنس الجاهلية شيئاً ، فكانوا موازين عدل ، وينابيع حكمة ، وأئمة هداية وإصلاح ، وفيهم يقول — بحق — ربعى بن عامر رسول جيش المسلمين إلى يزدجرد قائد جيش الفرس : (إن الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى سعة الإسلام) .

كان الناس أمة واحدة فاختلفوا ، فجاء الإسلام يلم شعثهم ، وينظم عقدهم ، ويقيم صفهم ، ويجعلهم بالتوحيد أمة واحدة ، وهو يذكرهم بالإله الواحد ، والأب الواحد .

والقرآن الكريم كتاب مفاخرهم ، وسجل أمجادهم ، وبه امتن الله على نبيه وقومه فقال : « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون »(١) .

« لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون »(٢) .

« فإنما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون »(٣) .

« نزل به الروح الأمين « على قلبك لتكون من المنذرين « بلسان عربى مبين»(٤)

---

(١) سورة الزخرف ، الآية ٤٤ (٢) سورة الأنبياء ، الآية ١٠

(٣) سورة الدخان ، الآية ٥٨ (٤) سورة الشعراء ، الآيات ١٩٣–١٩٤

وما زال القرآن الكريم ، هو العروة الوثقى ، التى تشد المسلمين اليوم ، وإلى يوم الدين ، ولا يغنى غناءه سواه فى إنماء العقيدة ، وإعزاز الأخوة التى هى شعار الإسلام ، والنبى العربى صلوات الله عليه يقول : (حب العرب إيمان وبغضهم نفاق)

* * *

استهدف الرسول الوحدة ، فكانت نصب عينيه فى مكة ، فلما هاجر المسلمون إلى المدينة دعاهم — صلوات الله عليه — أن يتآخوا فى الله أخوين أخوين ، ثم آخى بين الأوس والخزرج ، وسماهم الأنصار ، وضرب الأنصار أروع مثل للإيثار فى برّهم بالمهاجرين ، وفيهم قال الله تعالى :

« والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ، والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم »(١)

من بقايا النداء والتناكر والحروب المشبوبة الأوار ، لغير غرض كريم ، قامت أمة ماجدة ، عرفها التاريخ لأول مرة ، وذكرها الله بقوله :

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ، رحماء بينهم ، تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل ، كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً »(٢) .

هذا التراحم بين أصحاب محمد هو ثمرة الوحدة التى أشار إليها بقوله : « كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه » .

الوحدة التى هى مراد الله من تكاليف الإسلام وعباداته ..

فصلاة الجماعة تفضل فى الإسلام صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة(٣) ، وهى

---

(١) سورة الحشر ، الآيتان ٩ و ١٠

(٢) سورة الفتح ، الآية ٢٩ (٣) متفق عليه .

فى بعض روايات الحديث : (تفضل صلاة الفذ بخمس وعشرين درجة) ولا تعارض بين الروايتين ، فهما على حسب حال المصلى ! !

ونحن نصوم فى جماعة ، ونحج فى جماعة ، ونؤمن بأن (يد الله مع الجماعة)[١] .

وأن (من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه) . وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلىّ : (عليك بالجماعة يا علىّ فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية) . ذكره ابن الأثير فى (النهاية) ج ٢ بمعنى مفارقة الجماعة وترك السنة ، واتباع البدعة ، وقال : والربقة فى الأصل عروة فى حبل توضع فى عنق البعير أو يده تمسكه ، استعارها للإسلام ، يعنى ما يشد به المسلم نفسه من عرى الإسلام وحدوده وأحكامه وأوامره ونواهيه .

وأنه صلوات الله عليه قال : (إن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد) .

ونؤمن بأن يداً بمفردها لا تصفق ، ولا تتقن من الأعمال ما تتقنه الأيدى المتعاونة والقوى المتضافرة ، وأنه لا مكان فى مدارج العزة لمن عاش وحده ، فمخالطة الناس وإن أعقبت بعض الشر ، خير من الانعزالية التى يبشر بها من يجهلون سنة الله ، وناموس الحياة ، وأدب الرسول الذى يقول : (المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذى لا يخالط الناس) .

صدق الله العظيم : « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عـزم الأمور »[٢] .

ولقد ضرب الرسول لأمته الأمثال فى الاتحاد والتآخى فقال : (مثل المؤمنين مثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى) .

وقال : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً) . ثم شبك بين أصابعه[٣] .

والإنسان بذاته صورة كاملة فاصلة للتعاون . إنه أجزاء وجوارح : عينان ، وأذنان ، ولسان ، وشفتان ، ويدان ، ورجلان ، وقلب ينبض ، وكلى ، وكبد ،

---

(١) رواه الترمذى وغيره . وفى حديث زيادة : (ومن شذ شذ فى النار) .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٨٦ (٣) رواه البخارى ومسلم والترمذى .

وأمعاء ، لو ذهبت كل واحدة منها فى اتجاه يخالف ما ابتغته أخواتها لاختل كيان الإنسان واعتل، وفاجأته زحوف المنية من حيث لا يحتسب ، ولكنها تتواصل ، ويمد بعضها بعضاً . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : (مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)(١) .

* * *

ولقد انفرد الإسلام بعرفان حق الفرد ومسئوليته عن الجماعة ، بقدر تمجيده للجماعة التى يعتبرها مسئولة عن الفرد ، فهو الخلية الأولى ، واللبنة الأصيلة فى بناء المجموع ، وإذا كانت الشيوعية تذيب الفرد وتلاشيه فى المجموع ، فإن الرأسمالية تستهلك المجموع لمصلحة الفرد . وها هى الشيوعية تتساقط كقطرات الماء من الثلج ، وينكشف أمرها عن وهم شغل الأذهان أزماناً ، ودور الرأسماليات .

ولن ندع ما فى الإسلام من عدالة وإنصاف لما عند هؤلاء وهؤلاء من آراء .: وسنبقى وإياهم كما قيل :

يقولون هـذا عنـدنا غير جائز ومن أنتم حتى يكون لكم عند !

وماذا وراء قول الرسول : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته)(٢) .

ولقد كانت أصوات الناعقين بالردة إلى شتات الجاهلية بغيضة إلى رسول الله صلوات الله عليه .

دفع رجل من الأنصار آخر من المهاجرين فى صدره ونادى : يا للأنصار ، ونادى المهاجرى : يا للمهاجرين، فقال صلى الله عليه وسلم : (دعوها فإنها منتنة)(٣).

وقد مر بين يديك كيف كان غضبه حين أفلح غلام شاس اليهودى فى استثارة الأنصار وتذكيرهم بيوم بعاث !

ولكم يحلو لأقوام أن يقولوا : هذا مصرى وذاك سورى ... إلخ ، ويبلغ الجهل بأحدهم فيقول : ما لمصر والعروبة ؟ إنها فرعونية !

ونسى هؤلاء أنهم يرددون قول المشركين وأعداء الإسلام فى صدره الأول حين

---

(١) متفق عليه رواه النعمان بن بشير .

(٢) رواه البخارى وغيره . (٣) رواه البخارى .

رأوا أنصار النبي من أمثال : سلمان الفارسي ، وبلال الحبشي ، وصهيب الرومي ، فقـالوا : إننا نفهم أن ينصر محمداً أمثال أبي بكر وعمر وفلان وفلان من العرب ، ولا نفهم أن ينصر هؤلاء — يعني غير العرب ! !

ونميت هذه المقالة الظالمة إلى رسول الله ، فأسرع يخطب الناس ويقول :

(إن الرب واحد ، والدين واحد ، وإن العربية ليست بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم العربية فهو عربي) ! فصَّل ابن تيمية ذلك في عدد من كتبه .

(لقد دخل الإسلام مصر يوم دخل سوريا ، ففيم هذه الكلمة المنتنة التي يذيعها الطائفيون الإقليميون المفرقون بين الأحبة الذين جمعهم الله على خير دين ؟!) .

وليت هؤلاء المفرقين يعرفون كيف ينزل الناس المصريين في شتى المنازل بمنزلة المحب المكرم ، عرفاناً بإشادة الرسول بمصر المسلمة وبخير أجناد الأرض ، وما يتسع المجال للإعراب عن مشاعر من لقيت في أقطار الإسلام نحو مصر وأزهرها . ورحم الله الإمام الشافعي ونسأ في عمر السيد أبي الحسن الهندوي .

وتعددت أساليب الإسلام وتنوعت وصاياه ، وهي تلفت الأنظار إلى الوحدة ، ففي أعقاب آيات ١٠٠ — ١٠٣ من سورة آل عمران التي نزلت بعد وقيعة غلام شاس اليهودي بين الأنصار .. في أعقاب ذلك نزل قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات ، وأولئك لهم عذاب عظيم »(١) .

ثم قال بعد ذلك بآيات : « كنتم خير أمة أخرجت للناس »(٢) .

والنظرة من خلال هذه الآيات ، حيث يتكرر لفظ « الأمة » ويعظم النهي عن تفرق الكلمة ، يجلو النذير الخطير في قوله سبحانه :

« إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء ... »(٣) .

وقوله : « ولا تكونوا من المشركين » من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً ، كل حزب بما لديهم فرحون »(٤) .

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان ١٠٤ و ١٠٥ (٢) سورة آل عمران ، الآية ١١٠
(٣) سورة الأنعام ، الآية ١٥٩ (٤) سورة الروم ، الآيات ٣١ و ٣٢

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ، ولكن فى التحريش بينهم)[١] .

وتسارع هذه النظرة بالمؤمنين إلى رحاب الأخوة التى وصف الله بها المؤمنين : فقال : « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم ... »[٢] ، وأكرمهم بها فى أخراهم فقال : « ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخواناً على سرر متقابلين ... »[٣] .

إن المد الإسلامى ، واتساع جوانب الأمة العربية ، واستبشارها ببركات التعاون بين جماعاتها ، وموقفها الفذ بين الشرق والغرب ، واعتدال مناخها ، ووفرة الطاقة والمواد الخام بها ، وحرص الطامعين على اتخاذها سوقاً لما تصنعه من خاماتها ، ليغرى أعداءنا بمواصلة الدس بين أممنا ، ووضع العراقيل فى طريق نهوضنا ، وسيبوء المعوقون بصفقة المغبون إن شاء الله ..

« ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون »[٤] .

* * *

وبعد .. فالإسلام دين الوحدة ، أرسى بيننا أركانها ، ودعم ، فى شتى وجوه حياتنا ، بنيانها ، ألا ترونه يوجب أن يشيع السلام بين الفرد والفرد ، وهو ينهى عن روعة المسلم ، ويدعو أن يحب المؤمن لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكره لها ، ويوجب أن يشيع السلام بين الفرد والجماعة ، وهل الجماعة إلا أفراد متفاهمون ؟!

ويوجب أن يشيع حسن الجوار ، وتبادل المنافع ، ورعاية المصالح بين الأمة والأمة ، ثم لا يبيح الحرب مع غير المسلمين ، إلا حين لا يكون منها بد ، فهو دين السلام ، لأنه دين الله الذى رضيه للناس كافة . وقال : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة »[٥] .

* * *

---

(١) أخرجه مسلم عن جابر ، والتحريش : هو الإغراء بالشر ولعنة الاقتتال .
(٢) سورة الحجرات ، الآية ١٠ (٣) سورة الحجر ، الآية ٤٧
(٤) سورة المنافقون ، الآية ٨
(٥) سورة البقرة ، الآية ٢٠٤ ، والآية ٦١ من سورة الأنفال .

وقد وضع الإسلام لهذا السلام حوافظ ، تشد عرى الوئام ، وتحبط دواعى الانقسام ، فهو يدعو إلى مبادرة كل خلاف ينشب بين الأفراد والجماعات بالإصلاح قبل أن يعظم أمره ، ويتفاقم شره ، وأن نكون مع المظلوم حتى ينتصر ..

قال تعالى : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين »(١) .

والآية دستور محدد الوسائل والأهداف ، للذين ينتهجون الإسلام لفضيلة الوفاق بين الناس .. تلك الفضيلة التى وضعها الرسول فى مكانها بين قواعد الإسلام وأركانه فى قوله صلى الله عليه وسلم : (ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : إصلاح ذات البين ، فإن فساد ذات البين هى الحالقة ، لا أقول تحلق الشعر . ولكن تحلق الدين)(٢) .

ولقد أعلى القرآن الكريم من قدر هذه الفضيلة . فهى ثمرة الإيمان ، ومظهر التقوى ، وقرينة طاعة الله ورسوله . قال تعالى: « فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين »(٣) . وهى من خير الكلام . وأنفع النجوى ، التى يجزل الله بها المثوبة ، ويعظم الأجر : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً »(٤) .

على أن الإسلام ، فى دعوته إلى الإصلاح بين الناس ، لم يغفل طبائعهم فى الغضب والرضى ، فهو يبيح أن يتخاصموا ، (والحب فى الله والبغض فى الله) من شرائعه ، ولكن فى حدود قول النبى صلوات الله عليه : (لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيعرض هذا ، ويعرض هذا ، وخيرهما الذى يبدأ بالسلام)(٥) .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ٩

(٢) رواه أبو داود والترمذى وابن حبان فى صحيحه .

(٣) سورة الأنفال ، الآية الأولى . (٤) سورة النساء الآية ١١٤

(٥) عن أبى أيوب الأنصارى ، متفق عليه ، وهو عند غيرهما .

وفى بعض الروايات زيادة : (والذى يبدأ بالسلام يسبق إلى الجنة) .

وكرام الناس يبادرون إلى السلام ، ويسبقون غيرهم إلى الجنة كما ورد فى زيادات الحديث ..

وإذا نفخ الصلف الكاذب أوداج قوم ، فلم يقيلوا عثرة ، ولم يقبلوا معذرة ، وآثروا عزة الغضب على ذلة الاعتذار لمن أساءوا إليه ، فإن رسول الله صلوات الله عليه ، يقول : (وما زاد الله عبداً يعفو إلا عزاً)(١) .

ويقول : (ومن أتاه أخوه متنصلا من الذنب فليقبل منه ، محقاً كان أو مبطلا ، وإلا لم يرد معى على الحوض)(٢) .

* * *

إن حوافظ الإسلام وضماناته ، تتجلى فى السلوك الرفيع ، والخلق الكريم ، اللذين وضعهما الله للمؤمنين ، ويوم نقدر الأخلاق الإسلامية قدرها ، ونعطيها من أنفسنا الرعاية والاهتمام باعتبارها ثمرة العقيدة ومظهر الدين العظيم ، سنكون — مرة أخرى بحق — أحفاد الأمة التى خاطبها الله بقوله : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »(٣) .

والهدى هدى الله .

---

(١) رواه مسلم والترمذى من حديث أبى هريرة .
(٢) رواه الحاكم والطبرانى بروايات متقاربة .
(٣) سورة آل عمران ، الآية ١١٠

كيف نختلف باسم هؤلاء

أدى محمد رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، رسالة الإسلام كاملة ، وبلغ أمانة ربه صادقاً إلى البشرية بأسرها ، ما ادخر فى ذلك جهداً ، ولا قصر أبداً ، ولا غير ولا حابى أحداً ، والله تعالى يشهد لمصطفاه بالصدق فى ذلك ، فيقول : « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين »(1) .

وما سر رسول الله بعد استجابة أصحابه لدعوته التى اصطفاه الله لها وأعانه عليها ، بشىء أكثر من اتحاد كلمتهم ، واجتماع شملهم ، فطالما حذرهم من وساوس الشيطان ودسائسه ونزعاته .. إنه كاد لأبيهم آدم حتى أخرجه وحواء من الجنة ، وهو لا يدع مهمة إفساد امر الأبناء بعد الآباء أبداً . قال تعالى :

« يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة »(2) .

« يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ، إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير »(3). والغرور — بفتح الغين — هو الشيطان .

والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : (إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ، ولكنه لم ييأس من التحريش بينهم)(4) .

وعاش المسلمون ما عاش رسول الله ، تهب عليهم رياح السلام ، وترفرف بينهم رايات الوئام ، إذا استثنينا هنات يسيرات كانت كسحائب الصيف سريعة التقشع دون أن تترك فى نفوس الصحابة غير الود الخالص والإعزاز العميق ، والرضى الغامر كلما أطل محمد عليهم فرآهم ملائكة يسيرون على أرض الله .

* * *

---

(1) سورة الحاقة ، الآيات ٤٤ – ٤٧ (2) سورة الأعراف ، الآية ٢٧
(3) سورة فاطر ، الآيتان ٥ و ٦ (4) رواه مسلم والترمذى وابن ماجه .

ودعا الله رسوله إليه : « إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً * فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان تواباً »[١] :

وسمع الصحابة هذه الآيات ، فأدرك أبو بكر مراد الله منها ، وعلم أنها نعى من الله لرسوله ، ودعوة إليه ليجزيه فى رحابه الجزاء الأوفى بعد أن نصح الأمة بأداء أكبر مهمة .

ولقى الرسول ربه ، فكان ذلك امتحاناً عسيراً لأصحابه ، الذين أحبوه بكل ما تتسع له هذه الكلمة من معنى ، وأحبهم هو بقدر ما قال الله :

« النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم ... »[٢] .

« لقد جاءكم رســول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم »[٣] .

فكيف تكون حياتهم من بعد رسول الله ؟ وكيف يواجهون مكايد الذين بدأوا يطلون برءوسهم على أمة محمد مجتمعة الكلمة ، وهم ممن التحفوا الإسلام ولم يستبطنوه وكيف يقمعون حركة الردة التى كادت تزعزع يقين المؤمنين ، وتعصف بكيانهم ، لولا أن تداركهم الله برحمته ، فاختاروا خليفة رسول الله على أساس من الشورى التى وضع القرآن الكريم قاعدتها بقوله تعالى لمصطفاه : « وشاورهم فى الأمر ... »[٤] .

ووصف بها المؤمنين فقال : « ... وأمرهم شورى بينهم »[٥] .

أكان من الخير أن تصفى رسالة الخير والرحمة فور وفاة الرسول الرحيم ؟! وأن يتبدد ميراثه بعد أن دعاه الله فلباه ؟! دون أن يتبادل الصحابة الرأى فيمن يخلف رسول الله على أمته ، ويرعاها ويرتاد لها أجدى سبل الحياة ، بعد أن أكمل الله الدين ، وأتم به النعمة على المسلمين ، وترك صورة الحكم وشخص الحاكم للأمناء الغير الذين تخرجوا فى مدرسة الوحى ، وصنعهم محمد صلى الله عليه وسلم صناعة ربانية ليس فيها من دنس الجاهلية شىء ، وقال للذين يستبيحون سبهم ، ويفترون

---

(١) سورة العصر .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٦

(٣) سورة التوبة ، الآية ١٢٨

(٤) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩

(٥) سورة الشورى ، الآية ٧٣

عليهم : (الله الله فى أصحابى ، لا تتخذوهم غرضاً بعدى ، فمن أحبهم فبحبي أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم)[١] .

ولقد اختلف الصحابة فى اختيار الخليفة حقاً، كما ذكر ثقات أصحاب السير ، وكان اختلافهم أمراً ضرورياً ، بعد أن خلا القرآن الكريم ، وخلت السنة المطهرة من نص صريح فيمن يخلف رسول الله ! !

فلو قد وجد ذلك النص ، ما وسع الصحابة أن يخالفوه قيد شعرة !

وإنى لأذكر أن أبا بكر قال للذين أرادوا أن يعوقوا بعث أسامة بن زيد الذى عقد الرسول له الإمارة على جيش كان من جنوده مشيخة المهاجرين والأنصار جميعاً وعجب هذا الصنيع النبوى صحابة رسول الله ، وغابت عنهم الحكمة فيه ، فبادرهم — صلى الله عليه وسلم — بقوله : (لئن قلتم فيه لقد قلتم فى أبيه) يوم جعله الرسول ثانى ثلاثة قواد فى مؤتة ، فوهبه الله الشهادة مع جعفر بن أبى طالب وعبد الله ابن رواحة .

قال أبو بكر : (والله لا أؤخر بعث أسامة ، ولا أحل أمراً عقده النبى ، ولو أن النسور تخطفتنا من السماء)[٢] .

أيكون هذا صنيع قوم يمكن أن يتهموا بأنهم خالفوا عن أمر رسول الله فيمن يخلفه؟

وعلىّ الشجاع ، الباسل ، العالم ، القوى العارضة ، القاطع الحجة ؛ كان يستطيع بإشارة أن يؤلب المسلمين ، على الذين خالفوا الرسول ، وعهدهم به قريب وما كان، — كرم الله وجهه — بالضعيف الإمعة ، الذى يدع فرصة الافتيات على رسول الله دون أن يؤدب المفتاتين ، وإن كان له فى هذه المسألة بالذات مصلحة ! !

وكان له من الفجيعة فى رسول الله ، وفى عدم استشارته فى أمر الخليفة ما يبرر تأنيه فى مبايعة أبى بكر رضى الله عنهما .

ونحن نرى فى واقع الناس اليوم — ومنذ عرفت الندوات والأحزاب والصحافة وشركات الأنباء — الخلاف اليسير ينشب بين فردين أو فئتين أو دولتين ، فلا يلبث السباب والتنابز بالألقاب وتقاذف التهم أن يصم الآذان ويتردد فى كل مكان ، فهل حدث شىء من ذلك فى هذه الظروف التى استخلف فيها أبو بكر ؟!

---

(١) رواه الترمذى فى المناقب ، وهو عند أحمد فى المسند .

(٢) راجع ج ٣ من الطبرى ، و ج ٢ ص ٢٢٦ من الكامل لابن الأثير .

لقد بادر أبو الحسن عقب وفاة الزهراء ، فدعا إلى الصديق ، وتحدثا ؛ واجتمع المسلمون فى مسجد رسول الله ، وتحدث أبو بكر ، وتحدث علىّ وخسئ الشيطان بعد أن بايع على عن رضى واقتناع ، وحاشا علياً أن يبايع على غير هذا .

وكان علىّ قبل أن يبايع أبا بكر ، الساهر الأمين على حدود الدولة، فهو يخرج على رأس جماعة من الصحابة إلى أطراف المدينة ليؤمنها من غارة الثوار على الإسلام من خارج حدوده من فارس والروم .. أفكان يعجز الرجل أن يلفت أعناق هؤلاء الذين يخرج معهم — وكلهم يقدره ويكبره ويعرفه على حقيقته — إلى محاربة هؤلاء الذين عطلوا نصاً فى القرآن أو نصاً فى السنة ، ضيع للإمام حقاً ؟!

وتروى كتب التاريخ أن أبا سفيان بن حرب وغيره من الناقمين على الخليفة الأول أرسلوا إلى علىّ كى يبايعوه، ولكن بصر علىّ، وفقهه ، ومعرفته بالله، كشفت له أن القوم لم يريدوا إلا أن يأكلوا به اجتماع كلمة المسلمين على أبى بكر ، فردهم أقوى رد وأنكر مقالتهم أشد إنكار !

وأقوال الإمام فى ذلك تفيض بها كتب التاريخ والأدب ..

ويقول زيد بن علىّ زين العابدين لمن سأله : لماذا لم يؤمر المسلمون علياً عليه السلام ؟!

(إن الخلافة فوّضت لأبى بكر لمصلحة رأوها ، من تسكين ثائرة الفتنة وتطييب قلوب العامة ، فإن عهد الغزوات النبوية كان قريباً ، وسيف أمير المؤمنين — علىّ رضى الله عنه — من دماء المشركين من قريش لم يجف بعد ، فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ، ولا الرقاب تنقاد إليه كل الانقياد ، وكانت المصلحة أن يقوم بهذا الأمر ، من عرفوه باللين والتودد والسبق فى الإسلام والقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن أحد أقوى على ذلك من أبى بكر) .

* * *

كان علىّ تعزف نفسه عن الدنيا، ويكره مظاهرها، وينكر الظلم بجميع صوره، فهو لم يؤلب على أبى بكر وعمر أحداً يوماً ، ولم يتخل عن عثمان فى محنته ، وما نزال منذ الطفولة الباكرة نحفظ الكتاب الباكى الذى كتبه عثمان إلى علىّ — رضى الله عنهما — كما رواه المبرد فى الكامل :

أما بعد : فقد بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين ، وبلغ الأمر أشده ، ولا يغلبك مثل مغلب :

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل   وإلا فأدركنى ولمـــا أمـــزق

وقد ضاعف هذا الفزع إلى علىّ من فضله ، فكان ينصح لعثمان ويدفع هو وبنوه عنه جهدهم حتى اغتيل ذو النورين رضى الله عنه ووقعت الواقعة التى ما نزال فى جرائرها حتى الساعة .

وكان علىّ رضى الله عنه فى أموره الخاصة يؤثر الخير والعدل والمصلحة العامة :

اختلف مع رجل وحاكمه إلى عمر ، فلما دخلا مجلس الحكم قال عمر : تقدم يا أبا الحسن . فكره علىّ أن يكنى ، لأن التكنية تشريف وامتياز !

واحتكم مرة أخرى إلى القاضى شريح فى درعه التى وجدها مع يهودى ، فأنكر اليهودى الدعوى وأقسم على ذلك ، ولم يستطيع الإمام أن يقدم بينة على دعواه ، فحكم شريح لليهودى ، ورضى علىّ .. ثم لم يلبث اليهودى أن قال : الله أكبر .. أمير المؤمنين يقاضينى فى درعه ويقبل الحكم به لى ؟ الدرع درعك يا علىّ ، سقط منك مرجعك من صفين ، وقدمه إلى علىّ ، فوهبه له الإمام ، وأسلم الرجل !

ولقد رغب علىّ عن الخلافة يوم احتاج الناس إليه بعد مقتل ذى النورين ، ولولا إلحاح وتهديد وضرورة تدارك الأمة قبل أن ينفرط عقدها لظل عنها عازفاً ، وفيها زاهداً .. ثم لم تلبث الفتن أن ثارت فى يمين وشمال ، حتى اغتيل علىّ كرم الله وجهه ..

وكثر عبر التاريخ أشياع المظلومين من آل البيت ، ولعبت السياسة والأغراض التى لم يكن لها حساب فى نفوس علىّ وآل بيت رسول الله .. لعبت دوراً خطيراً فى فصم عرى الأمة ، وشاعت آراء ، وانتشرت مذاهب ، يرمقها المنصفون برفق وحدب ، ويصفها آخرون بنعوت لا تليق !!

ولقد جلا الاستعمار عن الديار ، واستنارت بالعلم الأفكار وأصبح ضرورة حياة أن يلتقى الإخوة وأن يتعارف الناس ، نود أن ننظر من خلال التاريخ إلى فعال علىّ وسماحة آل البيت ، لنعيد إلى الصف الإسلامى وحدته وقوته وعزته ، ولنسكت ألسنة تنطلق بأحاديث الفرقة والخلاف ابتغاء ثمن بخس ، وإن سخط الله « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله »[1].

(١) سورة القصص ، الآية ٥٠

من صور الحياة

فى الحياة الدنيا مفارقات تثير العجب ونقائض تبعث على الدهشة .

والليالى من الزمان حبـــالى مثقلات يلدن كل عجيب

ففيها الإيثار والوفاء والفهم الصحيح لكل ما يضطرب من حولنا من أحداث — سجايا فى أقوام غير محدثة — وفيها الشح المهيمن، والأنانية الصارخة، ونسيان الماضى ، ووزن الناس بميزان المنفعة الشخصية التى لايخفف من سعارها علم العلماء ، ولا فضل أولى الفضل ، وفيها التنكر لأناس وسعوهم بالأمس ، وبرّوا بهم حين اليأس ، وحنوا عليهم حنو المرضعات على الفطيم، حين جفاهم الأهل ، وضاقت بهم فسيحات البلاد ، ومهما تقلبت الحياة بهؤلاء وأولئك بين إقبال وإدبار ، وغنى وافتقار ، وذيوع شأن وهوان ، فلن ترى الكريم إلا فى مخايل الفضل، ولن يعدو اللئيم ما هو له أهل ، ولون الماء من لون الإناء ! !

ولقد رسم الله للحياة طريقها ، وقسم بين الناس ما بثه فيها من أنعمه ، وفاوت لحكمة جليلة بين حظوظهم فيها .. فما كانت الحياة لأحد صفواً خالصاً ، ولا كانت على آخرين هماً موصولا ، ولكنها جزر ومد، ووصل وصد، وعبوس وابتسام، وهى مزيج من الخير والشر ، والغنى والفقر ، والعافية والبلاء .. وجل الله الذى يقول : « وتلك الأيام نداولها بين الناس ... »[1].

وإنما يقارب بين حظوظ الأحياء من الحياة ما أمر به الدين، وأوجبته الفطرة السليمة من تعاون الأقوياء والضعفاء ، وتراحم الأغنياء والفقراء ، واصطناع المعروف عند الذين لايستطيعون على الأيام حيلة ولايهتدون سبيلا، فالمعروف — لا السيوف — هو الذى يسترق القلوب ويعطف الأرواح على الأرواح ، ويخلص بين الناس المودة ، ويرسلهم فى مناكب الحياة إخوة — كما خلقهم الله — وقد سأل رسول الله صلوات الله عليه بنى سلمة : من سيدكم ؟ فقالوا : سيدنا الجد بن قيس على بخل فيه .. فقال عليه

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٤٠

السلام : وأى داء أدوأ من البخل . إن سيد بنى سلمة الأبيض الجعد بشر بن البراء بن معرور ! !

وصلوات الله وسلامه على من أدبه ربه فأحسن تأديبه — فهو يقول : (ومن يسر على معسر يسر الله عليه فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه)(١).

.. وإنك لتجد فى معاصريك — لأول نظرة — رحمة الكرام بمن يعقدون عليهم الآمال .. وتلمس جفوة اللئام بمن أسدوا إليهم جميلا ، وتابعوا فيهم النعم والأيادى الطولى .. ترى ذلك كله فى الأفراد والأمم على السواء .

وأقدم من صحائف التاريخ أشباهاً لما ترى فى حياتنا التى تبدو المادة فيها إلهاً يعبد .. فلعلنا نذكى بما نعرضه روح الكرامة النفسية بين جوانح المؤمنين ، ونلقى الأضواء على طلاب المغانم حتى يعرفهم الناس بسيماهم ! !

كان ابن مقلة الشاعر العربى الخطاط أثيراً عند أحد الخلفاء ، يتحفى به كثيراً ، وينزله من تقديره واعتباره منزلة المحب المكرم .. فازدحم الناس على بابه ، وأحاطوا به كلما حل وارتحل ، وأى عجب فى ذلك ، فالرجل سمح رضى وكأنما قيل فيه :

يزدحم النـــاس عـــلى بـــابه والمنهل العـذب كثير الزحام

ولكن أحد الوشاة رد عنه وجه الخليفة بعض يوم — وما خلت الحياة لحظة من رذيلة الوشاية — فبقى ابن مقلة فى بيته ، لا يلم به صاحب ولا يسأل عنه خليل ، وكان انحسار هذه الأمواج التى كانت تصطخب بذوى الحاجات على بابه ، أوجع لقلبه من غضب الخليفة وانصرافه عنه ، لكن الله الذى يداول فى الحياة بين العسر واليسر ويكشف بالمحن التى تمس الكرام عن أصالتهم ، ومعادن فضلهم ، وجدارتهم بمظاهرة الله وتأييده فى الوقت الذى يملأ فيه بالمحن الخاصة أنوف الآخرين بالتراب !

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ويبتلى الله بعض النـــاس بالنعم

فظهرت براءة ابن مقلة ، وبدت للخليفة حقيقته ، فقربه وأدناه ..وكتب ابن مقلة إلى عبيد الأيام وأسرى الحطام :

(١) رواه البخارى وغيره .

تخالف النـــاس والزمان　　فحيث كان الزمان كانوا
عادانى الدهـر نصف يوم　　فانكشف الناس لى وبانـوا
يا أيهـا المعرضـون عنـا　　عودوا فقـد عاد لى الزمان

وقد كان لمحمـد بن الحسن بن سهل صـديق قد نالته عسرة ، ثم ولى عملا فأتاه محمد زائراً وسلم عليه فرأى منه تغيراً فكتب إليه :

لئن كانت الدنيـا أنالتـك ثروة　　فأصبحت ذا يسر وقدكنت ذا عسر
لقـد كشف الإثراء منـك خلائقاً　　من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

وإذا كان لنا أن نطيل التأمل فى هؤلاء الذين يأكلون خيرك ويشكرون غيرك ، وهؤلاء الذين يتفيأون ظلال برك وإحسانك حقبة من الدهر ثم لايلبثون غير قليل حتى تبهرهم خوادع الآمال ، وكواذب المغربات من هنا وهناك .. فإليكم قصة رجل استقام على حال واحدة فى حالى الزمان .

... إنه الوزير المهلبى أبو محمد الحسن بن هارون .. كان ممن عضهم الدهر بنابه . ثم واتته فرص السعادة ، وأسلس له الدهر قياده ، فما لوى عن أحد كشحاً ، ولاضن على عشير بمعروف ، وكان أبر وأكرم ممن قيل فيهم :

إن الكرام إذا ما أيسروا ذكروا　　من كان يألفهم فى الموطن الخشن

قال أبو على الصوفى : كنت مع أبى محمد فى بعض أسفاره ، فألح عليه ضيق مرير ، ولج به من سوء حاله ضجر هادر ، فأنشد :

ألا مـوت يبـاع فأشـتريه　　فهـذا العيش ما لا خير فيـه
ألا رحم المهيمن كفَّ حـرٍّ　　تصـدقَّ بالوفاة على أخيـه

ثم عالج شؤونه حتى استقام أمره ، وصار وزيراً لأحمد بن بويه الديلمى فى بغداد سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة .

قال أبو علىّ : وفرقت الأيام بيننا ، وما كنـا نتفرق إلا فى النزر اليسـير ؛ ثم اجتزت البصرة يوماً فإذا أنا بحراقات وعدة وعدد ، فسألت : لمن هذا ؟ فقيل : للوزير المهلبى ، فعرفت أنه رفيق الفاقـة وصديق الفقر والعوز .. فكتبت ورقة واستأذنت عليه ، فلما خلا مجلسه رفعتها إليه ، فقرأ فيها :

ألا قل للوزير بلا احتشام مقال مذكر ما قد نسيه
أتذكر إذ تقول ليوم ضيق ألا موت يباع فأشتريه

فنظر إليّ .. وقال : نعم وبالغ فى إكرامى ، ورجا أن لا أتخلف عنه من حاجة تعرض لى ، فشكرته وانصرفت ! !

إن المعدن النفيس لا يضائل من قيمته التراب الذى يرد عنه الأبصار حيناً من الدهر ، وهو فى تيجان الملوك وأعناق الحسان لا يتعالى على أصله ، وإنما يشير إلى أمه الأرض ، والرجل الكريم يرفع من قدره وفرة تواضعه ، بقدر ما يضاعف الصلف الكاذب والاعتزاز بذوى الجاه والمناصب ، من خسة الأخساء ، والتعجيل بتمزيق الأقنعة الخادعة التى يبدون من ورائها على حقيقتهم ، وقديماً قيل :

إذا امتلأت كف اللئيم من الغنى تمايل إعجاباً وقال : أنا أنا
ولكن كريم الأصل كالغصن كلما تحمل أثماراً تمايل وانحنى !

وأين فى الناس مثل الوزير المهلبى ؟! أين من لايصرف وجهه عن أصدقائه وعمن وقفوا إلى جواره فى محنه وبأسائه ، قبل أن تقبل عليه الحياة التى سرعان ما تتحول ؟

إذا تم أمر بدا نقصه ترقب زوالا إذا قيل : تم

« حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهاراً ، فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس »(١) .

وأين المهلبى الوفى من فضل رسول الله ووفائه وبره بأهله وغير أهله ، من أوليائه وأعدائه ؟!

لقد كان أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، يحمل عنهم مغارمهم ، ويدع لهم مغانمهم ، ويقول : (ما تركتم من دين فإلىّ وعلىّ ، وما تركتم من مال فلورثتكم »(٢).

ويسع أصحابه بشره وإيناسه ، فيداعب صغارهم ، ويجامل كبارهم ، ولا يتميز عليهم فى مجلس أو ملبس أو شأن ، ولو فعل صلوات الله عليه — وحاشاه — لصادف من نفوس أصحابه رضى وارتياحاً ، فما أحب أحد أحداً كما أحب أصحاب محمد

---

(١) سورة يونس ، الآية ٢٤

(٢) رواه البخارى وأبو داود وأحمد بألفاظ متقاربة .

محمداً ، ذلك الحب الذى لايدرك بالعنف والغطرسة والحياة فى الأبراج العاجية ، والبعد عن الآخرين إلى الدرجة التى لا يعرف معها من حقائق أعمالهم شيئاً إلا ما تلتقطه أذنه من ألسنة طويلة فى أصحاب همم قصيرة .

ورضى الله عن أم المؤمنين خديجة ، فقد قالت لأبر زوج وأوفى عشير فى ساعة من ساعات الشدة ، كما روى البخارى وغيره : (والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق) .

وإنه لرصيد ضخم من المكارم لا يعرفه حساب الذين ينفخ الاستعلاء بالباطل أوداجهم ، رصيد من المكارم لم تعرفه الحياة إلا مرة واحدة فى أخلاق محمد الذى لم يفارق عرفان الجميل طرفة عين ، ولقد حاول المؤمنون اللحاق به فى هذا المضمار ، فقطعوا فيه أشواطاً تدنيهم من حقيقة الإيمان .. وصدق التأسى !

فهل نفيد من مفارقات الحياة فى أمسها ويومها نوراً يهدى إلى صراط الأخوة ، وحافزاً يؤنس إلى رحاب العزة والقوة ؟ !

والله المستعان على كل خير !!

الناس والزمان

الناس مع الزمان ، ينزلون حيث ينزل ، ويميلون حيث يميل ، ولهم فى حاليهم فلسفة لا يقبل تبريرها إلا الماديون الذين يزنون الأمور بميزان النفعية الهادمة ، فالغنى الموسر — على جهله وشحه — هو رجل الساعة الحفىّ بالاعتزاز ، الخليق بالسمع والطاعة ، كلمته قانون ، وإشارته غنم ، ولغوه علم ، وهو السيد ابن السيد ، وقد يسود غير السيد المال ، فإذا تنكر له الزمان وانتقل المال من يده إلى غيره انفض عنه الناس وتفرق الجلاس .

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا　　　أنيس ولم يسمر بمـكة سـامر

والقوى الباطش يحل من المجلس الحاشد بمنزلة المحب المكرم ، ويدعونه بأطيب الأسماء ، وينعتونه بأكرم النعوت ، فإذا ضعفت قوته وانكسرت شوكته ، نظروا إليه شزراً ، وأوسعوه إهانة وزجراً ، وتركوه من جماعته بمعزل .

والناس من يلق خيراً قائلون لـه　　　ما يشتهى ولأم المخطئ الهبـل

وإنه ليدهشك رأى الناس فى رجل قليل المال ولكنه مرهف الحس ، كبير النفس ، كريم المعدن ، يجرى مع الحق أين توجهت ركائبه ، ويثور على الباطل وإن عز — إلى حين — جانبه ، استجابة لعلمه الصحيح وبصره بالأمور ؛ فشجاعته عندهم نزق وطيش ، واتزانه ذلة وجبن ، وعلمه حديث خرافة ، وصونه لنفسه عن مداناة اللئام ومقاربة أولى النعمة الطارئة والثروة المفاجئة كبرياء وغرور ، ودنوه من الضعفاء — أنصار كل رسالة سماوية ، وسواعد كل انتفاضة تحرر بحق — عيب ونقيصة ، وماهو من ذلك كله فى شيء ولكنها طبيعة النفوس الصغيرة التى تتجنى وتحرف الكلم عن مواضعه ، كما يلمسها فاشية فى مجتمعنا كل معاصر ، وكما صورها قديماً عروة بن الورد الجاهلى بقوله :

ذريـنى للغـنى أسعى فإنى　　　رأيت النـاس شرهم الفقـير
وأبعدهم وأهـونهم عليهم　　　وإن أمسى لـه نسب وخـير

ويقصيه الندى وتزدريه حليلته وينهره الصغير
وتلقى ذا الغنى وله جلال يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنب جم ولكن الغنى رب غفور ...

وليس من المروءة أن نقيس الناس بحظوظهم من الفقر أو الغنى أو ذيوع أسمائهم وخفائها بيننا ، ما داموا يأخذون بأسباب العمل ، ويتنافسون فى أداء أدوارهم على مسرح الحياة ، فكم درة فى التراب ، والأحجار تعوقنا كثيراً عن متابعة السير ، وقيمة كل امرئ ما يحسن لا ما يخزن .

يقول أنا الكبير فعظمونى ألا ثكلتك أمك من كبير
إذا كان الصغير أجل نفعاً وأحسن عند نائبة الأمور
ولم يكن الكبير كثير خير فما فضل الكبير على الصغير !

وإنزال الناس منازلهم بأعمالهم لا بأموالهم ، وبتقواهم وآدابهم لا بأحسابهم وأنسابهم ، هو قانون الإسلام الذى يقول كتابه : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم »(١) . ويقول رسوله : (أنزلوا الناس منازلهم)(٢).

عز بذلك بلال الحبشى وصهيب الرومى وسلمان الفارسى وأضرابهم ، وخسىء به أبو جهل وأبو لهب ، فلم تغن عنه عمومته للرسول من الله شيئاً .

وعن أبى ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لعن الله فقيراً تواضع لغنى من أجل غناه ، من فعل ذلك منهم ذهب ثلثا دينه) .

روى ابن الصلاح فى فتاواه عن بعض العلماء أن سبب هذا النذير وتلك اللعنة (أن المرء بقلبه ولسانه ونفسه ، فإذا تواضع لغنى بنفسه ولسانه ذهب ثلثا دينه ، فإن اعتقد فضله بقلبه كما تواضع له بلسانه ذهب دينه كله) .

وإن محمداً صلوات الله عليه ليضع هذا الأساس قيد الأنظار ، ويقدمه عملياً للدنيا ، وهو يرد على هؤلاء الذين ازدروا فقيراً مر بهم ووقروا غنياً جاء فى أعقابه ، فيقول صلوات الله عليه : (إن هذا الذى ازدريتموه خير عند الله من ملء الأرض من مثل هذا)(٣).

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٣
(٢) رواه أبو داود عن عائشة رضى الله عنها .
(٣) رواه البخارى ومسلم وابن ماجه .

والمال — مع هذا — اعتباره فى الإسلام ... فهو عصب الحياة لا ريب ، والأغنياء الذين عرفوا مهمة المال ، وأنه وسيلة لا غاية ، فطلبوه من حسان الوجوه ، وابتغوه بشريف المكاسب ، وأدوا به حق الله وحق أنفسهم وحقوق إخوانهم .. أولئك هم أوتاد الدنيا ومصدر حركتها وحيويتها ونشاطها ، وقد كان فى أصحاب رسول الله فقراء ، وكان فيهم أغنياء ، فما أزرى بفقير فقره ، ولا أعز غنياً غناه ، وإنما تفاضلوا بالإيمان والتقوى التى أشرقت فى نفوسهم ، وانطلقت بها جوارحهم إلى صالح العمل وصادق القول ، وإسداء المعروف ما أمكنت فرصة وواتت مناسبة ، فى ثقة بجميل الذكر فى الدنيا ، وعظيم الأجر فى الآخرة ، فالغنى الحق هو غنى رسول الله ، وهو رصيد من القناعة ضخم ، توارثت الأجيال حديثه ، وانطبعت به أنفس أصحابه والذين اتبعوهم بإحسان وهم يجاهدون فى ميدان العاجلة والآجلة ، والعربى القديم يقول :

إن الغنى هو الغنى بنفسه ... ولو أنه عارى المناكب حافى
ما كل ما فوق البسيطة كافياً ... فإذا قنعت فبعض شىء كافى

وقد قيل لأهل مكة : كيف كان عطاء بن أبى رباح فيكم ؟ فقالوا : كان مثل العافية التى لا يعرف فضلها حتى تفقد ! .

وما كان عطاء فارع الطول ، ولا عريض المنكبين ، ولا وافر الثروة ، ولكنه كان روحاً إسلامية تتضوأ به الدنيا حيناً من الدهر ، وهو أفطس أسود أشل أعرج ثم عمى آخرة أمره ، وكانت أمه سوداء تسمى بركة ..

وإنه لحسب أعز وأطول من حسب ذلك الذى قال وهو يشير إلى ما فى يديه من الذهب النضار والسيف البتار : انظروا ، هذا حسبى وهذا نسبى ! !

وحين كان الناس ناساً ، والزمان زماناً ، كما يقول الشاعر كان الأحرار يكرمون أنفسهم عن مداناة من لا ينزلون الناس منازلهم وإنما ينظرون إليهم من خلال الأردية الجياد وضخامة الأجساد ..

ولقد استأذن رجل على أحدهم ، فلم يؤذن له ، ولقى من آذنه خشونة وجفوة ، فولى وهو يقول :

سأترك هذا الباب ما دام إذنه ... على ما أرى حتى يلين قليلا
إذا لم نجد للإذن عندك موضعاً ... وجدنا إلى ترك المجىء سبيلا

وقال مصعب الزبيرى : كنا بباب الفضل بن الربيع يوماً والآذن يأذن لذوى الهيئات والشارات ، وأعرابى يدنو ، فكلما دنا صرخ به فانتحى ناحية وأنشد :

رأيت آذننـــا يعتـــام بزتنـــا ... وليس للحسب الزاكى بمعتـــام
ولـو دعينا عـلى الأحساب قدمنى ... مجـد تليـد وجـد راجح نـامى
متى رأيت الصقور الجـدل يقدمها ... خلطان من رخم فزع ومن هـام

وما أشبه آذن الفضل بآذن عمر رضوان الله عليه .. ولكن أين فى الناس مثل عمر : من هؤلاء الذين قدمتهم على الأكفاء تبعيات واعتبارات ظالمة ، زائلة عما قليل ، ورحم الله من قال :

إذا لم يكن صدر المجالس سـيداً ... فـلا خير فيمن سودته المجـالس
وكم قائـل مـالى رأيتـك واقفـاً ... فقلـت له من أجـل أنك جالس

وقد وقف بباب عمر أبو سفيان وبلال ، فدخل غلام الخليفة يقول : أبو سفيان وبلال بالباب . فتمعر وجه عمر ، وصرح بالغلام : قل بلال وأبو سفيان ، فلما قال الغلام بمقالة الخليفة أذن لبلال وخلى أبا سفيان . وكان إذن الخليفة لبلال مثيراً غضب أبى سفيان الذى يجرجر وراءه أربعين عاماً كان له فيها السيادة فى الجاهلية حين كانت سياط الأذى والتعذيب فى الله تلهب ظهر بلال رضوان الله عليه ، وخرج معاوية من مجلس الخليفة ليلقى أباه بالباب تتنازعه الموجدة على عمر والزراية ببلال ، فقال : ما بك يا أبتاه ؟ فقال : وماذا بعد أن يأذن الخليفة لبلال ويدعنى ؟ .. قال : أو يغضبك ذلك ؟ وهل تغضب على الله يوم القيامة حين يأذن لبـلال ويخليك بمكانك ؟ إن أمير المؤمنين إنما قدم بلالا بالقرآن والإسلام ، فقد أرسل الله محمداً بالهدى ودين الحق ، فآمن بلال وكفرتم ، وصدق وكذبتم ، ولو قدمك أمير المؤمنين لقدمك بعبد شمس ، فهل ترضى أن يسبق عبد شمس الإسلام والقرآن ؟ .. قال أبو سفيان : لا .. وزادك الله يا بنى فقهاً وهدى ، فوالله لقد غسلت نفسى من ركام أحقاد وموجدة لم يكن لزوالها من سبيل .. ولو وجدت بلالا بعد اليوم فى طريق ، ما وسعنى التقدم عليه !

هذه هى موازين الفضل والكمال ، لا الأبهة ولا المـال ..

ولقد صدق سهيل بن عمرو وهو يتحدث إلى القوم الذين غضبوا حين أذن مؤذن عمر مرة أخرى : أين صهيب ؟ أين عمار ؟ أين سلمان ؟ فقال سهيل لأحدهم : كيف

يغضبكم ذلك ؟ .. لقد دعوا ودعينا ، فأسرعوا وأبطأنا ، ولئن حسدتموهم على باب عمر ، كما أعد الله لهم من الكرامة فى جنته أكثر .. وسلمان حقى بأن نسجل له فى هذا المقام ذكراً ، وأن نقدم للدنيا منه خبراً ، فلقد كان رضى الله عنه يقسم غنائم الحرب بين المسلمين ، وبينها جواهر فارس وتيجان كسرى ، فنظر إليه زعيم فارسى مغيظاً محنقاً ، وقال : يا سلمان إنها أمجاد قومك تسلمها لهؤلاء العرب .. وأصغى التاريخ إلى سلمان وهو يقول : لست من أبناء الفرس وإنما أنا ابن الإسلام ..

ينبغى أن تكون بنوة الإسلام والأخوة فى الدين هى الرباط المقدس الذى يجمعنا ، فلا تمزق وحدتنا بعده فوارق المال ، ولا أمجاد الآباء والأخوال ، ولا الانتماءات الآثمة لهيئات وأحزاب ومؤسسات لاتجعل الإسلام والحياة به فوق كل اعتبار .ولنأخذ بأسباب العمل الشريف فى تصميم وعزم . فما أكثر ما انتكست الموازين بيننا وحوسب الناس بما لا دخل لهم فيه من قسمة الخلاق وتفاوت الأرزاق . والعربى القديم يقول :

متى ما يرى الناس الغنى وجاره   فقير يقولوا عاجز وجليد
وليس الغنى والفقر من شيمة الفتى   ولكن أحاظ قسمت وجدود

وما أتفه هذه العقول التى تصدر أحكامها على الناس من زاوية حظوظ الحياة التى تتعلق بها النفوس . إن الحياة التى لا تستقر على حال ولا يبقى صفوها أبداً لأحد ، لتكذب هؤلاء المخدوعين بها ، المفتونين بإقبالها وهو يحمل فى طياته نذير الإدبار والتقضى .

قال المهدى للفضل : أسهرتنى البارحة أبيات الحسين بن مطير .. قال : وما هى يا أمير المؤمنين ؟ فقال :

وقد تغدر الدنيا فيضحى فقيرها   غنياً ، ويغنى بعد بأس فقيرها
فلا تقرب الفعل الحرام فإنما   حلاوته تفنى ويبقى مريرها
وكم قد رأينا من تغير عيشة   وأخرى صفا بعد اكدرار غديرها

وقد عرف الدنيا على حقيقتها الناس من كتاب الله وسنة مصطفاه ، ومن إنعام النظر فى حركتها ، كما قال الشاعر :

إذا كنت أعلم علم اليقين   أن حياتى جميعاً كساعة
فلم لا أكون ضنيناً بها   وأصرفها فى صلاح وطاعة

والصلاح والطاعة فى انتهاز فرصتها لعمارتها ، والتنافس فى إبلاغها خير حالاتها فذلك أمر الله ، ومقتضى استخلافنا فيهـا ! فنحن أبناء آدم الذى استخلفه الله وذريته فى هذه الحياة .

وقد أخرج الإمام مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر ، كيف تعملون ... الحديث)[١] .

فمتى نفهم الحياة ونقدرها قدرها الحق ؟ إنها ليست غاية ، ولـكنها قنطرة لما وراءها ، ومع ذلك فنحن مطالبون بأن نتظاهر عليها ، وأن يعين بعضنا بعضاً حتى نبلغها خير وجوهها وأكمل حالاتها ، فى أخوة صادقة ومودة واثقة ، وتنافس لا ننسى معه المبدأ والمصير .. فذلك أخلق بأن نؤدى رسالة الخلافة عن الله ، وأن نسعد بالحياة ، وأن تكون أخوتنا فيها من أرشد أعمالنا التى نجدها خيراً وأعظم أجراً ، « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً »[٢] . « وما ربك بظلام للعبيد »[٣] .

---

(١) رواه الترمذى فى الفتن .   (٢) سورة آل عمران ، الآية ٣٠
(٣) سورة فصلت ، الآية ٤٦

العمال وحقوقهم فى الاسلام

العمال وحقوقهم فى الإسلام جانب من جوانب الشريعة الخالدة التى تشهد بامتدادها وشمولها ، وضرورتها للحياة التى استخلفنا الله فى عمارتها وإبلاغها أعلى درجات ما كتب لها من كمال .

والإسلام بقدر دعوته إلى تجريد العقيدة وإخلاص الدين ، يدعو إلى العمل ويوجبه ، فهو من العبادة ، وهو — وحده — مجال التمايز بين الناس بعد أن جمعهم الله فى أبوة واحدة ، ولم يفاوت بينهم فى أصل ولا فى مصير ، فأبوهم آدم وأمهم حواء ، وإلى الله مرجعهم جميعاً « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى »[١] وصدق الله العظيم : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، إن الله كان عليكم رقيباً »[٢].

والرسول يقول : (من بطأ به عمله ، لم يسرع به نسبه)[٣] .

... فصل القرآن العبادات ، ولفت الأنظار إلى وجوه النشاط العمرانى فى ميادين الزراعة والصناعة والتجارة وما وراءها . وإفراغ الوسع فى ذلك إلى ما وراء حدود الكفاية .

ففى الزراعة يقول الله تعالى : « فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صباً * ثم شققنا الأرض شقاً * فأنبتنا فيها حباً * وعنباً وقضباً * وزيتوناً ونخلا * وحدائق غلباً * وفاكهة وأباً * متاعاً لكم ولأنعامكم »[٤].

وفى الصناعة يقول عن داود : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم »[٥] « وألنا له الحديد * أن اعمل سابغات ، وقدر فى السرد واعملوا صالحاً »[٦].

---

(١) سورة النجم ، الآية ٣١
(٢) سورة النساء ، الآية الأولى .
(٣) رواه البخارى ومسلم .
(٤) سورة عبس ، الآيات ٢٤ — ٣١
(٥) سورة الأنبياء ، الآية ٨٠
(٦) سورة سبأ ، الآيتان ١٠ و ١١

ويذكر سبحانه تجارة قريش إلى اليمن والشام فيقول : « لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف »(١) .

كما يذكرنا بما فى البحار من ذخائر وخيرات فيقول : « وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »(٢) .

* * *

إن لذلك التفصيل مغزاه الذى لا مغزى له سواه ، وهو أن العمل للدين والدنيا معاً ، هو المرآة التى ينظر الله فيها إلى عباده ، وبقدر إخلاصهم فيه وتوفرهم عليه يحلو العيش وتمتد ظلال الرفاهية والسلام ، فليس من الإسلام فى شىء أن تكون الدنيا وحدها هى همنا وغايتنا من أعمالنا ، وليس من الإسلام فى شىء أن نزهد فيها ، وندع مالابد لصلاحها من قيامنا به ، والله تعالى يقول : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة »(٣). ولكن كمال الإسلام أن نمزج بين الدنيا والآخرة مزجاً كريماً نسيطر به ونسود فى حياتين لامكان فيهما لغير العاملين ! !

ولقد نعى الله على الذين انصرفوا عن الدنيا فقال : « ورهبانية ابتدعوها ، ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله ، فما رعوها حق رعايتها ... »(٤) ووضع عبيد الدنيا ، وعارفيها على حقيقتها فى مواضعهم فقال : « فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق * ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار »(٥) .

جاء صحابيان إلى رسول الله يحملان أخاً لهما ، فلما سألهما النبى عنه قالا : إنه لا ينتهى من صلاة إلاإلى صلاة ، ولا يخلص من صيام إلا إلى صيام حتى أدركه من الجهد ما ترى ، فقال : فمن يرعى إبله ويسعى على ولده ؟ ! قالوا : نحن ، فقال صلوات الله عليه : أنتم أعبد منه ! !(٦)

(١) سورة قريش ، الآيتان ١ و ٢ — (٢) سورة النحل ، الآية ١٤
(٣) سورة الأعراف ، الآية ٣٢ — (٤) سورة الحديد ، الآية ٢٧
(٥) سورة البقرة ، الآيتان ٢٠٠ و ٢٠١
(٦) وفى السنة (باب الاقتصاد فى الطاعة) لإمكان المداومة عليها ، والقيام بحق العمل الضرورى للحياة والأحياء .

وجاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا ، كأنهم تقالوها ، فقالوا : وأين نحن من النبى صلى الله عليه وسلم ، قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فقال أحدهم : فأنا أصلى الليل أبداً ، وقال آخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ، فقام إلى المسجد وحمد الله وأثنى عليه وقال : (ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ، أما والله إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، وتلك سنتى ، فمن رغب عن سنتى فليس منى ! !)[١].

إن كل شيء فى ملكوت السموات والأرض يصيح بنا أن نعمل عملا نحقق به لأنفسنا وللناس أملا ، ووظائف الشمس والقمر والنجم والشجر والجبال والهضاب والدواب — وهى تسدى إلينا كل آن خيراً — بحيث لا تخفى على أحد ، فإذا لم يحفزنا لسان الحال ففى آيات القرآن الكريم ذكرى تنفع ، وبينات ليس وراءها مقنع !

قال الله تعالى : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »[٢] . وما أعظم الوصاة بالعمل على هذه الصورة التى يضعه الله فيها بين أداء الصلاة ودوام ذكر الله ! ويجعلها مجتمعة سبيل الفلاح ، ووسيلة الأمن من ضوائق الحياة وسوء المصير ! !

والمؤمن يستعين فى كل أموره بالصبر والصلاة بدءاً ، ويجد فى ذكر الله وهو يؤدى عمله طاقة دافعة ، وخشية من الخلاف عنها والله عاصمه من سخطه !

ويذكر القرآن صفات الجنة حتى لتكاد أنفس المؤمنين تطير شوقاً إلى نضرة النعيم ، ولذة النظر إلى وجه الله الكريم ، ثم يقول : « لمثل هذا فليعمل العاملون »[٣] .. « وفى ذلك فليتنافس المتنافسون »[٤].

وفى قصة زواج موسى عليه السلام من ابنة الشيخ الكبير بيان لما نحن بسبيله . قال تعالى على لسان الشيخ الكبير « ... إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتى هاتين على أن

---

(١) رواه البخارى .
(٢) سورة الجمعة ، الآية ١٠
(٣) سورة الصافات ، الآية ٦١
(٤) سورة المطففين ، الآية ٢٦

تأجرنى ثمانى حجج ، فإن أتممت عشراً فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين . قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان علىّ ، والله على ما نقول وكيل »[1]. فأجر معلوم ، وعمل موصوف ، وتلطف الشيخ الكبير ووعده بالرفق والصلاح ، وعزة العامل «القوى الأمين» وارتفاعه إلى مرتبة الإحسان وهو يوفى خير الأجلين دستور واف للعمال وأصحاب الأعمال على سواء !

... وما من آية دعا الله فيها إلى الإيمان إلا وقد قرن بها العمل ، فهو ثمرته وغايته ومظهره .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا »[2].

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا »[3].

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً »[4].

وحين طلب الله من المؤمنين أن يقرأوا ما تيسر من القرآن فى تهجدهم ، ذكر أقواماً فقال : « فاقرأوا ما تيسر من القرآن ، علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله »[5].

وكم فى تقديم العمال على المجاهدين من معانى التكريم ؟ وهل الجهاد إلا عمل ؟ !

رعى الرسول الغنم بمكة لأهلها على قراريط وهو صغير ، وأجر نفسه فى تجارة خديجة ، واستأجر فى الهجرة إلى المدينة دليلا خريتاً[6] ، وعمل فى بناء المسجد النبوى ، وكان حداؤه[7] — يومئذ — للعمال يضاعف همتهم وهم يرددون :

لئن قعدنا والنبى يعمل ... لذاك منا العمل المضلل

وكره صلوات الله عليه أن يتميز على أصحابه فى مناسبات عدة ، ويوم أراد أن يوسع عليهم بشاة ، مرجعهم من إحدى الغزوات قال أحدهم : علىّ ذبحها ، وقال

---

(١) سورة القصص ، الآيتان ٢٧ و ٢٨ (٢) سورة الكهف الآية ٣٠
(٣) سورة الكهف ، الآية ١٠٧ (٤) سورة مريم ، الآية ٩٦
(٥) سورة المزمل ، الآية ٢٠ (٦) خريتاً : أى ماهراً . رواه البخارى .
(٧) الحداء : النشيد . فقد كان صلى الله عليه وسلم يقول لهم :

لا عيش إلا عيش الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة

كما فى البخارى .

ثان : وعليّ سلخها ، وقال ثالث : وعليّ طبخها . . فقال صلوات الله عليه : وعليّ جمع الحطب ، وجمعها عوداً من هنا وعوداً من هناك ، فى صحراء لا يدرك الطرف مداها ، شاهد همته ومروءته (صلى الله عليه وسلم) ! (١).

ولقد ضرب بأمانته وإخلاصه وتفانيه فى تجارة خديجة ، أحسن الأمثال للعمال ، فليتهم عرفوا ما يجب عليهم قبل أن يطلبوا ما كفله لهم الإسلام من حقوق ، وليتهم يطلبون بتجويد العمل وإحسان الصنيع خيرى الحياتين « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »(٢).

إن فى تمجيد الإسلام للعمل إعزازاً للعمال أنفسهم ، وإشادة بالجهد القيم الذى يدفعون به دولاب الحياة دائماً إلى الأمام ، فى الوقت الذى يطلبون به أرزاقهم من حسان الوجوه وشريف المكاسب ، ويكرمون أنفسهم عن ذل السؤال ، ومنن الرجال فالعمل — وإن هان — أصون للدين والكرامة من الحاجة إلى إنسان !

وقديماً مر الأصمعى بإسكافى يصلح للناس نعالهم فى الطريق العام فى يوم صائف وهو ينشد :

وأكرم نفسى إننى إن أهنتها　　وحقك لم تكرم على أحد بعدى

فسأله الأصمعى : كيف أكرمتها وهذا عملك ؟ فقال : لقد أكرمتها حين أغنيتها عن سؤال لئيم مثلك .

قال أنس رضى الله عنه : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان منا الصائم ومنا المفطر ، فنزلنا منزلا فى يوم حار ، أكثرنا ظلا صاحب الكساء ، فمنا من يتقى الشمس بيده . قال : فسقط الصوّام ، وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقوا الركاب ، فقال صلى الله عليه وسلم : (ذهب المفطرون اليوم بالأجر كله)(٣) !

الله أكبر .. أين يذهب الذين حسبوا الإسلام دعوة إلى الصلاة والصيام وما وراءهما من العبادات فحسب ، لا يواجه مشكلات الحياة ولا يقدم لها الحلول الهادية ؟! والذين زعموا أنه رسالة أدت دورها فى مرحلة من مراحل التاريخ ثم لم يعد لها بعد

---

(١) رواه البخارى وغيره .　　(٢) سورة النحل ، الآية ١٢٨

(٣) متفق عليه بألفاظ متقاربة .

ذلك ضرورة ؟! ألا ليت هؤلاء وأضرابهم يرون كيف أعلى الإسلام من قدر العمل وغالى بمنزلة المفطرين فى هذا المقام ! ليشمروا للعمل ويجوّدوه جهدهم !

واستخلف الرسول على المدينة معاذ بن جبل فى غزوة تبوك ، فكان يصرف شئون المسلمين ثم يعمل بفأسه لتحصيل رزقه ، فلما عاد الرسول وجد فى يده خشونة لا عهد له بها ، وعرف سببها ، فرفع الرسول يد معاذ فقبلها وقال : (يد لا تمسها النار أبداً) وكررها ثلاثاً !

واستخرج علىّ كرم الله وجهه ماء ليهودية ، كل دلو بتمرة ، حتى مجلست كفاه — تشققتا — فاستوفى أجره ، ومضى إلى الرسول فقص عليه قصته ، فأكبره وأكل من تمره صلوات الله عليه !

وهكذا كانت حياة المسلمين عملية روحية ، منذ نفذ الإسلام إلى قلوبهم ، وسطع نور الإيمان ملء نفوسهم ، وكان لهم فى رسول الله وصحابته أسوة حسنة ، وفى قوله صلى الله عليه وسلم هدى وتوجيه ، فهو يقول : (من أمسى كالا من عمل يده أمسى مغفوراً له) ... ، (إن الله يحب المؤمن المحترف ويكره المكفى الفارغ)(١).

(ورحم الله امرأ أحسن صنعته)(٢) ، (إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه) ، (من غشنا فليس منا)(٣) . وأوجب صلوات الله عليه ضمان من تناول ما لا يحسن بقوله : (من تطبب ولم يعلم منه الطب فهو ضامن)(٤) .

وظلت هذه الأضواء على طريق المسلمين تجدد نشاطهم حتى عم الرخاء ، وعرف الترف والرفاهية إلى بعضهم سبيلا ، فنسوا ما ذكروا به من كلام الله ووصايا رسوله ، أو كان حظهما منهم مجرد الترديد والتغنى بما لم يفعلوا ، بينما سيطر العاملون فى شرق الدنيا وغربها ، واكتمل لهم ما نحن أهله من عزة وسيادة ، وصدق الله العظيم : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون »(٥) .

يقول مالك بن نبى فى كتابه (شروط النهضة ومشكلة الحضارة) ص ٩٤ :

(ولقد يقال : إن المجتمع الإسلامى يعيش طبقاً لمبادئ القرآن ، ومع ذلك فمن

---

(١) رواه أبو داود . (٢) أبو عمر ابن عبد البر فى الاستيعاب .
(٣) أخرجه مسلم . (٤) عن عمرو بن شعيب ، رواه أبو داود والنسائى .
(٥) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٥

الأصوب أن نقول : إنه يتكلم تبعاً لمبادئ القرآن لعدم وجود المنطق العملى فى سلوكه الإسلامى) .

والكلام ليس نصاً فى العمال وحدهم ، إلا إذا عرفنا حقيقة أننا جميعاً عمال ، على اختلاف تخصصاتنا فى مؤسسة الحياة الكبرى .

ويالله للذين يقولون ما لا يفعلون .

* * *

لقد وضع الإسلام النظم التى تحمى المجتمع ،وقرر من خلالها حقوق العمال .. إنهم إخواننا .. كما قال الرسول الكريم .. وحقوق الإخوان عند الإخوان كثيرة ، فكيف إذا أدوا لنا من الأعمال ما يعود على أموالنا بالنماء وعلى تجاراتنا وصناعاتنا بالازدهار والسعة ؟! يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : (اعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه)(١) .

ويعظم صلى الله عليه وسلم النكير على الذين يستوفون أعمالهم ثم لا يوفون عمالهم أجورهم ، ويضعهم مع الغادرين ، ومهدرى إنسانية الأحرار فى قوله : (ثلاثة أنا خصمهم ، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حراً وأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يعطه أجره)(٢) .

لقد باهى أقوام (بالقانون الأساسى) لكارل ماركس وغيره من قوانين العمال الجديدة ، ولكنها كلها لا تجرى فى غبار الضمانات الإسلامية بحال . قال المعرور ابن سويد : رأيت أبا ذر وعليه حلة ، وعلى خادمه مثلها ، فسألته عن ذلك ، فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هم إخوانكم وخولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من الأعمال ما يغلبهم ، فإذا كلفتموهم فأعينوهم)(٣) .

إن فى قوله صلى الله عليه وسلم : (فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس) بيان للكفاية التى يستحقها العامل ، فأجره ينبغى أن يقدر على أساس حاجته وكفاءته وطبيعة عمله ، والإسلام لا يساوى بين أجور العمال إلا إذا تساووا فى حاجتهم وكفاءتهم وطبيعة

---

(١) ابن عمر عند ابن ماجه . (٢) رواه البخارى عن أبى ذر .
(٣) رواه البخارى فى الأيمان ، والترمذى فى البر ، وابن ماجه وأحمد فى الأدب .

العمل الذى يقومون به ! ! وصدق الله العظيم إذ يقول على لسان إحدى ابنتى الشيخ الكبير : « يا أبت استأجره ، إن خير من استأجرت القوى الأمين »(١) .

والإسلام ينظر إلى أجر العامل نظرة أخرى كلها رعاية وتقدير ، فهو يحميه من تسويف صاحب العمل وجشعه والأزمات التى قد تعصف بأعماله ، والقوانين الوضعية اليوم تلحظ بعض قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه)(٢)، فهى تعتبر أجر العامل فوق ما قدمنا ديناً ممتازاً يقدم على سائر ديون العمل ، ولكن هل كل الديون تؤدى ما لم يكن وازع الدين ؟

ويبالغ الإسلام فى صيانة ذلك الأجر ، لأن فيه حاجة العامل وحاجة أسرته ، فهو لا يقر الحجز عليه فى دين يطالب به إلا فيا زاد منه عن حاجته وحاجة عياله ، وفى كتاب الخراج لأبى يوسف أن علياً رضى الله عنه قال لأحد عماله : (وإذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كسوة شتاء ولا صيفاً ، ولا رزقاً يأكلونه ، ولا دابة يعملون عليها ولا تضربن أحداً منهم سوطاً واحداً فى درهم ، ولا تقمه على رجله فى طلب درهم ، ولا تبع لأحد منهم عرضاً فى شىء من الخراج ، فإنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو) . ماذا عن حاجتهم !

* * *

هذا هو المجتمع الفاضل الذى نرقبه ونعمل على عودته من خلال تحكيم الإسلام وهيمنته فى دنيا الناس ، لقد كان حقيقة واقعة ، لا أخيلة تزخر بها الرءوس ،وتتجلى فى أحاديث المتحدثين وكتابات الكتاب حيناً بعد حين ، ولا شىء وراء ذلك !

ثم يبلغ الإسلام الكمال الذى لم يبلغه سواه حين يقول صلى الله عليه وسلم : (من كان لنا عاملا ولم يكن له زوجة فليتخذ زوجة ، وليس له مسكن فليتخذ مسكناً ، وليس له خادم فليتخذ خادماً ، وليس له دابة فليتخذ دابة)(٣) .

والرسول بذلك يشير إلى الرخاء والسعة اللذين ينبغى أن يتاحا للعامل ، ورضى الله عن عمر فلقد أنحى بالملامة على قوم مر بهم وهم يأكلون وخدمهم وقوف ينظرون

---

(١) سورة القصص ، الآية ٢٦ (٢) رواه ابن ماجه عن ابن عمر .
(٣) رواه أبو داود وصححه عن المستور وابن شداد .

إليهم ، فصاح بالسادة مغضباً : (ما لقوم يستأثرون على خدمهم) ، ثم صاح بالخدم : (ارفعوا رءوسكم) ، ودعاهم إلى مشاركة ساداتهم فيما يأكلون ! ولن نستأصل الأحقاد ونستل سخائم النفوس ، ونشيع الثقة والمودات بين الناس إلا على ذلك الأساس ، وبذلك الأسلوب الذى يتكرر فى عمل الرسول وعمل أصحابه .

ولقد أسقط أبو حفص رضى الله عنه حد السرقة عن غلمان حاطب بن أبى بلتعة ، بعد أن اعترفوا بسرقة ناقة مزنى وأكلوها ، وقال عمر لعبد الرحمن بن حاطب : (أما والله إنكم لتستعملونهم وتجيعونهم حتى أن أحدهم لو أكل ما حرم الله لكان له حلالا ، فلن أقطع أيديهم ، وإذا لم أفعل ، فلأغرمنك غرامة توجعك ، ادفع للمزنى ضعف قيمة ناقته ، وكانت قيمتها أربعمائة درهم ، فدفع له ثمانمائة)[1] !

وفى قوله صلى الله عليه وسلم فى حديث أبى ذر : (ولا تكلفوهم من الأعمال ما يغلبهم ، فإذا كلفتموهم فأعينوهم) صورة كاملة من الرفق والحدب والتعاون الأخوى الكريم ، ولا تتأتى هذه المعانى الطيبة قبل أن تحدد ساعات العمل بين ما نقسم من أوقاتنا لأداء طاعة الله ، وحق البدن فى النوم والرياضة التى تطارد ملله وتجدد نشاطه ، وحق النفس فى التزود من المعارف الدينية والدنيوية ، وحق الزوج والأسرة فى البر والتوجيه الضرورى ، والأطباء — وهم أهل الذكر فى ذلك المجال — يقررون أن الإنسان يستطيع أن يعمل بإتقان ثمانى ساعات يومياً مع وفائه بالحقوق السالفة !

والإسلام الذى يقرر حق العامل فى الراحة اليومية والأسبوعية والسنوية أخذاً من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (روحوا القلوب ساعة بعد ساعة)[2] ، يقدر الضرورات التى قد تزيد معها ساعات العمل عن ثمان ، بشرط أن لا يضر ذلك بحق القادرين على العمل الذين من حقهم على الدولة أن تكفل لهم فرص العمل فيما يحسنون !

وقاعدة الإسلام الأصولية : (لا ضرر ولا ضرار) توجب للعمال كل وسائل الراحة والسلامة من الأذى فى ساعات عملهم فى المكان اللائق والجو الذى يعين على العمل ، ثم يصون الإسلام كرامة العامل فيما يصيبه من إصابات العمل ، فلا يرضى له استجداء الأغنياء ، ولكن الدولة تعوضه التعويض الكافى إن أقعدته الإصابة عن

---

(١) رواه البخارى ومسلم وابن ماجه .

(٢) وتمامه : « فإن القلوب إذا كلت عميت » .

العمل ، وتقدم له العلاج والدواء والأجر الكامل حتى يعاود عمله سليماً كريماً ، يستوى فى ذلك كله المسلم والكتابى .

قال خالد رضى الله عنه : (أيما شيخ « عامل » ضعف عن العمل ، وأصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين ما أقام بدار الإسلام) .

وصنيع عمر رضى الله عنه مع السائل اليهودى الهرم مذكور !

ومرة أخرى : أين يذهب الذين حسبوا الإسلام دعوة إلى الصلاة والصيام ، وما وراءهما من العبادات دون أن يواجه مشكلات الحياة ، ويقدم لها الحلول الهادية ؟

وأين يذهب الذين زعموه رسالة أدت دورها فى مرحلة من مراحل التاريخ ثم لم يعد لها بعد ضرورة ؟!

ألا ليت هؤلاء وأضرابهم قد رأوا من خلال ما أسلفنا كيف غالى الإسلام بعمل العمال ، وكفل لهم من الحقوق ما ستبق القوانين الوضعية دونه بمراحل ؟

ولقد ذهب زبد الماركسية جفاء وانهارت الشيوعية صوى وأحجاراً . وبقى الإسلام بمقرراته ومبادئه ، يضىء النهج ، ويمهد مسالك الحياة الطيبة .

فإلى الإسلام أيها الناس .. والله يقول الحق وهو يهدى السبيل .

المساجد وما ينبغى لها

المساجد مشارق إيمان ، وينابيع هدى ورحمة ، ينخلع المؤمنون الصادقون على أبوابها من مشاغل دنياهم ، وسلطان هواهم ، ليكونوا فيها ، مع الله ، فى مناجاة صادقة ، وذكر عميق ، وليأخذوا من تراث محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى يتقاسمه المسلمون فيها ، ما واتاهم . وما كان تراث محمد صلوات الله عليه ، مالا يعـد ولا ضياعاً تحصى ، ولكنه كان كما قال ابن مسعود ، وقد رأى بعض صحابة رسول الله يشغلهم الصفق فى الأسواق عن التودد إلى الأهل والعشيرة ، فقال لهم يوماً : أنتم هنا وميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم فى المسجد ، وابتدر القوم إلى المسجد يبتغون لأنفسهم نصيباً مما ترك الرسول ، وفى قلوبهم من الآمال بقدر ما فى رءوسهم من الخيال ، ولكنهم لم يجدوا فى المسجد غير حلقات تلتقى إحداها على القرآن ، وتنعقد الأخرى حول الفقه فى الدين ، ولا مال هنالك ولا حطام ، وعاد القوم يسألون ابن مسعود فى ذلك ، فقال لهم : عجباً ، وهل ترك رسول الله إلا العلم النافع ؟

وصدق الله العظيم : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار »(١) .

إن الله خلق لنا ما فى الأرض جميعاً نتقاسمه ، ونتملكه إلى حين ، فلنا القصور والبساتين ، ولنا المصانع والمؤسسات ، ولنا المراكب وطرائف الحلى والمقتنيات ، ولكنه — سبحانه — اصطفى المساجد لنفسه ، وشرفها بنسبتها إليه ، فقال : « وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً »(٢) . ومهمة المساجد — كما تجلوها هذه الآيات منذ علا بناؤها ، وملأ آذان المؤمنين من منائرها نداؤها : الله أكبر ، الله أكبر — أن نخف إليها زرافات ووحداناً ، نقيم الصلاة ، ونؤكد — وقد تحاذت فيها المناكب ،

---

(١) سورة النور ، الآية ٣٦ و ٣٧ (٢) سورة الجن ، الآية ١٨

واستقامت الصفوف — ما وصفنا الله به فى قوله : « إنما المؤمنون إخوة ... »(١) ، وتقبل بآذاننا ومشاعرنا جميعاً على رجل منا يأمرنا بالمعروف ، كما يأمر نفسه ، وينهانا عن منكر سبقنا إلى الانتهاء عنه ، ويقدم لمشكلات حياتنا ، ومسائل حاضرنا ومستقبلنا من كتاب الله وسنة رسوله وحياة سلفنا الميامين حلولا ، ما عرفت الحياة أوفى منها ، ولا أهدى سبيلا . ولا بأس بإعمال الفكر وخالص الاجتهاد ، مع الخاصة فى نور من أصولنا الكريمة .

* * *

إن الذين يغشون بيوت الله لهـذه الغايات ، هم زوّاره ، وعمار بيوته ، وفيهم يقول الحديث القدسى الذى يرويه الرسول عن ربه جل شأنه : (إن بيوتى فى أرضى المساجد ، وإن زوّارى فيها هم عمارها ، فطوبى لمن تطهر فى بيته ، ثم زارنى فى بيتى ، فحق على المزور أن يكرم زائره)(٢) .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له نزلا فى الجنة كلما غدا أو راح)(٣) .

ويقول : (المسجد بيت كل تقى وتكفل الله لمن كان المسجد بيتـه ، بالروح والرحمة والجواز على الصراط إلى رضوان الله إلى الجنة)(٤) .

ويقول : (إذ رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان) . ثم قرأ قول الله تعالى : « إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين »(٥) .

ولكن أقواماً يطيب لهم أن يؤموا بيوت الله ليصرفوا ضعاف الإيمان عن ذكر الله ويشغلوهم بكلامهم عن الموعظة الحسنة التى جعل الله بها صلاة الجمعة ركعتين عوضاً عن الظهر وهو أربع ركعات ! !

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٠ (٢) الإتحافات السنية للسيوطى .
(٣) متفق عليه . (٤) رواه الطبرانى .
(٥) رواه الترمذى وابن ماجه والدارمى — والآية ١٨ من سورة التوبة . وفى سند الحديث راو فيه كلام ، لكن الآية ومطابقة الحديث لا تدحض كل مقال فى ذلك الراوى .

ولو أن فتنة هؤلاء الغافلين اقتصرت عليهم لهان الخطب ، ولكنها تتسع وتتسع ، وينظر المصلون إلى اللاغين شزراً ، وربما قالوا هجراً ، لمن غمطوا بيت الله حقه من الاحترام ، وعكروا صفو المصلين وإصغاءهم إلى خطبة الخطيب وعظة الواعظ .

إن درجات الناس فى المجتمع تتفاوت ، فمنهم الأمير والوزير والموظف الكبير ، ومنهم الغنى والفقير ، ومنهم العالم والعامل والتاجر ، وهؤلاء فى بيوت الله تعالى سواء أولاهم بالتوقير والإعزاز أتقاهم لله ، وأوفاهم لعباده ، وأحرصهم على رعاية حرماته ، وصيانة مقدساته ، وأحقهم بالإنكار عليه ، من يلغط فى المساجد ويلغو ، ويرتفع صوته ، ويدير ظهره للخطيب الذى ينوب — فى هذه اللحظات — عن رسول الله . والنبى يقول : (إذ قلت لصاحبك أنصت والإمام يخطب يوم الجمعة فقد لغوت)[1] رواه الجماعة إلا ابن ماجه .

هؤلاء ينفرون القلوب التى جمعها المسجد ، ويفرقون الصفوف التى أقامتها الصلاة ويبثون الفوضى بين من « نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده » .

وقد جهلوا النذير فى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (سيكون فى آخر الزمان قوم يكون حديثهم فى مساجدهم ، ليس لله فيهم حاجة)[2] .

وهل يسر هؤلاء أن يضعهم الرسول مع الصبيان والمجانين فيما روى عنه صلوات الله عليه ، واثلة بن الأسقع : (جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وشراءكم وبيعكم وخصوماتكم ورفع أصواتكم ...) الحديث[3] .

ولقد تواضع الناس على أن يأخذوا زينتهم ، قدر استطاعتهم ، كلما اعتزموا زيارة عظيم ، أو لقاء زعيم ، فهل عرفوا أن هذا الأسلوب الاجتماعى مأخوذ من دستورهم الذى يقول الله فيه : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد »[4] .

---

(١) وفى أحمد وأبى داود زيادة : (ومن لغا لا جمعة له) .
(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه والبيهقى ، وصححه العراقى عن ابن مسعود وأنس .
(٣) رواه الطبرانى .
(٤) سورة الأعراف ، الآية ٣٠

وأن السنة المطهرة فصلت هذه الزينة ، فكان من هدى النبى صلوات الله عليه أن يغتسل للجمعة والجماعة ، وأن يلبس أحسن ما يجد من الثياب والطيب والأسباب التى لا تثير فى الناس نفوراً ولا اشمئزازاً .

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (على كل مسلم الغسل يوم الجمعة ، ويلبس من صالح ثيابه ، وإن كان له طيب مس منه)[١].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا يفارق فى سفر أو حضر مشطه وطيبه ومسواكه ومرآته) .

فإذا خرج إلى الوفد مشط شعره ، وفرق جمته ، وأصلح فى مرآته هيئته !

وتروى أم المؤمنين عائشة أن الرسول فقد مرآته يوماً ، فنظر فى ركوة ماء — إناء خاص يعكس صورة الناظر فيه — فأصلح من نفسه ، فقالت له : (وأنت يا رسول الله تفعل هذا) ؟ !

فبين لها الحكمة التى ينبغى أن يرعاها من يخرج للقاء الناس وقال : (إن الله جميل يحب الجمال ، نظيف يحب النظافة) .

وفى الشمائل للترمذى وفى الصحيحين من ذلك زاد لمن يريدون أن يعرفوا الإسلام النظيف الذى لا يمكن أن ترتفع إلى مستواه فى ذلك ، الحضارات الحديثة !

* * *

وليذهب المؤمن إلى المسجد بالسكينة والوقار ، والخشوع لله ، والطمع فى رحمته وهداه ، فإذا دخل المسجد ، فليعمد إلى الصفوف الأولى دون أن يتخطى الرقاب أو يفرق بين الجالسين .

ولقد كان رسول الله يخطب يوماً فرأى رجلا يتخطى الرقاب ، فقال له : اجلس لقد آذيت وآنيت (أى جئت متأخراً) ، فاجلس حيث انتهى بك المجلس ولا تؤذ الناس)[٢].

فإذا صلى تحية المسجد ، فليجلس مستقبل القبلة ، وليشتغل بذكر ربه ، والاستغفار

---

(١) رواه أحمد . (٢) رواه أبو داود والنسائى ، وزاد أحمد .

من ذنبه ، واثقاً من عدة المعصوم صلى الله عليه وسلم : (لا يزال المرء فى ثواب صلاة ما دام ينتظر الصلاة)(١).

وليتخذ المؤمن سترة من عصى أو عود أو غيرها فى صلاته ، حتى يكف عندها بصره ، وتكون علامة ينتهى عندها مرور المارين بين يديه ، وقد أوجب الرسول أن يدفع المصلى من مر بين يديه وقال : (فإن أبى فليقاتله فإنما هو شيطان)(٢).

وأعظم الرسول النكير على المارين بين المصلين دون السترة ، فقال عبد الله بن الحارث بن الصمة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لو يعلم المار بين يدى المصلى ماذا عليه — أى من الإثم — لكان أن يقف أربعين ، خيراً له من أن يمر بين يديه) . قال أبو النضر : (لا أدرى قال أربعين يوماً أو أربعين شهراً أو أربعين سنة)(٣).

وليت الذين يناط بهم أمر المساجد يوفرون لها بعض أسباب النظافة والنظام ، حتى لا يواجهنى مثل ذلك الشاب ، الذى قال لى فى بيروت : إننى أصارحك بضيق ذرعى من السجود مكان أقدام تخلف الروائح والإفرازات الكريهة فى المساجد . .

فقلت له — وأنا أعلم أن شكواه فيها شىء من الحق — : إنه إذا جهل بعض المصلين ما ينبغى عليهم من تنقية أقدامهم من روائحها ، وأبدانهم من إفرازات جهد العمل ، وثيابهم من عواقب الإهمال والكسل ، فما ينبغى أن نضيع فريضة الصلاة ، ونحرم ثواب الجماعة ، ونفقد هذه الفرصة التى تجمعنا فيها المساجد ، فنتدارس أمورنا ، ونستعرض شئوننا ، ونضع الحلول لكل مشكلات حياتنا . ونقدم النصح الرفيق إلى من جهلوا حرمة المساجد .

. . . وإذا لم تتسع صدورنا فى المساجد لهؤلاء ، فأين يتعلمون الحق والخير والكمال؟!

لتكن المساجد كما أرادها الله ينبوع سكينة ، ومدارس عقيدة ، ومحاريب عبادة ، ومعاهد علم بالحياة ، وما ينبغى للحياة من إخاء صادق ، وتعاون واثق ، ومواساة بين المؤمنين .

---

(١) متفق عليه ، ورواية البخارى : (لا يزال العبد فى صلاة ما كان فى المسجد ينتظر الصلاة ما لم يحدث) .

(٢) رواه البخارى ومسلم وغيرهما .

(٣) رواه الجماعة .

فالحاكم يرى ، فى المسجد ، رعيته ، فيتعرف أحوالهم ، ويصرف عن بصر وخبرة أمورهم ، والمحكومون يرون حكامهم وولاة أمرهم يغدون معهم إلى المساجد ويروحون فتتدانى قلوبهم ، وتتعاطف أرواحهم ، وتتساقط الأحقاد من صدورهم ..

والمسلمون يتراحمون ، بعد أن جمعهم المسجد ، وتحاذت فيه المناكب ، واتحدت الغاية والهدف .

والنصائح تسدى فيها ، ويذيعها من يعالج علل القلوب ، وأمراض المجتمع ، وحوائج الناس ، على أساس بانٍ من قوله تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة » .

فما أكثر الذين يتصدون لهذه المهمة الرفيعة ، قبل أن يتزودوا بما ينبغى لها من علم وإخلاص وبصر بالنفوس ، وما يؤلفها من حسن المداخلة ولطف الأسلوب ، وجمال العرض ، وتناول ما تمس إليه حاجتهم من أمور دينهم ، وواقع حياتهم ؛ حتى يجدوا آذاناً صاغية وقلوباً واعية ، وحتى لا يدعوا فرصة لألسنة تتحدث بما لا يطيب عن فلان وفلان ممن لا يحسنون قولا ولا عملا ، وممن لا يتقون الله — إن علموا — فى مرضاة سلطان ، وموالاة من كان على غير هدى وإيمان ..

والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم .

بالشكر تدوم النعم

في زحمة الحياة ، واتصال شواغلها ، قد ينسى الإنسان إحسان من خلقه من العدم ، وأخرجه من ظلمات البطون إلى نور الحياة بشراً سوياً ، ليكون خليفته في عمارة أرضه . وإصلاح كونه ، ولكن القرآن الكريم يتداركه بين زهو السلطان ، وغرور الملك وطغيان الغنى بمثل قول الله تعالى : « وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد »[1] ، فيبادر المؤمن إلى النشاط في موجبات رضى الله ، ويضع الغافل أصابعه في أذنيه مؤثراً أن يجعل هواه في غير ما أمر الله ، حتى تأخذ بمخانقه الأزمات وتدهمه الكوارث .

قال ابن القيم في تفسيره : وفي الأثر : (ما تحت أديم السماء إله يعبد أعظم عند الله من هوى متبع) ثم ذكر قوله تعالى : « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون »[2] .

وأنعم الله عندنا لا يحصيها العد ، ولا تقف عند حد ، فهي في أنفسنا ، وفي بيوتنا ، وفي أعمالنا ، وفيما حولنا من خلق ومخلوقات .

ولقد خطب الرسول صلوات الله عليه المسلمين يوماً ، فتفل في يده تفلة يسيرة — جعل عليها القليل من ريقه — ثم قال : يقول الله تعالى في الحديث القدسي : (يا بن آدم ، أنى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه ؟! حتى إذا عدلتك وسويتك ، مشيت في بردين ، وللأرض منك وئيد ، فجمعت ومنعت ، حتى إذا بلغت الروح الحلقوم ، قلت : إني أتصدق ، وأنى أوان الصدقة)[3] ؟ !

من مثل هذه التفلة اليسيرة ، خلق الله الإنسان في أحسن تقويم ، وامتن عليه بقوله : « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ◦ إنا خلقنا الإنسان

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٧ (٢) سورة الجاثية ، الآية ٢٣
(٣) أخرجه أحمد .

من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً * إنا هديناه السبيل . إما شاكراً وإما كفوراً »(١).

وخلق آدم أبا البشرية من قبضة من تراب هذه الأرض ، وفى التراب والماء المهين ناقوس يدق فوق رءوس الجبارين المستكبرين ، مذكراً بالأصل والنشأة لو كانوا يسمعون !

وجعل سبحانه من الإنسان ، الأنبياء والمرسلين ، والهداة الراشدين ، والولاة الصالحين ، وخاطبهم فى القرآن ، ووصاهم ، وأمرهم ونهاهم ، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة . وتأمل قوله تعالى :

« الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار »(٢).

وقل لى : كم مرة كرر سبحانه كلمة « لكم » ؟ ثم أعقب ذلك بقوله : « وآتاكم من كل ما سألتموه »(٣) ، وأى شيء وراء ما ذكرت الآيات وما قال سبحانه : « هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء »(٤).

إن أنعمه ، تبارك اسمه ، لا تحصى عداً ، ولا توفى حمداً ، فوجودنا نعمة ، وهدايتنا إلى الإيمان نعمة ، وأبناؤنا نعمة ، والتعارف والتآلف اللذان يقومان بين شعوبنا وأممنا — أو هكذا ينبغى أن تكون — نعمة ، امتن القرآن بمثلها على أوائلنا فقال : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون »(٥).

* * *

ولقد لفتنا الله إلى أنفسنا لنتأملها وننظر فيها ، فقال : « وفى أنفسكم أفلا تبصرون »(٦) وقال : « فلينظر الإنسان مم خلق ... »(٧).

(١) سورة الإنسان ، الآيات ١ — ٣ (٢) سورة إبراهيم ، الآيات ٣٢ — ٣٤
(٣) سورة إبراهيم ، الآية ٣٤ (٤) سورة البقرة ، الآية ٢٩
(٥) سورة آل عمران ، الآية ١٠٣ (٦) سورة الذاريات ، الآية ٢١
(٧) سورة الطارق ، الآية ٥ ، واقرأ مابعدها .

وقال : « فلينظر الإنسان إلى طعامه .. »[١] .

وأمرنا أن نتأمل ما حولنا من رياض وغياض ، ودور وقصور ، وجبال يرتد الطرف دونها خاسئاً وهو حسير ، ففيها من مشاهد العظمة الإلهية أشجار وينابيع كأنها السطور الجميلة فى صحيفة ! !

ثم هذه النسمات الرطاب ، والمياه التى تنساب بين الصخور ، فيشجى خريرها الصدور ، ويحيى بها الله الإنسان والحيوان ، ويسوقها إلى الأرض الجرز ، فيخرج بها الزروع والثمرات والأشجار التى يتسع ظلها ويطيب !

كل ذلك وما يسرك منظره ويروقك مخبره .. لك أنت أيها الإنسان .

« والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ۝ ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ۝ وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم ۝ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون ۝ وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ، ولو شاء لهداكم أجمعين ۝ هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون ۝ ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ۝ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ۝ وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفاً ألوانه ، إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون ۝ وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ۝ وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهاراً وسبلا لعلكم تهتدون ۝ وعلامات ، بالنجم هم يهتدون »[٢].

جمال وكمال ، وأنعم غوال ، يخصك الله بها ، ويعدك إن هدتك إليه ، وجمعتك عليه ، وتوفرت معها على طاعته ، يمزيد فى الحياة وفيما وراء الحياة ؛ فما عند الله لاينال إلا بطاعته ، وما يتمتع به العصاة بيننا ليس إلا وبالا عليهم ، سرعان ما يتبدد من بين أيديهم أو تتبدد حياتهم إلى آخرة لا يغنى فيها مال كان وزال ، ولاسلطان أدبر وتولى وفيها تجزى كل نفس بماكسبت ..

(١) سورة عبس ، الآية ٢٤ ، واقرأ ما بعدها .
(٢) سورة النحل ، الآيات ٥ — ١٦ والسورة حافلة بأنعم الله جلت أنعمه .

ولكن الإنسان فى زحمة الحياة واتصال شواغلها قد ينسى شكر من خلق ورزق .

روى الشيخ الشنقيطى فى كتابه (زاد المسلم فيما اتفق عليه البخارى ومسلم) قوله الله تعالى فى الحديث القدسى :

(إنى والجن والإنس فى نبإ عظيم ، أخلق ويعبد غيرى ، وأرزق ويشكر سواى ، خيرى إلى العباد نازل ، وشرهم إلىّ صاعد ، أتحبب إليهم بنعمتى وأنا الغنى عنهم ، ويتبغضون إلىّ بالمعاصى وهم أحوج شىء إلىّ ، من أقبل علىّ منهم لاقيته من بعيد ، ومن أعرض عنى ناديته من قريب ، أهل ذكرى هم أهل مجالستى ، وأهل محبتى هم أهل طاعتى ، وأهل شكرى هم أهل زيادتى ، وأهل معصيتى لا أقنطهم من رحمتى ، إن تابوا إلىّ فأنا حبيبهم ، فإنى أحب التوابين وأحب المتطهرين ، وإن لم يتوبوا إلىّ فأنا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب ، الحسنة عندى بعشر أمثالها أو أزيد ، والسيئة عندى بواحدة أو أعفو ، وإن استغفرونى غفرتها لهم ، وأنا أرحم بعبادى من الوالدة بولدها) .

* * *

إن الأيام تدور ، وحظوظ الحياة تنقلب من يد إلى يد ، ولكن صفو الصالحين المصلحين لا يفارقهم ، فكن منهم ولا تكن من الجاحدين الذين بدلوا نعمة الله كفراً ، ولم يضعوا مكانه عرفاناً وشكراً .

ولا تكن ممن ينفرون نعم الله بمعاصيه ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأم المؤمنين عائشة : (أحسنى جوار نعم الله عز وجل ، فإنها قلما فارقت دار قوم وعادت إليهم) .

ويقول : (إذا رأيتم الله يوالى نعمه على عبده وهو مقيم على معاصيه فاعلموا أن ذلك استدراج)(١).

وروى أحمد بإسناد جيد عن عقبة بن عامر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (إذا رأيت الله عز وجل يعطى العبد على معاصيه ما يحب ، فإنما هو استدراج) ، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون »(٢).

(١) رواه أبو داود . (٢) سورة الأنعام ، الآية ٤٤

والله تعالى يقول : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون ، وأملى لهم إن كيدى متين »(١).

ولقد أثنى الله على نوح فقال : « ذرية من حملنا مع نوح ، إنه كان عبداً شكوراً »(٢).

وأثنى الله على خليله إبراهيم فقال : « إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين ، شاكراً لأنعمه ، اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم »(٣).

ومضى الشكر خلقاً مأثوراً فى أنبياء الله ورسله حتى قال محمد صلوات الله عليه يوم عرض عليه ربه أن يجعل له جبال مكة ذهباً : (لا ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً ، فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك ، وإذا شبعت شكرتك وحمدتك)(٤).

وكان الرسول يعلم أصحابه وجوه العبادة ومناسك الإسلام ، قال لأبى ذر : (علم الله أنى أحبك ، فلا تدع عقب كل صلاة أن تقول : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك) .

فهل نستمطر سحائب نعم الله بشكره ، ونستجيب إليه وهو يدعونا إلى ذكره .

« فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ، يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ، إن الله مع الصابرين »(٥).

---

(١) سورة القلم ، الآيتان ٤٤ و ٤٥
(٢) سورة الإسراء ، الآية ٣
(٣) سورة النحل ، الآيتان ١٢٠ و ١٢١
(٤) رواه الترمذى .
(٥) سورة البقرة ، الآيتان ١٥٢ و ١٥٣

لا تعصوا الله بنعمه

نعم الله على عباده لا يحيط بها حساب الحاسبين «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم »(1).

والعقل والسمع والبصر ، ودائع لله عندنا ، ينبغى أن نرعاها ، ونضعها فى مواضعها من تصرفاتنا ، لنكون من أهلها ، الذين يحاولون شكر المنعم المتفضل بها ، وقد سئل الإمام الجنيد عن حقيقة الشكر ، فقال : (أن لا تعصى الله بنعمه) !

ومن نفيس ما قال ابن القيم فى كتابه (مفتاح دار السعادة) :

(فانظر إلى الحواس ، التى نشرف منها على الأشياء ، كيف جعلها الله فى الرأس كالمصابيح فوق المنارة ، لنتمكن بها من مطالعة الأشياء ، ولم يجعلها فى الأعضاء التى تمتهن ، كاليدين والرجلين ..) إلى آخر ما قال رحمه الله .

والعقل أجل هذه النعم ، وأوجبها لذكر الله وشكره ، وأعودها بالبركة علينا وعلى الناس فى العاجل والآجل ، وإذا كان اشتقاق العقل من عقال الناقة ، الذى يمنعها من التفلت والشرود ، فإن عقول العقلاء ، تعصمهم من الهلاك فى أودية الهوى ، ومزالق الشهوات .

روى عمر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ما اكتنز المرء مثل عقل ، يهديه إلى هدى ، ويرده على ردى)(2).

إن العقل هو اللطيفة الربانية التى كرم الله بها الإنسان ، وميزه بها عن سائر الحيوان ، ولئن شاركنا الحيوان فى الأعين المبصرة ، والآذان السميعة ، والألسنة فى شكلها وهيئتها ، لا فى عملها وغايتها ، فالحيوان يدير لسانه فى فمه ، ليحرك به طعامه دون أن ينطق به أو يبين عن مراد ! لقد وهب الله الحيوان إلهاماً يدفعه إلى ماينفعه أحياناً ، ويرده عما يرديه . وفى ذلك يقول الله تعالى :

---

(1) سورة النحل ، الآية ١٨ (2) رواه البيهقى فى شعب الإيمان .

« وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون » ثم كلى من كل الثمرات فاسلكى سبل ربك ذللا .. »[(١)].

« حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمـل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده ... »[(٢)].

فتأمل كيف نادت فعممت ونبهت ثم خصصت ثم أمرت وحددت ونفت وسمت سليمان وجنوده واعتذرت ؟ ! وأين أين الإنسان . ولله در القائل :

لـولا العقــول لـكان أدنى ضيغم   أدنى إلى شرف من الإنســـــان

.. وأية نعمة أجلّ ، وشرف أطول ، من ذلك العقل الذى حاكم الله إليه العباد ، وناط به التكليف ، وجعله النافذة التى يطل منها علينا ، والمرآة التى ينظر فيها إلينا ، فما يتفاضل الناس فى الدنيا والآخرة إلا بالإيمان (والعقل نور فى القلب يفرق بين الحق والباطل) كما ورد فى الأثر ، وبقدر ما وهب الناس من عقل ثابت وبصيرة ينفذون منها إلى وجه الحق ، ويميزون بها الخبيث من الطيب ، تكون الأقدار فى الدنيا ومنازل العبادات عند الله ، والرسول صلوات الله عليه يقول : (ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها).

وقد رويت فى قيمة العقل نفائس على أنها أحاديث ، ولكن رجال الحديث تكلموا فيها ، وهى على ذلك مما ينبغى أن يقرأ على أنها من أفكار الرجال لا من قول المعصوم صلى الله عليه وسلم .. فاطلب بعض ذلك فى غير ذلك الكتاب !

ويرى ابن عبــاس أن القلب فى قوله تعــالى : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب »[(٣)] هو العقل ، وأن الله سماه : فؤاداً ولباً وحجراً فى قوله :

« هل فى ذلك قسم لذى حجر »[(٤)].

---

(١) سورة النحل ، الآيتان ٦٨ و ٦٩   (٢) سورة النمـل ، الآية ١٨

(٣) سورة ق ، الآية ٣٧ ، قال ابن الأثير فى « النهاية » ج ١ : العقل يمنع الإنسان من الفساد ويحفظه من التعرض للهلاك .

(٤) سورة الفجر ، الآية ٥

« إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا »(١).

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب »(٢)

قال أبو الحجاج يوسف بن محمد البلوى فى ج ١ ص ١٩٢ من كتابه (ألف باء) :

وقد تكلم الناس فى ماهية العقل وفى أسمائه وفى محله ..

فمن أسمائه : العقل واللب والحجا والحجر والنهى .

فقالوا : سمى عقلا لأنه يعقل صاحبه عن ركوب شهواته ، ومنه أخذ عقل الناقة ، قال عامر بن قيس : (إذا عقلك عقلك فأنت عاقل) . وفى القرآن الكريم : « لعلكم تعقلون »(٣).

وسمى لباً : لأنه صفوة الشيء وخالصه ولبابه ، ولب كل شيء : خالصه ومحضه ، وجمعه ألباب . وفى القرآن الكريم : « يا أولى الألباب »(٤).

وسمى حجاً : لإصابة الحجة به والاستظهار على جميع المعانى . يقال : حاججته بحجته.

قال ابن الأثير فى النهاية ج ١ : الحجا : العقل ، وعرّفه بما أسلفنا ، ثم قال : (شبه الستر الذى يحوط السطح فيمنع الإنسان من التردى والسقوط وقسر الستر بالعقل المانع من أفعال السوء المؤدية إلى الردى) . اهـ .

وسمى حجراً : لأنه يحجر عن ركوب المناهى ، ومنه : حجر الحاكم على فلان ، ويقال للرجل إذا كان ضابطاً لنفسه ، رابطاً لجأشه ، مالكاً لإربه : إنه لذو حجر . وفى القرآن : « هل فى ذلك قسم لذى حجر »(٥).

وسمى النهى : لأن إليه ينتهى الذكاء والمعرفة والنظر (وهو جمع نهية) وهو نهاية ما يمنح العبد من الخير المؤدى للصلاح فى الحياتين ... وفى القرآن الكريم : « إن فى ذلك لآيات لأولى النهى »(٦).

وقد أورد ابن الأثير فى (النهاية) ج ٥ حديث : (ليلينى منكم أولوا الأحلام والنهى) ، وقال : هى العقول ، والنهى : جمع (نهية) بضم النون ، وسميت بذلك لأنها تنهى صاحبها عن القبيح . اهـ .

* * *

(١) سورة الإسراء ، الآية ٣٦
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٩٠
(٣) سورة البقرة ، الآية ٧٣
(٤) سورة البقرة ، الآية ١٩٧
(٥) سورة الفجر ، الآية ٥
(٦) سورة طه ، الآية ٥٤

ولقد كان العقل منذ الأزل ، وسيبقى ، مناط التكليف وميزان الرجولة ، وعنوان السيادة الأصيلة ، به يكبر الصغير ، ويستغنى الفقير ، ويستوجب المغمور من الناس الإجلال والتوقير ، وبدونه ينحط الشامخ ، ويمضى فى عداد الموتى ، وإن كان يتردد بين المحافل والدور !

وقد سأل معاوية يوماً عمرو بن العاص — رضى الله عنهما — ما بلغ من عقلك ؟ !

فقال عمرو : ما أدخلنى عقلى فى حرج إلا أخرجنى منه !

فقال معاوية : أما أنا فما أدخلنى عقلى فى حرج قط !

وكان عبد الله بن الزبير فتى حدثاً ، يلعب بين لداته وأترابه فى بعض سكك المدينة ، حينما مر بهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، فتفرقوا بعد أن أخذتهم هيبته ، إلا عبد الله ، فقد لزم مكانه ! فسأله الخليفة : لِمَ لمْ يمض مع أصحابه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، لم تكن الطريق ضيقة فأوسع عليك ، ولم أكن مذنباً فأخافك ؟

إنه جواب الرشد والسداد لا ريب .

وقال عمرو بن العاص : أعجبتنى كلمة جارية . قلت لها ، ومعها طبق مغطى : ماذا فى إنائك يا جارية ؟ ! فقالت : فلم إذن غطيناه ؟!

فأين من هؤلاء الذين يفرضون سلطان العقل على جميع جوارحهم ، فلا تنطلق حتى تتلقى إشارة البدء من عقول أنارت لها تقوى الله سواء السبيل . أولئك الحمقى الذين يهدرون عقولهم ، فيما يجهدونها فيه من أذى الخلق والإضرار بهم ، ويطفئونها لحظة بعد لحظة فيما يواقعون من آثام ، ويتناولون من حرام الشراب والطعام ويأخذونها به من أفكار ومعارف تضل ولا تهدى ، وتفسد ولا تصلح ، غير حاسبين حساباً ليوم عاجل يحيون فيه بين الناس .. ولكن بلا عقول .. ورضى الله عن علىّ بن أبى طالب فهو يقول : ربّ : من أعطيته العقل فماذا حرمته ؟ ومن حرمته العقل فماذا أعطيته ؟!

والقرآن الكريم يؤكد تحسر الكفار وهم بين أطباق السعير فى الآخرة على ما حرموا فى الدنيا من هدايات العقل والجوارح ، فيقول تعالى :

« وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ، فاعترفوا بذنبهم ، فسحقاً لأصحاب السعير »(١) .

(١) سورة الملك ، الآيتان ١٠ و ١١

ويضع الله أقواماً فى موضع الذم فيقول :

« وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون »(١) .

ولا عجب فى ذلك ، فما أكثر الذين أوتوا عقولا ولكنها لا تعى ، ووهبوا قلوباً ولكنها لا تلين لموعظة ، وقامت بين جوانحهم أفئدة ولكنها مغلقة بأهواء حاجبة ، مغلولة عن الإدراك بأغلال من الرّان الذى تركته المعاصى على القلوب :

قال تعالى : « كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون »(٢) .

وقد دعا الرسول بنى عبد الدار مرات إلى الإسلام ، فلم يستجب له غير رجلين وقال القوم : نحن صم بكم عمى عما جاء به محمد ، لا نسمعه ولا نجيبه ، فنزل قول الله : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون »(٣) .

* * *

إن العقل هو أداة الفهم ، وسبيل العلم ، وهو المصباح الكاشف لمكان أعمالنا من الإصابة أو الخطأ ، فالحواس تزيغ وتضل ، والعقل يصحح لها خطأها ، ولابد له فى ذلك من هداية الدين ، فطالما اغتر أقوام بعقولهم ، ووثقوا فيها وحسبوا أنها قادرة على معرفة كل شىء ، والوصول بها إلى الخير دون حاجة إلى ذلك من نبوة أو وحى أو مواريث ، كما يلغط بذلك خفافيش الكتاب ، فأوردتهم عقولهم موارد البوار ، ونعوذ بالله من عقل لا يستهدى فى أمره كله بهدى الله :

« ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور »(٤) .

كان عمر بن عبد العزيز كثيراً ما يدعو الله فيقول : (رب انفعنى بعقلى) :

وكان حكيم آخر يقول : (رب اجعل نعم الحياة الدنيا كلها تحت أقدام الحمق وأعطنى عقلا غير مضطرب) .

ولقد سألا عظيماً .. ويرحم الله الإمام السيوطى فقد قال : (إن الرجلين ليستويان فى أعمال البر ، فيكون بينهما كما بين المشرق والمغرب ، إذا كان أحدهما أعقل من الآخر) .

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٩٨ — (٢) سورة المطففين ، الآية ١٤
(٣) سورة الأنفال ، الآيتان ٢٢ و ٢٣ — (٤) سورة النور ، الآية ٤

وما جدوى مالك ؟ وما قيمة علمك ؟ وماذا ينفع الحسب الزاكى **إذا لم يزين** ذلك كله عقل راجح ، وإدراك صالح ، وتصرف رشيد !

والله تعالى يقول : « أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب **يعقلون بها** ، أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى **الصدور**»(١).

فماذا بقى فى مدارج الشرف للعقلاء الذين يتقبلون عن الله أحكامه وتشريعه **؟!**

« ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار »(٢) .

« إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »(٣) .

---

(١) سورة الحج ، الآية ٤٦

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٩١

(٣) سورة ق ، الآية ٣٧

اياكم والكسب الحرام

يضطرب العالم – في هذه الأيام – وتغلي مراجله ، وتتناكر فيه وجوه الناس وقلوبهم – كما لم تتناكر من قبل – وكأن كل واحد منهم قد خلق وحده ، وحسب أنه يستطيع أن يعيش وحده ، دون حاجة إلى عون أو رأى من إنسان ، تلقى هذا يشكو دهره ويتهم سواه ، ويقول الآخر : إنه هو الذى يعوق سيرى ، ويعرقل مسعاى ، وينازعنى ما ملكت يداى ، وكأنما شعارهم :

وإذا سعت نحوى المنى لأنالها وقف الزمان لها هناك فردها ! !

وذلك كله وهم ، وضلال ، فى الإدراك والفهم ، أتى هؤلاء من ضعف الإيمان بالله ، والغفلة عن دينه ووصاياه ، ومن حرصهم على الدنيا ، وتحصيل ما استطاعوا من متاعها ، غير ناظرين إلى وجوه الكسب وضروب العمل . أهى مما يرضاه الله ، أم مما يرده ويأباه ؟!

روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (يأتى على الناس زمان لا يبالى المرء ما أخذ ، أمن الحلال أم من الحرام ؟!) .

وحياة مادية ، على هذه الصورة ، لا تشرق فيها روح ، ولا يلوح من خلالها شعاع دين صحيح ، تتقطع فيها الأسباب بين الناس بعضهم وبعض ، وبينهم وبين خالقهم سبحانه ، بقدر ما يملأ حياة المؤمنين بالله ، وبالأسباب التى شرعها للحياة ، من يقين فى دفاعه عنهم ورعايته لهم ، وبره بهم :

« إن وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين »(١) .

روى أحمد فى مسنده عن وهب قال : إن الرب سبحانه قال فى بعض ما قال لبنى إسرائيل : (إذا أطاعنى العبد رضيت عنه ، وإذا رضيت عنه باركته ، وليس لبركتى نهاية ، وإذا عصانى العبد غضبت عليه ، وإذا غضبت عليه لعنته ، ولعنتى تبلغ السابع من ولده) ! !

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٩٦

ويقول الرسول صلوات الله عليه : (إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال : « يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً ... »(١) .

وقال : « يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله ، إن كنتم إياه تعبدون »(٢) .

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يقول : (يارب يارب ، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وقد غذى بالحرام فأنى يستجاب له)(٣) .

(إن حب الدنيا رأس كل خطيئة)(٤) ، إذا طمس حبها معالم الإيمان ، وضيع فى ضجيجه وحركته صوت الحق ، وسد مسامع عشاقها المعاميد عن نصح الناصح الأمين ، ووعظ الواعظ الرشيد (والحب يعمى ويصم) كما يقولون !

وصدق الله العظيم : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ... »(٥) .

ومن مأثور الحكم : (ما رأيت كالدنيا يكثر صرعاها ، وتتعدد ضحاياها ، وهى مع ذلك كثيرة الخطاب) !

إنها تتصنع لهم ببريق المال ، وخادع المنى والآمال ، وجاه المنصب ، وزهو السلطان ، وعز الشهرة ، وسكر الشهوة ، فإذا أرخص لها المرء دينه ، وباع فيها ضميره ، ووهبها إحساسه — كله — وشعوره ، فهى شغله فى يومه ، وهى رؤاه ، وأحلامه فى نومه ، امتهنته ، ولم يأته منها إلا ما كتب له .. وفى مثل هذا يقول شاعر معاصر :

فلا تغبطن أخا حظوة ... فما نالها برخيص القيم
ولكنه باع فيها الضمير ... وألقى العقيدة تحت القدم !!

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٥١ (٢) سورة البقرة ، الآية ١٧٢
(٣) رواه مسلم والترمذى عن أبى هريرة . (٤) أخرجه البيهقى عن الحسن مرسلاً
(٥) سورة آل عمران ، الآية ١٤

وإذا صحب المرء فى الحياة دينه ، غادياً ورائحاً ، وممسياً ومصبحاً ، وآخذاً ومانحاً حنت له هامتها وأسلمته أزمتها ، وأخلصته سلامها ومودتها .

عن أنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من كانت الآخرة همه جعل الله غناه فى قلبه ، وجمع عليه شمله ، وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله ، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له أو ما كتب له)(١) .

* * *

إننا ندعو إلى التنافس فى إحراز أكثر فرص الحياة ، من القوة المادية ، والقوة المعنوية ، فى غير ضغينة ولا بغضاء ، وما ينبغى أن تسبقنا فى ذلك أمة ، وكتابنا ينطق علينا بما ليس للناس مثله :

قال تعالى : « هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً »(٢) .

والرسول صلوات الله عليه يقول فيما روى أبو سعيد الخدرى : (إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها ، فينظر كيف تعملون ، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء)(٣) .

والإسلام لا يخاصم الغنى حين يكون من كسب طيب ، ولا يكره أن يحمد امرؤ بعمل يحسنه ، وصنيع يتقنه ، بعد أن أتاح الله لنا التمول وأذن فيه من شريف المكاسب ، وحسان الوجوه ، وتجريده من حقوق الآخرين ، والشرع لا يأذن بشىء ثم يعاقب عليه ، وقد أمرنا الله بالعمل ، وندب إليه خلفاءه على أرضه ، فكيف لايبيح لهم ما فضل من نفقتهم ، وزاد عن حاجتهم ، وواسوا ببعضه من تجب مواساتهم؟

ولقد تمول أصحاب رسول الله وقال حبر هذه الأمة ابن عباس : (إنى لأن أترك ما لا يحاسبنى الله عليه ، خير من أن أترك ورثتى عالة يتكففون الناس) . وابن عباس ينظر فى ذلك إلى ما روى سعد عن الرسول صلى الله عليه وسلم : (إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس)(٤) .

---

(١) رواه الترمذى والطبرانى والبزار وابن ماجه وابن حبان فى كتاب العلم .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٣ (٣) رواه مسلم والترمذى .
(٤) أخرجه مسلم .

وفى الأثر عن ابن عمر : (احرث لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واحرث لآخرتك كأنك تموت غداً)(١) .

وقد عاش ابن عوف وابن مسعود والزبير بن العوام وفلان وفلان من الصحابة أغنياء وخلفوا أموالا تربو على أرقام الحاسبين .

وكانوا أسخياء عندما تدعو دواعى البذل للجهاد ، وللتوسعة على العباد ، فما يعاب الغنى إلا بالطغيان والشح والإغراق فى الترف والوقوع فى الآثام (والغنى الشاكر والفقير الصابر بمنزلة واحدة عند الله يوم القيامة) . وقد فضل الغنى الشاكر بعض العلماء .

وكيف يذم المال وهو كما قال سعد بن عبادة — سيد الخزرج وأحد نقباء العقبة — : (اللهم هب لى مجداً ، لا مجد إلا بفعال ، ولا فعال إلا بمال ، اللهم إنى لا يصلحنى القليل ولا أصلح له) ! !

والحلال ترياق وبركة من الرزاق ، ولا غنى لأحد عن بركات الله :

« يا أيها الذين آمنوا لا تحرّموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين * وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون »(٢) .

* * *

وبعد : فهل سألت نفسك ، يا أخى ، من أين جمعت مالك ؟!

فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول فيما روى معاذ : (لا تزول قدما عبد من بين يدى الله يوم القيامة حتى يسأل عن أربع(٣) : عن عمره فيما أفناه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن علمه ما عمل به ، وعن ماله من أين جمعه وفيما أنفقه)(٤) .

وهل رددت عن نفسك شؤم الكسب الحرام ، فإنه إن خالط حلال مالك لحظة لم يلبثا أن يذهبا معاً ، إلى غير رجعة ، وقد خلفا فى عينيك دمعة ، وفى قلبك حسرة ولوعة ! وما بذلك يلذ طعام ولا شراب .

---

(١) كتاب الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، ص ٧١ للأستاذ الألبانى .

(٢) سورة المائدة ، الآيتان ٨٧ و ٨٨ (٣) رواه البيهقى والترمذى .

(٤) لفظ الترمذى عن ابن مسعود : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (لا يزول قدما ابن آدم حتى يسأل عن خمس) وذكرها ، وصححه الترمذى . بشواهده .

ولقد كان الرجل المؤمن لا يغادر داره إلى عمله حتى تقول له زوجه : إياك والحرام ، فإننا نصبر على الجوع فى الدنيا ولا نصبر على عذاب الله يوم القيامة ! .. فهل قالت لك ذلك شريكة الحياة يوماً ؟!

وكم أتمثل رجالا يتسمون بأمجد أسمائنا ، وينتسبون إلى أكرم أسرنا ، وبعضهم فى مقام الإمامة والفتيا منا ، ولهم من شريف المكاسب ما يدعو إلى القناعة والعفة وإيثار بركة الله، ولكنهم يمضون فى سباق مجنون مع الدنيا، ويتوسلون إلى المال بما لا يحسن من فعال ، وقد يغنى التلميح عن التصريح .

فنهم من يأكل الدنيا بالدين ، ويضع علمه فى المزاد لتبرير باطل المبطلين ، ويوضع ظلماً وعدواناً على كواهل المسلمين ! ومنهم من يعرف أبواب سفارات الأعداء، ومنهم من يساوم بمركزه على الحطام ومنهم من يتقاضى أجور أعمال لم يحرك فيها يداً ، ولاقدماً ، ومنهم من يجعل داره مباءة يرتادها الفجرة، ويستطيلون بذلك على حرمات بيوت الناس ودور العبادة ، وبينهم من يقيم دور اللهو ، ومحال بيع المحرمات إلى جوار المساجد ، وفى وسط الأحياء التى كانت إلى قريب آمنة من هذا الرجس، طاهرة من ذلك الدنس ، ألا يعلم هؤلاء وأولئك أن الناقد بصير ، وأنه عليم بذات الصدور ؟! ألا يخشون مثل قارعة أصحاب الفيل ؟!

« ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ◦ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ◦ وأرسل عليهم طيراً أبابيل ◦ ترميهم بحجارة من سجيل ◦ فجعلهم كعصف مأكول » .

إلى الكسب الحلال ، ففيه هدى من ضلال لمجتمع اختلط فيه الحق والباطل ، وتداخلت حدود الحلال والحرام ، فلن يأكل أحد ما جمع ، ولن يغنيه من عذاب الله ما خالف فيه أمر مولاه .

« قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ »[1] .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٠٤

لا تمروا بآيات الله ذاهلين

ينحى الله بالملامة على أقوام لا يقرأون كتاب الكون المفتوح ، ولا تعظهم عظات الحياة الناطقة ، ولا تذكرهم بالله ، آياته المجلوة فى الأنفس والآفاق ، فلا يحجبها عن الأعين والآذان والحواس كلها حجاب .

قال الله تعالى : « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون »(1) .

ولقد كان أسلافنا ، رضوان الله عليهم ، ينظرون فى أنفسهم ، ويتدبرون ما حولهم ، ويفهمون عبر الله ومراداته من خلقه وكونه وآياته ، وكأنما يشاهدون الغيب من وراء ستر رقيق .

فإذا نادتهم آية من آيات القرآن الكريم أدنوا إليها بقلوبهم ، وإذا أمرتهم بخير كانوا أسرع إليه من رجع الصدى ، وإذا نهتهم عن شر استعاذوا بالله منه ، وكفوا جوارحهم عنه ، وأين نحن من سلفنا هؤلاء ؟!

إن الإسلام الذى بهر ألبابهم هو الذى ننتسب — والحمد لله — إليه .

وإن تراث محمد عليه الصلاة والسلام هو الذى نجتمع مع أوائلنا عليه .

وما تزال الآذان والأبصار والألسنة تسمع وتبصر وتتكلم !

وما تزال عقولنا تعى ما ينفع وما يضر ، وتدرك ما يسوء وما يسر .

فكيف لا نستقيم على نهج الإسلام وفيه شرف الدنيا وعز الآخرة ؟!

* * *

إن الرياح قد تثور ، والسماء قد تبرق وترعد ، والمطر ينهل غزيراً مدراراً ، كأفواه القرب — أو كأنما خرق فى السماء خرق — كما يقولون فى بلاد الشام ! وهى ظواهر طبيعية تحدث الآن ، كما حدثت منذ كان الإنسان ، وإنها لدليل لا يدفع على

---

(1) سورة يوسف ، الآية ١٠٥

الله ، وحده هو القاهر فوق عباده ، وأنه وحده هو الذى يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء عمن فزع إليه وناجاه .

« ألم تر أن الله يزجى سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً ، فترى الودق يخرج من خلاله ، وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء ، يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴿ يقلب الله الليل والنهار ، إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار »[١] .

.. فهل تنطق ألسنتنا ، أمام هذه الظواهر ، بذكر ، أو تنفرج عن تسبيح ، أو تتحرك قلوبنا بعبرة ؟!

لقد تسمع فى السيارات والشوارع ومحال البيع من يقول — وقد منع المطر السير — الله يكثر الخير ، كلمة ترددها ألسنة لا تنطق عن قلوب ذاكرة ، وأفئدة لربها شاكرة ، ولكنها كلمات تقال ، والشهوات والآثام لا تتوقف !

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال : (اللهم إنى أسألك خيرها ، وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها ، وشر ما فيها ، وشر ما أرسلت به)[٢].

وأدب الرسول صلوات الله عليه ، المؤمنين ، فقال كما روى أبو هريرة : (الريح من روح الله تعالى — رحمته — تأتى بالرحمة ، وتأتى بالعذاب ، فإذا رأيتموها فلا تسبوها ، واسألوا الله خيرها ، واستعيذوا بالله من شرها)[٣].

وكان صلوات الله عليه ، يقول : (اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً) ، وهو يشير إلى منهج القرآن فى ذكر الرياح مجموعة غالباً فى سياق الخير والإنعام ، وذكر الريح مفردة فى سياق الغضب والانتقام .. قال تعالى :

« ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته »[٤].

وقال : « وأرسلنا الرياح لواقح ... »[٥].

---

(١) سورة النور ، الآيتان ٤٣ و ٤٤

(٢) رواه الترمذى عن أبى بن كعب وعنعنه .

(٣) رواه الشافعى وأبو داود وابن ماجه والبيهقى فى (الدعوات الكبيرة) .

(٤) سورة الروم ، الآية ٤٦ (٥) سورة الحجر ، الآية ٢٢

وقال « وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ، ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم »(١).

وقال : « إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر »(٢).

وكان النبى صلوات الله عليه ، إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال : (اللهم لاتقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك)(٣).

ويقول : (سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته)(٤).

وكان أحد الصالحين إذا أرعدت السماء وأبرقت ناجى ربه فقال : (اللهم قد أريتنا غضبك فأرنا رحمتك) ! !

* * *

وكان الرسول إذا أمطرت السماء قال : (اللهم صيباً نافعاً) يكرر ذلك(٥).

وأوصى أصحابه بالدعاء ، والمطر ينزل ، فذلك أرجى للاستجابة .

ولقد قام يخطب المسلمين يوم جمعة ، فدخل المسجد رجل فقال : يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يغيثنا ، فرفع الرسول يديه ثم قال : (اللهم أغثنا) .. ثلاثاً .

قال أنس : والله ما نرى فى السماء من سحابة ولا قزعة — سحاب متفرق — وما بيننا وبين سلع (الجبل المعروف قرب المدينة) من بيت ولا دار ، فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس ، فلما توسطت السماء ، انتشرت ثم أمطرت ، فلا والله ما رأينا الشمس سبتاً — أى أسبوعاً — !

ثم دخل رجل من ذلك الباب فى الجمعة المقبلة ، ورسول الله قائم يخطب ، فقال : يا رسول الله ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع الله يمسكها عنا . فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه ، ثم قال : (اللهم حوالينا ولا علينا ، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر) .

(١) سورة الذاريات ، الآيتان ٤١ و ٤٢ (٢) سورة القمر ، الآيتان ١٩ و ٢٠
(٣) رواه الترمذى ، وأحمد ، وهو فى الموطأ .
(٤) رواه الترمذى . (٥) رواه أحمد والبخارى والنسائى .

قال : (فانقلعت وخرجنا نمشى فى الشمس) .

قال شريك — راوى الحديث — فسألت أنساً : أهو الرجل الأول قال : لا أدرى(١)

هكذا كانت تثير ظواهر الطبيعة فى الرسول الكريم ذكره الله ، والتماسه خير ما فيه ، واستعاذته من شر ما فيها ، فهو وحده الذى يسيرنا فى البر والبحر . وهو وحده يفتقر إليه كل من سواه :

« يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد .. »(٢).

واقرأ ذكره — صلوات الله عليه — لله — كلما رأى الهلال ، أو لبس ثوباً جديداً ، أو أخذ فى سفر أو عاد منه ، أو ركب دابة ، أو عثرت به ، وعند دخول المنزل ، وعند رؤية مولود ، أو بدوّ التمر ، وعند الزواج ، وعند قضاء الحاجة ، وعند انتهائه من الغسل والوضوء ، وعند الأكل والشرب ، والقيام من المجلس .. وما وصى به أصحابه إذا خافوا أمراً ، أو دخلوا على من يخشون منه ضراً .. إلى ما وراء ذلك .

ففى كتب السنة من ذلك ما يبين لنا بعد ما بيننا وبين نهج الذاكرين لله الذى نغدو ونروح فى أنعمه ولا نستغنى طرفة عين عن رحمته .

وذكر الله زيادة فى الخير ، وأمان من كل شر ، وهو حصانة من الهوان ، وصيانة من الشيطان ، وكيف يحذره الذاكرون بعد أن قال الله سبحانه : « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون »(٣).

وصدق الله العظيم : « إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون »(٤).

« فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ... »(٥).

وأذكر هنا قصة الشيخ الذى ضرب لتلميذه مثلا . فقال :

ماذا تفعل إذا كنت فى بعض سفرك فقابلك قطيع من الغنم ونبحك كلبه ؟

قال : أرفع له العصا . قال له : إنه قد يرعوى ثم يعود فينبحك ، فماذا تفعل ؟

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) سورة فاطر ، الآية ١٥
(٣) سورة الأعراف ، الآية ٢٠١
(٤) سورة النحل ، الآية ١٢٨
(٥) سورة البقرة ، الآية ١٥٢

قال : العصا .. فقال الشيخ : ذلك أمر يطول ، ولو أنك من أول أمرك استعنت بالراعي لرد عنك كلبه وواصلت سفرك آمناً .

وكذلك المرء مع الشيطان ، لا يستطيع رده بحوله وقوته حتى يلجأ إلى الله فيظهره عليه !!

ولقد كنت أتحدث إلى صفوة من الأصدقاء فى بيروت منذ سنين ، فذكروا لى من فساد المجتمع ، وخفة الوازع الدينى ، وشيوع الغفلة عن الله ، صوراً عجيبة ، وذكرت لهم الزلزال الذى روع لبنان من أعوام ، وكيف أذهل الرجال والنساء والأطفال ، حتى خرج النساء من ذهولهن شبه عاريات ، وظن أولئك جميعاً أنها القارعة ، ثم لم تلبث رحمة الله أن تداركتهم ، فعادوا إلى شهواتهم وتظالمهم ، ولو أنصفوا لبقى هذا النذير المسمع باقياً فيهم يذكرهم بالله ، ولا يمرون أمام آياته ذاهلين :

والزلازل والبراكين تقدح المجتمعات حيناً بعد حين ، وليس شيء من ذلك بسرّ ، وما زلازل إيران — أخيراً — ولا سيول بنجلاديش وغيرها فى أمريكا ، ولا (تشير نوبل) فى روسيا ، ولا عدوان زعيم يزعم أنه عربى مسلم قرشى على دولة عربية مسلمة جارة للعادى الآثم وأهلوها نيام فى سحر ليلة من ليالى رجب الحرام . وساء ما صنعوا !!.

أيها الناس .. اقرأوا كتاب الكون المفتوح ، فويل للذين لا يتدبرون ، وإذا ذكروا لا يذكرون :

« سيذكر من يخشى ۝ ويتجنبها الأشقى ۝ الذى يصلى النار الكبرى ۝ ثم لا يموت فيها ولا يحيا »[1].

---

(١) سورة الأعلى ، الآيات ١٠ – ١٣

اجتثوا جذور الشرور

يوجب الإسلام أن نتدبر الأحداث التى تمر بنا ، وأن ننظر فى عواقب الأمور قبل أن تفاجئنا بما لا نحتسب ، وأن لا نقنع من قضية من القضايا بمجرد النظر فيها ، ومتابعة الحديث عنها — كما يفعل الفارعون — دون الرجوع إلى أسبابها الأولى ، وتعرف منابعها الأصلية .

فالسبيل الأهدى للعلاج والإصلاح أن نجتث جذور الشر ، وأن نأتى على بنيانه من القواعد ، غير وانين ولا مسوفين .

وما أكثر ما تلوكه الألسنة من مآس خلقية تضاعف الأسى واللوعة والإشفاق على الأسر الكريمة ، والنشء العزيز ، أن يتسرب إليهما من ذلك شر كثير أو قليل .

والعقلاء يرتادون لأنفسهم وأسرهم وذراريهم موارد الكمال والأمن والعافية ، فى المنازل والمجتمعات التى يترددون عليها ، والمدارس التى يذهبون إليها ، وفى هذه الكتب والجرائد التى تنفعل بها نفوسهم ، وتملأ إيحاءاتها المتنوعة رءوسهم ، وفى هؤلاء الأصدقاء والخلطاء الذين ربما كانوا أعود بالضرر عليهم من الوباء الفاتك ، ورحم الله عبد الله بن عمر فقد قال : (إن شيطان الإنس أشد علىّ من شيطان الجن ، فإنى أستعيذ بالله من شيطان الجن فيعيذنى منه ، وشيطان الإنس يجيئنى فيجرنى إلى المعاصى جراً) !

.. ولكننا غفلنا عن هذه المنابع جميعاً ، فأبحنا الاختلاط الذى خالفنا به ديننا ، وقلدنا به غيرنا ، ولم يعظنا قول رسول الله صلوات الله عليه : (ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما)(١).

وقوله صلى الله عليه وسلم لفاطمة : (أى شىء خير للمرأة) ؟

قالت : أن لا ترى رجلا وأن لا يراها رجل ، فضمها الرسول إلى صدره وهو يقول : (أنت بضعة منى يا فاطمة) .

(١) رواه عمر وأخرجه الترمذى بإسناد صحيح .

وفى الأثر : (باعدوا بين أنفاس الرجال والنساء ، فإنه إذا كانت المعاينة واللقاء كان الداء الذى ليس له دواء)(١).

وأى داء أدوأ من انثلام العرض ، ومزايلة الشرف ، الذى لا يعود بحال إلى من جاوزه طرفة عين ؟!

والاختلاط — كما هو الآن — فرص يتهقه فيها الشيطان ، ويبيض فيها الشر ويفرخ ، والواقع يكذب دعوى القائلين بأنه يهذب الغرائز ، ويكسر من حدتها وثورانها ، فما أشبه غرائز الرجل والمرأة ، حين يخف الوازع الدينى ، وتنعدم الرقابة .. بالطبيعة . فكما تثور الطبيعة فتحطم السدود والحواجز ، تثور الغرائز تماماً ، وتنطلق ، ويقع المحظور والعياذ بالله .

وسمحنا للسينما والمسرح أن تحفرا فى العقول حفراً وأخاديد ، لا يملؤها غير التردد عليها ، ومشاهدة مافيها من مناظر وما فيها من أغنيات وأفكار ، تزعج الفضيلة ، وتزعزع فى المؤمن خلق الحياء (والحياء شعبة من الإيمان)(٢).

.. وحملت الإذاعات إلى منازلنا المسلسلات الهازلة ، والأغانى النازلة ، وراح شبابنا يرددونها فى كل وقت وحين ، ويا رحمة الله على الأيام التى كان أمثالهم فيها — قبل انتشار هذه الإذاعات — يرددون آيات من القرآن الكريم ، وأبيات من غرر الشعر ، وطرائف من الأدب الجياش بمعانى الوطنية ومعانى الأمور ..

وكم نعين على فساد الجيل باسم الثقافة الجماهيرية ودعوى رفع الأذواق بأساليب الترفيه التى لا تتقى الله ، والهدى هدى الله .

ولقد تسللت إلى مخادع بناتنا وأبنائنا ، جرائد ومجلات ، لا يتقى الله كتابها ومحرروها فيما ينشرون من غث الأفكار ، ورث المعارف ، وقبيح الصور ، وقضايا الجنس ، التى يزعمون أن فى دراستها علاجاً ، وما هى فى حقيقة الأمر إلا إشاعة للهوى ، وتحريض على الفجور (وفاقد الشىء لا يعطيه) !

وهل يجنى من الشوك العنب ؟!

---

(١) اقرأ تفصيل ذلك فى كتابى (الإسلام والأسرة) .
(٢) متفق عليه ، رواه أبو هريرة .

.. ولقد كان الآباء يرصدون نضج البنات والأبناء ، واكتمال نموهم ، فيختارون لهم فور ذلك شركاء الحياة فى غير إسراف فى المهور ، إلى حد الإعجاز . وكانت النتيجة أن اكتظت بالبنات البيوت ، وانصرفت كثرة كاثرة منهن إلى الاحتراف ، رغبة فى المال الذى يلفت إليهن الأعناق ، أو طلباً لشغل الفراغ الرهيب من حولهن حتى يتقدم منهن ذووا المال أو فتى الأحلام والخيال ، وربما امتدت فى ذلك الانتظار الأنظار ، وانطلقت الأفكار ، واتجه الذين عجزوا عن المهر الكبير إلى الطرق الملتوية التى تستهوى الشباب ، وتستدرجهم بوسائل ووسائل إلى مالايكرم !

ولا نعيد هنا ما قررناه فى (الإسلام والأسرة) من إثم الآباء الذين يردون طالب الزواج من أجل قلة ماله ، وعليهم إثم هذا الشاب وأمثاله ، الذين يجدون الأمينات العفيفات فى بنات أسر شريفة ،وليت الشباب لا ينظرون إلى الزواج كأنه صفقة تجارية !

* * *

لقد أتينا من الجهل بالإسلام ، الذى عالج مشكلاتنا جميعاً ، ومن خفة الوازع الدينى ، ومن انعدام القدوة الطيبة فى الأسرة ، ومن الموازين الخاطئة فى الزواج ، ومن استعارة بعض الآداب والتقاليد من خارج بلادنا وبيئاتنا ، ما أبعد بيننا وبين الله الشقة ، ولكن الله تعالى ما يزال ينادينا ، بقوله لرسوله :

« قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ، وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له »(١).

.. وفينا ، والحمد لله ، أفراد وأمم تنفعها هذه الرحمة الإلهية ، وتعظها النذر الواقعة فى الغرب والشرق ، فهى ترجع إلى منابع الأحداث ، وتأخذ لها العلاج من دينها ، وتسمع وتطيع إلى قول الله .

« يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم »(٢).

---

(١) سورة الزمر الآيتان ٥٣ و ٥٤ (٢) سورة الأنفال ، الآية ٢٤

اتقوا الله فى شبيبتنا

تطالعنا صحف يومية ومجلات أسبوعية ، وجامعية — أحياناً — بأفكار مسعورة وأقلام مأجورة ، تقبح الإسلام والدعاة إليه ، فى قحة واستعلاء ، فالإلحاد عندهم سعة أفق وتجديد ، والتدين رجعية وجمود ، والقرآن والسنة — وهما الدائرة التى ينطلق بين جوانبها طلاب العيش الرغيد والآخرة الحميدة — من القديم ، الذى ينبغى أن يسدل عليه الستار ، لأنه يجافى التطور ، ولا يلائم روح العصر ، وهؤلاء الذين يذيعون فى الناس آداب الإسلام ، ويذكرون بهداياته ، ويلفتون البصائر بالحكمة والموعظة الحسنة إلى مواطن الأسوة فيه ، هم عوائق عن اللحاق بركب المدنية ، وهم — بزعم هؤلاء — العقاب التى تحول دون التقدم !

.. ولو أن هؤلاء الذين يتصايحون بهذا اللغو ، ويثرثرون بيننا بتلك الأفكار الحاطمة ، لم يفتروا بها الكذب على الإسلام ، لهان الأمر ، ولكنهم نبذوه بهذا الذى زعموه ، وادعوا أنهم ينفذون إلى روح الدين ، وحكمة التشريع كما لم يدرك ، الذين خلطوا أنفسهم منذ الطفولة الباكرة به ، وواصلوا التنقل بين رياضه وموائده ، يوم كان لأمثالهم موائد ورياض لانصفها هنا ، ثم لم يزعموا — كالفارغين والفارغات — أنهم سبروا أغواره ، ووقفوا على أسراره ، وبلغوا غايته ومداه !

وقديماً طامن الله سبحانه من غرور أقوام ، فقال : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »[1] . وقال : « وفوق كل ذى علم عليم »[2].

أستعرض — وأنا أكتب هذه السطور — خليطاً من أفكار رجال يتطفلون على موائد البحوث الإسلامية ، وفيهم من لا ينتسب إلى الإسلام ممن تكل إليهم بعض الحكومات الدراسات الإسلامية فى جامعاتها ومدارسها ، وأبادر فأعلن أن البحث ليس وقفاً على طائفة ، وأنه لا حجر فى الإسلام على العقول ، ولكن الذين لا يبيحون للطبيب أن يؤدى عمل المهندس ، ولا للمهندس أن يؤدى عمل الطبيب ، ولا لكليهما

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥ (٢) سورة يوسف ، الآية ٧٦

أن يضيفا إلى القانون المدنى أو يحذفا منه شيئاً ، كيف يبيحون لمن لم تتوفر لهم وسائل البحث فى الدين ، تناول مسائل منه لابد من التخصص فيها ، والتجرد لها عن الأفكار الخاصة ، واستهداف الخير ، واصطحاب تقوى الله مع ذلك كله : (فنور الله لايهدى لعاص) كما قال الإمام الشافعى ..

وما أكثر الذين روجعوا — من غير المسلمين — فيما كتبوا ، فاعتذروا بقلة المراجع والله أعلم بنياتهم ، على حين يتوقح بعض الكتاب الذين يحملون أسماء إسلامية ، ويصرون على باطلهم ، ويحسبون أن لهم حصانة تعصمهم من الرد عليهم ، « فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أم من يكون عليهم وكيلا »(١).

يريد هؤلاء الكتاب أن يبرروا للشباب نزواتهم وشهواتهم ، لينطلقوا مع الوجودية إلى التبرم بالأخلاق ، ومواصلة تشكيك الأمة فى دينها ، وفصلها عن ماضيها ، وكأنهم جهلوا أنه لا قوام لأمة تكرم نفسها ، إلا بالأخذ بهذا الذى يحرج صدور الآثمين من سيادة الدين ووصاية أحكامه ، والتماس القدوة بين رجاله الأولين ، والحرص على كبح جماح الأفراد والجماعات به ، حتى لايضلهم الهوى عن صراط الله « ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله »(٢).

إن انعدام التوجيه فى المنزل ، وضآلة حظ التربية الإسلامية فى المدرسة ، وتلوين التفاهات الفكرية والمصورة التى تسوِّد بعض الصحف والمجلات ، وغيرها من المفاسد التى اقتحمت المنازل ، وأذهلت الأسماع والأبصار فى المجتمعات ، وفى الأسواق ، مسئولية كاملة عن وقوع الشبيبة فريسة طيعة لأولئك الذين مردوا على النفاق ، وذرفوا دموع التماسيح إشفاقاً على الشباب المراهق من إلحاح غرائزه الدنيا ، كما فعل فلان وفلان .

ونحن نهيب بالآباء ، وهم الذين استرعاهم الله أبناءهم ، كما فصلت ذلك فى كتابى (الإسلام والأسرة) وفى فصول سبقت من هذا الكتاب .

ونهيب بالمدرسة ، وهى الأمينة معنا على أفلاذ أكبادنا !

وبالدول ، والشباب معقد رجائها فى الغد القريب !

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٠٩ (٢) سورة القصص ، الآية ٥٠

أن يخططوا للشباب العزيز حاضرهم ، ومستقبلهم ، وأن يضاعفوا الجهد لتبصيرهم بالجادة ، وتثبيت خطاهم على الصراط السوى ، فبمقدار ما نغرس فى نفوسهم من الفضائل ، وننشئهم على معرفة الله وحبه ، يزكو فيهم حب الوطن ، والبذل فى سبيل رخائه وازدهاره وأمنه واستقراره .

والغد — لا ريب — للذين يؤدون زكاة الشباب ، ولا مجال فيه لمن جروا وراء التافه من الشئون ، وتعلقوا بالعمل الدون ، وراحوا — كما يفعل بعض الشباب اليوم — ينشرون سمومهم فى صحف ومجلات ، وكتب عنوانها نساء عاريات وفى أوضاع أخرى ، وأسماء تتملق الغرائز وتثير نفرة الكرام !

وما أسرع ما تنقضى فرصة الشباب ، وما أوخم ما تدع من لهفات وحسرات على أنها لم تخلف خيراً . ولكن الذين خالطت بشاشة الإيمان قلوبهم من الشباب ، ونظروا بعين الله إلى الجد والهزل ، والخير والشر ، وانتحوا بمعالى الأمور عن سفسافها جانب الحياة الطيبة ، هم أولئك الذين مدحهم الله فى أكثر من موضع فى كتابه ، وأنزلهم الرسول منزلهم بين الإمام العادل والرجل المعلق قلبه بالمساجد فى حديث (سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله)[١] .

وأين من هذه الصفوة الكريمة ، هؤلاء الذين يلقوننا — مسلمين وغير مسلمين — فيثيرون جدلا دائماً ، حول القدر والجنة والنار ، وعذاب القبر ، والسموات والأرض. وأين هى ؟ وهل الإنسان مسير أم مخير ؟ وما هو الدليل على وجود الله ؟ ! وعن الفن والسياحة و.. و ..

وكم نفسح جوانب الحلم لهؤلاء السائلين ، ونترفق بهم ، ونحن نطارد ما سيطر عليهم من أفهام وأوهام ، وولوع بالجدل العقيم ، وترديد كلام فلان وفلان من أحقاد الذين قالوا « قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب »[٢].

وسنظل ، ما استمسك القلم فى أيدينا ، وانفرجت الشفاه عن ألسنتنا ، نبدد شكوك الشاكين بأنوار الإسلام ، أو يبدو الملثمون على حقائقهم ، والدول مرجوة أن تتيح فرص النشر والإذاعة للمصلحين الذين لايملكون ما يملك الهادمون منها .. والإسلام

---

(١) رواه البخارى والترمذى والنسائى .

(٢) سورة فصلت ، الآية ٤

برغم هذا النقيق الذى يتصل على شطآنه ، باق فى رعاية الله ، ورعاية أقوام « يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم »(١) .

فكن الديدبان الحارس للإسلام ومقومات السعادة به ، وللشبيبة التى يقول فيها الرسول : (إن الله سائل كل راع عما استرعاه ، حفظ أم ضيع ، حتى يسأل الرجل عن أهل بيته)(٢).

واتقوا الله فى الشباب .. يامن تتابع مؤتمراتكم داخلياً وخارجياً باسم (الطفولة) حيناً ، واسم (الشباب) أحياناً ، واجعلوا هدايات الإسلام — قرآناً وسنة — وتاريخ النشء والشباب الذين تدرجوا على مدارجه ، وأخذهم الأسلاف بمناهجه ، على رأس ما تريدونه للجيل الصاعد من برامج ومناهج « وإن الله لمع المحسنين » .

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٥٤ (٢) رواه البخارى والترمذى .

الى رجال الغد

الشباب هو زهرة العمر ، وربيع الحياة ، وفرصته التي يعدو فيها الفتى ويروح فى أكناف السلامة والعافية ، إليه يطول تلفت النفوس وتمنيها ، ويتصل شوقها وحنينها .. نجد ذلك من أنفسنا ، ونراه فى استبشار هؤلاء الذين يجرى فى عروقهم دم الشباب حاراً دفاقاً ، وآباؤهم يبدون لنا صوراً من تلهف العربان بن الهيثم ، حين سأله عبد الملك بن مروان : كيف نجدك ؟

فقال : أرانى وقد ابيض منى ما كنت أحب أن يسودّ ، واسود منى ما كنت أحب أن يبيض ، واشتد منى ما كنت أحب أن يلين !

ثم قال :

دعنى أنبئك بآيات الكبر　　نوم العشىّ ، وسعال بالسحر
وقلة النوم إذا الليل اعتكر　　وقلة الطعم إذا الزاد حضر
وسرعة الطرف وتحميج النظر　　والناس يبلون كما تبلى الشجر !

ونسمع صدى ذلك من قديم فى شعر الشعراء وحكمة الحكماء فى مثل قولهم :

إن الشباب الذى مجد عواقبه　　فيه نلذ ، ولا لذات للشيب

ويقول آخر :

ألا ليت الشباب يعود يوماً　　فأخبره بما فعل المشيب

والشبيبة هم أمل الأمم ، ومعقد رجاء الشعوب ، نعدهم للغد القريب ، وندخرهم لساعات الشدة ، ومواقف الخطر واجتناء الثمر ، ليجددوا بحيويتهم ما وهى من قوتها ، ويبلغوها بمواهبهم ما هى أحق به وأهله من سيادة ورفعة وكمال !

ولقد كرم الله الشباب فى أقدس كتاب ، وامتدح استجابتهم للحق ، وسبقهم إلى الإيمان ، وإبائهم للذل ، الذى راض آباء كثيرون عليه أنفسهم ، ورضوا به حظاً . فقال تعالى : « فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ، وإن فرعون لعال فى الأرض وإنه لمن المسرفين »(١).

---

(١) سورة يونس ، الآية ٨٣

وقال ابن عباس : ما آتى الله عز وجل عبده علماً إلا شاباً ، والخير كله فى الشباب ثم قرأ قول الله تعالى : « إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى »(١).

وقال على لسان قوم إبراهيم : « سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم »(٢).

وقال فى يحيى : « وآتيناه الحكم صبياً »(٣).

وصلوات الله على خاتم رسله ، فقد وضع الشاب الذى نشأ فى عبادة ربه ، بين الإمام العادل والرجل المعلق قلبه بالمساجد فى السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله(٤) .

* * *

والشباب حقىّ بهذا التكريم ، ومثله معه ، حين يتخذون فى فورة شبابهم رقيباً عليهم من ضمائرهم ، يهيمن على غرائزهم ، ويوجه نشاطهم إلى ما يرفع ذكرهم بين أقرانهم ، ويعلى قدرهم ما امتد بهم العمر ، فلا يفلتون لحظة من أعمارهم النفيسة ، دون أن يؤدوا فيها عملا كريماً ، يقربهم من الأهداف العالية ، وصنيعاً رفيعاً يدنيهم من الآمال الغالية ، منتفعين ـ فى أوقات فراغهم ، بما يبهج أنفسهم من رياضة محببة ، وملح مشرقة ، ولهو برىء . فلقد صارع الرسول صلى الله عليه وسلم ، ركانة — مصارع العرب — بعد أن شرط أن يؤمن إذا صرعه محمد ، فصرعه محمد صلوات الله عليه مرات !

وسابق عائشة ، فسبقته أول عهدها بزواجه ، ثم سبقها حين كثر منها اللحم ، كما روى الشافعى .

وقال للمرأة التى سألته ، هل أدخل الجنة : (لا يدخل الجنة عجوز) ، ثم لم يلبث أن ردّ عنها روعها وهو يقرأ عليها « إنا أنشأناهن إنشاء ، فجعلناهن أبكاراً »(٥) .

وقال لأخرى : (زوجك الذى فى عينيه بياض) بعد أن دعته لزيارة زوجها دون أن تسميه أو تعرف به ! وفى البخارى : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح ولا يقول إلا حقاً) !

ومن الآثار الكريمة : (روحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإنها إذا كلت عميت) :

---

(١) سورة الكهف ، الآية ١٣ (٢) سورة الأنبياء ، الآية ٦٠

(٣) سورة مريم ، الآية ١٢ (٤) رواه البخارى والترمذى والنسائى .

(٥) سورة الواقعة ، الآيتان ٣٥ و ٣٦

ومن مأثورات علىّ رضى الله عنه : (إن النفوس تملّ كما تمل الأبدان ، فالتمسوا لها طرائف الحكم) .

ففى بارع النكات ، ورائق الكلمات ، وإرسال النفوس إلى ما تهوى فى غير إثم ، مع إخوة هم على سجيتهم من علو النفس ، ورقة الحس ، وتقوى الله ، تجديد لما فتر من قواها ، وحفز إلى مضاعفة نشاطها فيما تستقبل من أعمال ، وتواجه من تصرفات !

إن المستقبل البسام للشبيبة التى تعرف قيمة الشباب ، وأنهم إن كانوا اليوم أطفالا فسيكونون فى غد رجالا ، تصير إليهم أمجاد البلاد ومقدسات الدين والحياة ، والغد لهم إن أدوا زكاة الشباب ، وهو عليهم إن دعاهم الوطن للتهيؤ والاستعداد بالعلم والعمل ، فنكصوا على الأعقاب ، وما أتعس أمة تجرى شبيبتها وراء التافه من الشئون ، وتتعلق بالعمل الدون ، وتنسى رجولتها ، فيما تبدو وراءه من لين الأنوثة ، وتكسر الغانيات ، ولله در القائل :

لحـا الله صـعلوكاً منـاه وهمـه   من العيش أن يلقى لبوساً ومطعما !

وأين هؤلاء الكسالى الذين ترتعش أوصالهم دون عزائم الخير ، من الشباب الحر الأبى الذى يقتحم المخاطر ، ويخوض الصعاب مع العاملين ، لتكون أمتهم خير الأمم ، وهم يهتفون مع الأول :

لا صحـبت الحيـاة إن صحبتنى   فى الملمـات مهجـة تستضـام !

ورحم الله شوقى فقد قال :

قـل للحـوادث أقـدمى وأحجمى   إنا بنو الإقـدام لا الإحجـام
نحن النيـام إذا الليـالى سالمـت   فإذا وثبن فنحن غـير نيـام

* * *

لقد عرف تاريخ الإسلام شباب علىّ ، وأسامة بن زيد ، ومصعب بن عمير ، ورافع بن خديج ، وعمير بن أبى وقاص ، وسمرة بن جندب ، وابن عباس ، ووراء هؤلاء فى مكان الأسوة الحسنة شباب وفتيات وددنا لو راجع الأحفاد صحائف حياتهم ، يمضوا فى طريق الآباء أعزة كراماً ، تسمع لهم الدنيا من جديد وتطيع ، فما امتاز هؤلاء ببسطة فى الجسم ، ولا بوفرة مال ولا جاه ، ولكنهم سبقوا بالإيمان ، والعلم الذى يميز الخبيث من الطيب ، والهدى من الضلال ، فلا يراهم الله عز وجل إلا مع الطيب من

قول ، والخير من العمل ، والحق الذى قامت به السموات والأرض ، ثم لا يكون االلشر والضلال ، إلا غرضاً لعزائمهم ، التى لاتنى حتى تزهقه أو تهلك دونه !

فهل لشباب الإسلام فى شتى منازلهم ، أن يأخذوا درساً فى البطولة من رافع بن خديج ؟ ! فلقد وقف على أطراف قدميه كى يبدو كبيراً ، مخافة أن يرده الرسول عن أحد ! فلما سأله النبى : ماذا تحسن من فنون القتال ؟ قال : الرمى ، فقبله صلوات الله عليه .. ودرساً آخر يجلوه لهم سمرة بن جندب ، فإن رسول الله ردّه يوم أحد ، فبكى ، وقال : يا رسول الله ، قبلت رافعاً وتردنى ولو صارعنى لصرعته ، وأذن النبى لها فتصارعا ، وغلب سمرة ، ومضى بعمله — لا بشفاعة الشافعين ولا جاه الأقربين — إلى صفوف أحد ! .

يا شباب الإسلام .. على أى شىء تدافع بالمناكب هؤلاء ؟ !

إنه الجهاد فى سبيل الله ، إعلاء لكلماته ، ونصراً لحقه ، وحرصاً على الشهادة فى ذلك . ولن نستعيد مجدنا التليد ، إلا بمثل هذه الأرواح الكبيرة ، وعلى أيدى شباب مؤمن يتخرج فى مدرسة هؤلاء الخالدين ، الذين تعلموا وعملوا ، فكان العلم والعمل جوازهم إلى ذيوع الشأن ، بين الآباء والأقران ، وفى كل زمان ومكان !

وكان علم ابن عباس — لاحسبه الزاكى — هو طريقه إلى تقدير أبى بكر وعمر ، وتقديمه فى مواقف على مشيخة المهاجرين والأنصار !

وما زالت الأجيال تروى ، بإجلال وإكبار ، مقالة الفتى ، الذى كان على رأس وفد الحجاز فى تهنئة عمر بن عبد العزيز بالخلافة .

فلما هم الغلام بالكلام بعد أن فوض إليه القوم ذلك ، قال الخليفة : ليتكلم من هو أسن منك . فقال الفتى : يا أمير المؤمنين .. لو كان الأمر بالسن لكان فى المسلمين من هو أولى منك بالخلافة ! ولكن الله إذا رزق العبد لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد استوجب التوقير والإكرام .

فاسترضاه الخليفة ، وأنشد :

تعلم فليس المرء يولد عالماً — وليس أخو علم كمن هو جاهل
وأن كبير القوم لا علم عنده — صغير إذا التفت عليه المحافل !

والحق أن الشبيبة تلقى اليوم فى البلاد الإسلامية رعاية خاصة ، ودراسة عميقة لشغل أوقات فراغها ، مما يكسبها الصحة والنشاط ، ويوسع مداركها ويمد فى آفاق ثقافتها ، والأمل أن يكون للتوجيهات الدينية ، والحث على التزام الفضائل الإسلامية ، فى غدو هذه الشبيبة ورواحها ، نصيب كبير .

وإنى لأرثى لكثير من الشباب المرجى المؤمل .. فلقد فتنته عن دينه ومواريثه واردات الغرب ، وبلبلت فكره دعايات إباحية مسمومة ، يذيعها بكرة وعشية ، فيهم ، مفتونون كبار ، وصحافة معروفة فى الشرق ، بأغراضها الهادمة للفضائل والآداب وطمس العقائد الدينية ، ليصير الأحياء قطعاناً لا يردها عن غيها رادع من عقل ، ولا يزعها وازع من دين ! ولا اعتبار بمصاير الآثمين .

ولن نسكت عن التذكير والنذير ، ولن نريق المداد ، أو نحطم الأقلام يأساً من إنقاذ شبيبتنا مما خدرها وسيطر على عقولها ، وسنظل ندعوهم إلى الدين والعلم الصحيح الذى يرفع الأقدار .

« يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ، والله بما تعملون خبير »(١).

فبالدين والعلم يأمن الجيل من فتن الأعداء ، وخصوم الإسلام ، وقد بقى الشرق بالإسلام ردحاً من الزمان ، أستاذ الدنيا كلها ، تأخذ عنه وتفيد منه ، فلما رنقت الغفلة أجفانه ، أفلت الزمام من يده ، وتلقفه الغرب الآخذ بمخانق الحياة ، الزاعم أنه أبو الحضارات ، وحامى الحريات ، ونصير الضعفاء .. وهيهات !

فهل عرف الشرق والغرب للإسلام سبقه وحقه وأستاذيته ؟ !

* * *

يا شباب الإسلام .. إن بشائر يقظة الشرق تشيع الثقة فى غد مشرق للإسلام والمسلمين ، وغد الإسلام فى ذلك ينبغى أن يكون كأمسه المسفر ، يجد فيه الناس على اختلاف أديانهم ومعتقداتهم الأمن والرخاء والنصفة والعدل .

فتواصوا ياشباب بالحق ، وتواصوا بالصبر على تحصيل ما ينفع من العلم ، وأضيئوا أقباس الإسلام فى كل مكان ما استطعتم ، ولا تدعوا دينكم كلما اتجهتم يميناً أو شمالا فى جوانب الحياة .

---

(١) سورة المجادلة ، الآية ١١

فالدين سـلوى النفس من آلامهـا وطبيبها من أدمـــع وجـراح

وإياكم وهذه الأفكار المسعورة ، وهذه الأقلام المأجورة ، التى تسمى الأشياء بيننا بغير أسمائها ، فما أكثر ما سمت المروق من الدين تجديداً ، وسمت التدين رجعية وجموداً ، وحذرت من القرآن والسنة ، زاعمة أنهما من القديم الذى لا يوائم التطور وروح العصر ، وحاسبة أنها تستطيع أن تخفت صوت الله ، الذى تكفل بحفظه فى قوله : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[1].

وكونوا بين من لحظهم الصادق الأمين وهو يقول : (ولا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله)[2].

أعزكم الله بالإسلام يا شباب ، وأعز بكم الحق وأهله ، وبصرنا وبصركم طريق الخير ، آمين .

---

(١) سورة الحجر ، الآية ٩

(٢) رواه عمران بن حصين وهو عند أبى داود روايات أخرى عن أحمد وغيره .

الاسلام والسلام

قالت الصحف العربية فى يوم الأربعاء ١٣ / ٩ / ١٩٦١ :

حكم على الفيلسوف البريطانى برتراند راسل ، وهو فى التاسعة والثمانين من عمره ، أمس ، وعلى زوجته ، بالسجن لمدة شهرين ، لكل منهما ، مع غرامات كثيرة ، لأنهما رفضا أن يتعهدا بالتخلى عن حملتهما المعادية للأسلحة الذرية .

ثم خفف الحكم على (راسل) إلى سبعة أيام بعد أن ووجه القاضى بشهادة طبية بحالته .. كما حكم على أعضاء من (لجنة المائة) وهى المنظمة المعادية للأسلحة الذرية ، بأحكام تتراوح بين شهر وشهرين . وتعالت الصيحات فى المحكمة : يا للعار ، يا للعار أيها الفاشيون .

والتهمة التى حوكموا عليها ترد نى إلى كلمة يرددها الملايين فى شرق الأرض وغربها : ترديد الببغاوات :

(... وفى الناس المحبة وعلى الأرض السلام) .

ولو أن قائلها عاصر محاكم الحضارة لفعلوا به الأفاعيل ، أو لحكموا عليه كما حاكموا أعضاء (لجنة المائة) فى أقل القليل .

والتهمة تذكرنى بقول الشاعر :

إذا محاسنى اللائى أدل بها — كانت ذنوباً ، فقل لى كيف أعتذر ؟!

إنها (تهمة) تحريض الجمهور على ارتكاب أعمال تخل بالسلام ! ! ! يوم الأحد ، بتنظيم مظاهرة جماعية ، والجلوس فى الطرقات ، احتجاجاً على الأسلحة الذرية .

هذه أعمال تخل بالسلام — السلام المفترى عليه — أما سباق التسلح الجنونى ، وأما تعريض البشرية كلها للدمار ، وأما الحرب الباردة التى تزعزع الاستقرار ، وتزعج الأفكار ليل نهار ، وأما مؤازرة مثل إسرائيل فى جرائمها التى ترتكب

فى الأرض المقدسة على حساب مليون عربى ، وفى سطوها على الجولان ولبنان ، وتخطيطها بحلمها الطائش (من النيل إلى الفرات) . فليس تهمة يحاكم بهـا من يحاكمون الدعاة بأقلامهم وعظاتهم .. فمن بينهم بعض آبائهم من رجال الدين .

فإلى التعقل والإبقاء على الآمنين الوادعين أيها الكبار الصغار :

* * *

وفى الصحف العربية فى يوم الخميس ١٤ / ٩ / ١٩٦١

وجه (راسل) حديثاً من زنزانته إلى العالم ، قال فيه :

(إنكم ستفنون مع عائلاتكم وأصدقائكم وبلادكم بسبب قرار عام تتخذه قلة متوحشة من الأفراد ، ولكنهم أقوياء) ! !

والأفراد كما سماهم ، هم : (الرئيس الأمريكى كندى ، وخروشوف رئيس الوزراء السوفياتى ، وأديناور رئيس وزراء ألمانيا الغربية ، وديغول رئيس جمهورية فرنسا ، وماكميلان رئيس وزراء بريطانيا ، وجيتسكل زعيم حزب العمال البريطانى المعارض) ! وسلسلة مجرمين جاءوا من بعدهم وامتحنت بعض بلادنا الإسلامية بأشباههم.

* * *

والحديث الخطـير يبرز فى النفس عناصر السـلام فى الأديان السماوية التى تعاقبت على تدعيم الأخوة ، وشد عراها ، بالمحبة والتعاون ، وإتاحة فرص الرخاء للجميع ، لا بالعنف والقوة ودوافـع الأنانية الباغية . ودواعى (عبادة الذات) التى سولت لحاكم العراق أن يسطو على الكويت المسلمة التى أحسنت كثيراً إليه ، فجزاها جزاء سنمار والله غالب على أمره .

ومن المفيد أن نستعيد حوار الخير والشر من ابنى آدم لنعرف كيف يستطيل الضلال ويفجر ويدمر ؟ ! وكيف تمضى النفس السـمحة الرضية فى سـكينة المؤمنين ، لاتجاوز حدود حق ولا يتمعر وجهها بباطل ، وأنها تبقى كلمة طيبة فى الغابرين ، حين يذهب باللعنة من طغى وآثر الحياة الدنيا إلى أبد الآبدين .

قال تعالى : « واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق ، إذ قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، قال : لأقتلنك ، قال : إنما يتقبل الله من المتقين » لئن بسطت إلى يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدى إليك لأقتلك ، إنى أخاف الله رب العالمين « إنى

أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين ، فطوعت له نفسه قتل أخيه ، فقتله فأصبح من الخاسرين ، فبعث الله غراباً يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوأة أخيه ، قال يا ويلتا أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة أخي ، فأصبح من النادمين ، من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً ، ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ، ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون »(١).

وكان على من سن القتل ، كفل من وزر كل قاتل إلى يوم القيامة ، كما قال المعصوم صلى الله عليه وسلم .

أجل .. تتابعت رسالات الله وكتبه ، وهي تهتف بالناس : أن اجعلوا التعاون على الخير منهاجاً ، والتحاب فيما بينكم سلوكاً ، والسلام هدفاً وغاية ، فإن هذه هي رسائل الخير ، في كل عصر ومصر ، بقدر توفرها تطيب الحياة ويرضى الله ، فإذا اختفت وقام مقامها حب الذات واستهداف المصالح الخاصة ، اضطربت موازين الدنيا ، كما نرى ونلمس بين الأفراد والجماعات وبين أمم كثيرة ، يزعم بعضها حماية السلام ، والسلام منها براء ! !

ويزعم آخرون أنهم غزوا جارة مسلمة لإعادة توزيع الثروات في حرب الفقراء للأغنياء ، وما أكذب المبررات للباطل المعتدي !

والقرآن الكريم ينادي الأحياء اليوم ، كما نادى البشرية بأسرها ، والوحي ينزل على رسول الله ، صلوات الله عليه ، يقول الله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير »(٢).

فيوجب الله بهذه الأبوة الواحدة أن نتعارف ونتآلف ، وأن تتوارى إلى الأبد أسباب النزاع العنصرية والجنسية ، فلا بيض في الإسلام ولا سود ، ولا سادة ولا عبيد ، بل الجميع إخوة ، يتفاضلون بأعمالهم .. ذلك هو ميزان التفاوت الذي صنعه الله « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، لا ميزان الملونين الذي صنعه الغرب الظلوم ، لا في جنوب أفريقيا وحدها ولكن في أمريكا وغيرها .

---

(١) سورة المائدة ، الآيات ٢٧ — ٣٢ (٢) سورة الحجرات ، الآية ١٣

ومضت فعال رسول الإسلام وصحابته من بعده ، وهى آثار لهذه الأقوال ، وحقائق عملية لهذه الوصايا الإلهيـة .

فمحمد لم يتميز على أصحابه فى مجلس أو مقام ، ولا فى شراب أو طعام ، ولا فى سفر أو حضر ، بل إنه ليروى أنه ، صلوات الله عليه ، كان يحمل أشد الأمور ويدع لصحابته أيسرها ، كما حدث يوم جمع الحطب ، عوداً من هنا وعوداً من هناك ، فى صحراء لا يبلغ الطرف مداها ، حين وسع على أصحابه بشاة ، فقال أحدهم : علىّ ذبحها ، وقال آخر : وعلىّ سلخها، وقال ثالث : وعلىّ طبخها . فقال صلى الله عليه وسلم : وعلىّ جمع الحطب .

ومحمد كان يكره أن يتمثل الناس له قياماً ، وأن يقبل بعض أصحابه يده ! ! ومنع بعضهم أن يحمل عنه متاعاً اشتراه من السوق . وقال : علمت أنكم تكفوننى الأمر ؟ ولكن من يحمل عنى أوزارى يوم القيامة ؟!

وينقم نبى الإسلام من أبى ذر أن عير إنساناً بأمه ، وقال له : يا ابن السوداء ، وما نريد أن نعيد ما أسلفنا من هذه المعانى الوضيئة ، لكننا ذكرنا منهـا هذه الباقة لنتساءل :

كيف خفيت هذه المعانى الرفيعة على طلاب السلام العالمى والمبشرين به ، من بين ما يذيع الإسلام فى الدنيا من آيات الأخوة الإنسانية ، وصور التراحم العام ، وأمثلة التعاون والوئام ؟!

ـــ إن السلام والصفو العام طبيعة الإسلام ، وغاية غاياته ، فمن السلام اشتق اسم الإسلام ، نفهم ذلك من قول نبى الإسلام : (المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)[١] . والله عز وجل هو « الملك القدوس السـلام »[٢] . أى الذى يحفظ عباده ويسلمهم وهو يمنح المؤمنين فى الدنيا سـلامه ويقول لرسوله : « وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة »[٣].

والسـلام تحية المؤمنين فى الدنيا : « فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة »[٤].

(١) رواه البخارى .
(٢) سورة الحشر ، الآية ٢٣
(٣) سورة الأنعام ، الآية ٥٤
(٤) سورة النور ، الآية ٦١

قال الإمام النسفى فى تفسيره ، ج ٣ ص ١١٩ : أى (فابدأوا بالسلام على أهلها الذين هم منكم ديناً وقرابة ..) . ثم قال : (أو لأن التسليم والتحية طلب سلامة وحياة ، والتحية من عند الله) . ووصفها بقوله : « مباركة طيبة » لأنها دعوة مؤمن لمؤمن يرجى بها من الله زيادة الخير وطيب الرزق) .

والسلام تحية المؤمنين فى الآخرة :

« تحيتهم يوم يلقونه سلام ، وأعد لهم أجراً كريماً »(١).

« لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون »(٢).

« جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب » سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »(٣).

* * *

ولا يهون من هذه المعانى ما أكره عليه الإسلام من غزوات وحروب ، تشغل من تاريخه حيزاً كبيراً ، فما كان فى جميعها إلا مدفوعاً إليها برغمه ، والحجة ناهضة على الذين يرتابون فى ذلك ، قال تعالى : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين »(٤) .

وقال سبحانه : « فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم ، كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها ، فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا أيديهم ، فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً »(٥) .

ومرة أخرى : « الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » .

* * *

لقد كان نبى الإسلام ، صلوات الله عليه ، يتعشق السلام ، ويمجد الدعوة إليه منذ شرخ شبابه ، وبكرة حياته ، وتأصلت فيه هذه العاطفة النبيلة حتى راح مثلها الأعلى فى تاريخ البشرية كلها .

(١) سورة الأحزاب ، الآية ٤٤
(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٢٧
(٣) سورة الرعد ، الآيتان ٢٣ و ٢٤
(٤) سورة البقرة ، الآية ١٩٠
(٥) سورة النساء ، الآيتان ٩٠ و ٩١

شهد حلف الفضول ، وهو ابن خمس وعشرين سنة ، واغتبط به غبطة يصورها قوله : (لقد شهدت بدار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت به فى الإسلام لأجبت ...)[1] .

وكان هذا الحلف استجابة كريمة لمظلوم باع بضاعته للعاص بن وائل السهمى — وهو سيد من سادات مكة — ثم حبس ثمنها عن صاحبها ، فاستجار الرجل بقريش ، فلم تجره ، فوقف إلى جوار الكعبة ، وأنشد :

يا آل فهر ، لمظلوم بضاعته ببطن مكة ، نائى الدار والنفر
ومحرم أشعث لم تقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت كرامته ولا حرام بثوب الفاجر الغدر

واستثارت استجارة الرجل مروءة الزبير بن عبد المطلب ، فمضى إلى صفوة من بنى هاشم ، وبنى عبد المطلب ، وأسد بن عبد العزى ، وتواثقوا فى (حلف الفضول) أن ينصروا المظلوم على ظالمه ، وينصفوه منه ، ما بل بحر صوفه ! أى بكل حال .

وكانت باكورة أعمالهم ، إكراه العاص على رد حق الزبيدى إليه ! !

فأين من هذا تلك المحافل الدولية ، وهذه المعاهدات التى تصون المغانم للأقوياء وتلقى المغارم على الضعفاء ؟! وماذا نذكر من معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا ؟ فحين لم تجد مصر بدأ من لقاء شذاذ الآفاق فى فلسطين كانت بريطانيا تخلف عهودها لنا وتنجز وعودها للصهاينة ، وتبرز وعد بلفور إلى الوجود ! !

ومجلس الأمن كان يسمع بأذنى بريز ، ويرى بعينيه ، عدوان الصهيونية على غزة ، ونقضها للهدنة فى قبية وغيرها ، فيصم المجلس أذنيه ، وكأن شيئاً لم يكن !

وكان العدوان الثلاثى على مصر ، وثار ضمير الشعوب ، وكانت المحافل الدولية تتثاءب ، بينما الهوى يقظان فى بورسعيد وغزة ، حتى جاء الحق وزهق الباطل :

« وما يبدئ الباطل وما يعيد » .

وهل بقى لأمريكا أذن تسمع وهى تعين إلى غير حد على وأد انتفاضة الأباة فى

---

(١) سيرة ابن هشام ، ج ١

الأرض المحتلة ، وترى غضبة الأباة إرهاباً ولا تدخر وسعاً فى مؤازرة باطل إسرائيل ولا تجسد حمرة الخجل إلى وجهها سبيلا وهى تقف وحدها أو تكاد مع إسرائيل والعالم كله أو أكثره ينكر عليها صلفها وبغيها الذى جاوزت فيه المدى .

كان نبى الإسلام بحق رسول السلام منذ صباه ، فكم صان الله به من هلاك وحفظ الناس من أشراك .

وحين استمر الخلاف بين قبائل العرب ، أيها تذهب بشرف حمل الحجر الأسود ووضعه فى مكانه من الكعبة ، وكادت تزهق نفوس وتطير رءوس ، لولا أن تعقلوا فحكموا أول داخل عليهم ، وكان القدر الرحيم يسوق إليهم محمد بن عبد الله قبل أن يصطفيه الله ، فلما رأوه ، قالوا بلسان واحد : هذا هو محمد ، هذا هو الأمين ، قد رضيناه حكماً . وكان الرأى الذى جمع الله عليه القلوب ، والتقى الجميع به فى ظلال سلام غامر !

ومرة أخرى : أين من مظاهرة السلام قولا وعملا فى الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام ، إغضاء المحافل الدولية عن جحافل الشر وهى تبغى فى الأرض بغير الحق ، ورضاها بالهوان الذى يعيشه مشردو فلسطين ، وإسرائيل تستورد يهود العالم إلى الأرض المحتلة ، ويعينها على ذلك الكبار والصغار ، والدنيا كلها ترى وتسمع ، والباطل يستطيل أمره حتى الساعة ، ولله عاقبة الأمور .

* * *

لقد استهدف محمد وأصحابه فى مكة لمظالم لم تسلم منها بعض المسلمات ، وصبر وصابر ، وكان بلال تحت رحى الطاحون وفى السلاسل والأغلال على حصباء مكة المتوهجة وبين السياط التى تمزق جلده ، لا يسمع السامعون غير قوله : (أحد ، أحد ، لا أعبد سواه ، ما أخف العذاب على قلبى وما أشهاه) !

وزنيزة تحبس فى حجرة ملؤها بالدخان حتى عميت ، وهى سعيدة بإيمانها ، مبصرة بيقينها ، بينا أبو جهل يقول ساخراً : (لو كان ما جاء به محمد حقاً ما سبقنا أحد إليه ، أفتسبقنا زنيزة إلى رشد) ؟!

قال تعالى : « وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه ، وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم »[1] .

(١) سورة الأحقاف ، الآية ١١

وكان رسـول السلام يلتمس الحليف الصـادق حتى يؤدى رسالة ربه كاملة ، ويعرض نفسه على قبائل العرب ، حتى زار الطائف وعرض دعوته على سادة ثقيف ودعاهم إلى الإسـلام وقرأ عليهم القرآن ، فلم يكتفوا من تكذيبه بالقـول ، ولكنهم أغروا به سفهاءهم وغلمانهم ، فرجموه بالحصى ، وقذفوه بالحجارة حتى أدموه ! وهو فى كل ذلك لا يفارق طبيعته السمحة الرضية .. فيقـول لربه فى دعاء عظيم : (إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى) ! !

وتستأمره ملائكة الجبال فى أن تطبق جبال مكة على من كذبوه وآذوه ، فيأبى ذلك ويقول : (لعل الله أن يخرج من أصلابهم من يؤمن به ويوحده) ! !

وهكذا النفوس الكبيرة ، تعلو على دواعى الشر حين لا تواتيها حظوظ الخير .

* * *

ثم هاجر الرسول إلى المدينة وهو يناجى مكة : (اللهم إنك لأحب بلاد الله إلىّ وإنك لأحب بلاد الله إلى الله ، ولولا أن قومى أخرجونى منك ما خرجت أبداً) .

ثم يلقى اليهود ويعاهدهم ويواثقهم بعد أن وضع قواعد الدولة ، فقرر صلة العبد بربه ببناء المسجد ، وقرر صلة المؤمنين بعضهم ببعض حين آخى بين الأوس والخزرج وسماهم الأنصـار ، ثم آخى بينهم وبين المهـاجرين ، فتآخوا فى الله أخوين أخوين ، وقرر صلة المسلمين بغيرهم من يهود المدينة بمعاهدة من نصوصها :

١ — أن المسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم ، أمة واحـدة .

٢ — وأنهم يد على من بغى عليهم ، ولو كان ولد أحدهم .

٣ — وأن اليهود يتفقون مع المسلمين ما داموا محاربين .

٤ — وأن لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم .

٥ — وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم .

٦ — وأن بينهم النصر على من خالف هذه الصحيفة .

ثم صلى الرسـول إلى بيت المقدس حتى حوله الله إلى مكة بقوله تعالى : « قـد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضـاها فول وجهـك شطر المسجد الحرام ، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره ... »[1] .

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٤

وإذا كان السلام طبيعة الإسلام — وإنه لكذلك — فإن الوفاء بالعقود ، واحترام العهود ، ورعاية المواثيق ، جزء من شعائره ، ودستوره فى ذلك :

« وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ، إن الله يعلم ما تفعلون ۝ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً ، تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة ، إنما يبلوكم الله به ، وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون »(١) .

إن الغرب ينقض عهوده كلما بدت بارقة مصلحة خاصة ، وحين تحين فرصة السطو على الخامات والأسواق فى أى مكان !

فأين هذا من الإسلام الذى ينهى عن الانفعال بالمصالح الشخصية وحدها ، ويشبه ناقضى العهود هذا التشبيه المزرى :

« كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً »(٢) .

لقد خان اليهود عهود محمد عهداً عهداً ، كما يخونون اليوم ، ويخون الاستعمار الذى ظاهرهم وما يزال يؤازرهم حتى الساعة ؛ وحامية الحريات بخاصة ، وكأن ليس فى الوجود سواهم .

وإن حامية الحريات لتعد وتؤكد مجاراة لدول العالم ، أن الأوان قد آن لوضع أمور أهل فلسطين فى مواضعها (وأفلح إن صدق) .

* * *

الإسلام دين السلام ، أمر المسلمين أن يعدوا لعدوهم ما استطاعوا من قوة ، ولكنه راح يعلمهم أنه وإن قامت الحرب ، وأمكن أن تبرق بارقة سلم ووئام ، فليبادروا إلى ذلك مسرعين .. فقال :

« وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، إنه هو السميع العليم ۝ وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين »(٣) .

وهو الإسلام الذى راح يعاتب أسامة بن زيد وصحبه ، لأنهم قتلوا مرداس

(١) سورة النحل ، الآيتان ٩١ و ٩٢ (٢) سورة النحل ، الآية ٩٢
(٣) سورة الأنفال ، الآيتان ٦١ و ٦٢

ابن نهيك ، بعد أن قال : لا إله إلا الله ، السلام عليكم ، واستاقوا إبله ، ووجد الرسول لذلك وجداً شديداً ، ونزل قول الله :

« يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ، تبتغون عرض الحياة الدنيا ، فعند الله مغانم كثيرة ، كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم ، فتبينوا ، إن الله كان بما تعملون خبيراً »(١) .

وهو الإسلام الذى أوجب إجارة المشرك الذى لا يؤمن بدين سماوى ما لم يؤذ المسلمين .. حتى يسمع كلام الله ، قال تعالى : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ، ذلك بأنهم قوم لا يعلمون »(٢) .

على أن الإسلام يذهب أبعد المذاهب فى تقدير عهوده ومواثيقه ، فهو يؤخر التناصر الثابت بحق الأخوة المشتركة فى الدين ، ويقدم عليها المعاهدات المعقودة ولو مع كافرين .

وفى هذا يقول الله تعالى : « والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا ، وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق ، والله بما تعملون بصير »(٣) .

يقول السيد عبد الحميد الخطيب فى تفسيره ، ج ١٠ ، ص ٢٧ :

« إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » أى أن النصر الواجب عليكم مشروط بأن يكون الكفار الذين طلب منكم النصر عليهم من الأعداء المحاربين الذين لم تعقد بينكم وبينهم معاهدات لا يحل لكم نقضها ، فعندئذ لا تلزمون بمساعدتهم ، لأن الإسلام يوجب عليكم الوفاء بعهودكم ويعتبر نقضها غدراً وخيانة ، والله لا يحب الخائنين ، اللهم إلا إذا كان العهد القائم بين الحكومات الإسلامية والحكومات الأجنبية ينص على عدم اضطهادها للمسلمين الخاضعين لنفوذها أو عدم التعرض لدينهم ، فعندئذ يجب عليكم نصرهم ، متى ثبت نقضها لنص العهد الذى بينكم وبينها .

* * *

(١) سورة النساء ، الآية ٩٤
(٢) سورة التوبة ، الآية ٦
(٣) سورة الأنفال ، الآية ٧٣

هذا هو الإسلام — أيها الناس فى الشرق والغرب — دعوة جهيرة إلى السلام وعمل به ، لأنه دين الحياة ، والحياة بدون السلام شر من الموت ، وأى نعمة وراء الأمن والعافية التى امتن الله بها وأخبر أن معصيته هى طريق زوالها ؟ فقال :

« وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون »(١) .

وكان السلام نشيداً حلواً ونغماً جميلا يردده رسول الله وهو يقول فى أعقاب صلواته : (اللهم أنت السلام ومنك السلام ، وإليك يا رب يرجع السلام ، فحينا ربنا بالسلام ، وأدخلنا الجنة دار السلام)(٢) .

وقال عبد الله بن سلام : كان أول ما سمعت من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر إلى المدينة قوله : (أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام)(٣) .

فكونوا سلاماً لأوطانكم ، وسلاماً لإخوانكم ، وسلاماً للدنيا التى تصغى إلى صوت السلام من دينكم ، فإن ضاقت به ذرعاً ، فقد برئت منها الذمة واستوجبت العمل الحاسم الحازم الذى يوقظ الغافلين .

ويا أمتنا التى يكيد لها من يكيد ، ويحكم بها من يحكم ، خذى المودة شرعة لمن يحاسن ، وخذى الحذر والقوة سلاحاً مع من يخاشن ، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله :

والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا   فالحرب أجدى على الدنيا من السلم

---

(١) سورة النحل ، لآية ١١٢   (٢) رواه الترمذى عن أبى هريرة .
(٣) صحيح مسلم عن عائشة وأبى هريرة .

كيف نحتفل بذكريات الرسول

من حق رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ، وذكريات مولده وهجرته ، وأيام رسالته يغمر العالم فى إبانها منها عطر ونور ، وشفاء لما فى الصدور ، أن نذكرها ولا ننساها ، وأن نحييها فى أنفسنا وفيما حولنا ، بالاقتداء به واتباع سبيله ، فذلك هو صراط الله ، وحقيقة الوفاء لصاحب الذكرى . فالله تعالى يقول : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم ، قل أطيعوا الله والرسول ، فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين »[1] .

وما ينبغى أن يشغلنا الناس ، أو تلهينا الأحداث عن رسول الله .. فبه هدانا الله للإيمان ، وكنا خير أمة أخرجت للناس ، ومن بركاته نهلت الدنيا كؤوس هداها ، وستبقى كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

وإذا كنا نذكر عظماء التاريخ بما أسدوا للبشرية من خير ، وبما أكسبوا أممهم وجماعاتهم من عزة ونصر ، فإن عظمة محمد رسول الله لا يحيط بها وصف ، ولا يلم بأطرافها بيان .

وإنك لتتأمل رسالته وشخصيته ، وظروف حياته ، وضروب تصرفاته ، فلا تجد خلال ذلك إلا الكمال البشرى الذى تطمئن به القلوب إلى قول الله فى مصطفاه :

« وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيماً »[2] .

وقوله تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم »[3] .

* * *

إن كل شىء فى الحياة يذكر برسول الله صلى الله عليه وسلم .

ذلك الرسول الذى ظلمه الناس ، فلا يذكرونه إلا فى مناسبات متباعدة حين

(١) سورة آل عمران ، الآيتان ٣١ و ٣٢

(٢) سورة النساء ، الآية ١١٣ (٣) سورة القلم ، الآية ٤

يوافق تاريخ هجرته أو مولده أو غزواته ، وليتنا حين شغلنا الناس وألهتنا الأحداث ذكرناه بشيء غير هذه الأحفال التي يتبارى بعض الهيئات الدينية في إقامتها ، رغبة في أن يقال : إن حفلا بهيجاً قد أقيم هنا أو هناك ،وأن كلمات وهتافات أبعدت الناس عن صاحب الذكرى ولا شيء وراء هذا !

وليت بيوتنا حين تحتفل بهذه الذكريات ، تصنع شيئاً غير هذا السباق في تفجير هذه المفرقعات التي تنتهي وتنتهي أموالنا بها إلى خزائن فلان وفلان ، وغير نصب الرايات والأوراق البراقة ، وإلهاء الصغار عن التذكر والاعتبار ، بما ألفوا من ألهيات .

ولقد كان رسول الله يبغض المظاهر أشد البغض ، وينكرها على المفتونين بها ، ويدعوهم إلى العمل الذي قرنه الله بالإيمان في كل آية من القرآن دعا بها الناس إلى الإيمان أو وصف الله فيها المؤمنين .

ليتنا استعرضنا أخلاقنا ونحن نذكر رسول الله ، لنعرف أين مكانها من الأخلاق التي جمع الرسول فيها رسالته وهو يقول : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق)(١) .

وإذا كان بعض الذين يقرأون القرآن لا يبلغون من هدايته كثيراً ولا قليلا ، فإن من ذاكري رسول الله من يقوم ذكرهم حجة على بعدهم البعيد عن استهداء الأدب النبوي فيما يقولون ويعملون !

* * *

ولقد أعظم الله المنة برسوله على عباده ، وقال :

« هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين ، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم »(٢) .

كانوا في ضلال الشرك والأنانية والفخر بالآباء ، والاستطالة بالمال الذي جمعوه من غير وجوه الحلال ، وما وراء ذلك من فساد الجاهلية ووثنيتها ، فجاء الرسول يشد بالإسلام عرى الأمة ، ويحكم أخوتها ، ويبين لها بالقرآن الخير والشر ، والحق والباطل ، ويضرب لهم بسيرته أعظم مثل القدوة . وصدق الله العظيم :

(١) موطأ مالك : رواه أحمد عن أبي هريرة بألفاظ متقاربة .
(٢) سورة الجمعة ، الآيات ٢ — ٤

« يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً »(١) .

خذوا من أخلاق رسول الله — أيها الناس — زاداً لحياة الطيبة التى تنشدون ، فإنه لمن السفه أن نحسن القول ولا نحسن العمل . وأن يكون حظنا من رسول الله كلاماً ننمقه ، وحديثاً نزوقه ، والله تعالى يقول : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ... »(٢) .

وهل أتى الذين يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، والذين يحبون أن يتميزوا بالباطل على الناس ، والذين يجعلون الحياة مبادلات لا مكان فيها للعدل والإنصاف والذين تحكمهم الأغراض والأهواء كلما تحدثوا أو عملوا . هل أتى هؤلاء وأولئك أن رسول الله ربى أمته على العزة التى كتبها الله للمؤمنين ولم يتميز عليهم فى مكان ولا حال ، ولكنه كان يحمل عنهم من الأمور ما يرفق به عليهم .

عن عمرو بن العاص مرسلا : (ما رئى رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئاً قط ولا يطأ عقبه رجلان) ، أى يمشى بين أصحابه وربما قدمهم .

وعن أنس رضى الله عنه قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأجود الناس وأشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق الناس قبل الصوت ، فاستقبلهم النبى صلى الله عليه وسلم قد سبق الناس إلى الصوت ، وهو يقول : (لن تراعوا ، لن تراعوا) وهو على فرس لأبى طلحة ، عرى ، ما عليه سرج ، على عنقه سيف ، فقال : (لقد وجدت بحراً ، أو إنه لبحر)(٣) .

« فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين »(٤).

ولقد روى عمر رضى الله عنه أن رجلا اسمه (حمار) كان يشرب الخمر على عهد الرسول ، وجيء به إلى الرسول يوماً ، فأقام عليه الحد ، فلما انصرف ، قال أحد

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٧٤
(٢) سورة الأحزاب ، الآية ٢١
(٣) رواه البخارى فى كتاب الأدب .
(٤) سورة النساء ، الآية ١٥٩

الحاضرين : لعنك الله . فغضب النبى من مقالته وقال : (لا تقولوا هكذا ، فإنه رجل يحب الله ورسوله) .. أو (ولا تكونوا عوناً للشيطان على أخيكم) .

هذا الخلق النبوى ألف الله به على محمد قلوب أصحابه ، فوقفوا دونه ، وحاربوا فى سبيل رسالته ، وافتدوه صلوات الله عليه بأنفسهم وآبائهم وأبنائهم وكرائمهم . ولقد ضربنا فى ذلك كثيراً من الأمثال .

فارقبوا أيام النبى ومواقفه ما استطعتم بالدراسة والتأمل، واذكروا سنته جهدكم لكمال التأسى وتمام الاقتداء . وتواصوا بذلك ، تطب لكم الحياة ، وتستوجبوا رعاية الله يوم نلقاه ،وذلك هو الفوز العظيم .

من دروس الاسراء والمعراج

تحيا ذكرى رجب فى خواطرنا ، وتتحرك رؤاها وصورها أمام نواظرنا ، وتحتشد ملء سرائرنا ومشاعرنا .

ومن ذا الذى يستطيع أن ينسى رسول الله صلوات الله عليه فى ليلة غراء ، اختصر الله له فيها أبعاد الأرض بالإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى !

وقارب بين أقطار السموات ، حتى عرج به — سبحانه — إلى ما وراء سدرة المنتهى ! إلى حيث لم يرتفع نبى مرسل، ولا ملك مقرب، وأفاض عليه من خلع القبول ما أفاض، وفرض عليه وعلى أمته الصلاة ، التى يكون المؤمن فيها أقرب ما يكون من مولاه ، يحمده على أنعمه ، ويثنى عليه بجلائل صفاته ، ويناجيه بأنه المعبود وحده ، المستعان فى كل حال دون سواه .

من ذا الذى ينسى الرسول وقد جعل الله مسراه إلى فلسطين ، ولو شاء لعرج به حيث هو فى مكة ، ولكنه عرج به صلوات الله عليه من فلسطين ، وعن طريقها كان إيابه إلى مكة ، وفى المسجد الأقصى منها انعقد مؤتمر المرسلين صلوات الله عليهم — لأول مرة عرفتها الحياة — وأثنوا على الله بالذى هو أهله ، وإلى قبلته اتجه واتجه المسلمون بعد الهجرة حتى حقق الله رجاء رسوله ، فحوله والمسلمين — كما تمنى — إلى قبلة أبيه إبراهيم .

ما مغزى إسراء الرسول إلى فلسطين ، أرض النبوّات ومهد الرسالات ؟

ومرة أخرى ، لقد كان الله الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، قادراً على أن يجعل رحلة رسوله فى ملكوت الأرض إلى غير فلسطين ! وأن يجعل رحلته فى ملكوت السموات عن غير طريق بيت المقدس ! ..

ولكنه ، سبحانه — وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة — أراد بهذا التكريم الإلهى على ذلك النحو الذى تكرر فيه المسجد الأقصى مرات ، أن يلفت الأبصار والبصائر

إلى البلد الكريم، وأن يضع فى أعناق المؤمنين بموسى وعيسى ومحمد، عليهم السلام، حق افتداء فلسطين، حتى لايذهب بالأمر فيها، من لم يقدروا — عبر التاريخ — لأحد وداً، ولم يرعوا عهداً، ولم يألوا الأنبياء تقتيلا وكيداً.

ولكن أتباع موسى وعيسى ومحمد رأوا ما حاق بفلسطين، وأعان بعضهم على ذلك، وعرفوا كيف تمزقت القدس، إلى القدس القديمة، والقدس الجديدة، واعتدت إسرائيل فسيطرت على القدس جملة، وأعلنتها عاصمة إسرائيل، ونحن نسمع ونرى!.

ويا عجباً، كيف يتصرف فى الديار المقدسة غير أهلها، وكيف يحيا من بقى من أهلها داخل حدودها أسوأ ما تكون الحياة، ومساجدهم تحول تحت أبصارهم إلى ملاعب، وثمرات أرضهم وذخائر بلدهم يتقاسمها العادون وهم ينظرون؛ وكيف تمتد أبصار اليهود وراء الحدود إلى أبعد من (ملكك يا إسرائيل من النيل إلى الفرات) وكيف راحوا يتسللون لواذاً إلى الدول الأفريقية التى استقلت أخيراً بحيلهم، ومعونة الدول التى إن انتهى استعمارها لهذه البلاد، فإنها تريد أن يوطأ مهادها للصهاينة الظالمين.

وكيف بلغت إسرائيل الغاية فى الإثم، وهى تطبع القرآن الكريم، فى البلد المحتل، فتحرف كلماته، وتحذف ما يغير وجهها من آياته، ويظن أولئك أنهم بالغون، بعد قليل، من تشكيك المؤمنين فى كتابهم، وردهم عن عقيدتهم ما يريدون.

ولئن طال ليل المكايد على الإسلام «ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا»[1].

فإن القرآن الكريم سيبقى وضاح الجبين، قائم الحجة على العالمين، فى رعاية الله الذى يقول: «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»[2].

وإسرائيل فى غيها وبغيها، تحسب أن ليس للناس عقول، فهى تبنى مسجداً فى سيراليون، وترسل وعاظاً ومرشدين — صنعتهم على عينها .. إلى المسلمين فى الأقطار التى استقلت أخيراً، أو التى هى فى الطريق إلى الاستقلال، وأهدافها من هذا النيل المرير لا تخفى على بصير ..

تستخفى إسرائيل وراء كل ذلك للتمويه والتضليل، وهاهى اليوم تكشف عن

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٧ (٢) سورة الحجر، الآية ٩

طغيانها القناع ، وتصم بباطلها الأسماع ، وتشرد أهلنا عن ديارهم ، وتفعل الأفاعيل بالأباة فى الأرض المقدسة ، ولله أوس آخرون وخزرج .

* * *

إن الإسلام أقوى وأثبت من أن تهزه فتن الصهاينة ، والمسلمون أبعد نظراً من أن تخدع أحدهم — فى أى مكان — صبابات إسرائيل ، ومصاحفها ومرشدوها ، وسيبقى الديدبان الساهر حول أمتنا فى مختلف منازلها ، ينظر لها ويكسب ، ويبصر بمكايد الخصوم ، ويعد ما يدرأ شرها ويرد خطرها ، قادراً إن شاء الله ولو كره الكافرون .

.. أما بعد .. ففى أضواء ذكرى الإسراء والمعراج — فى أقل القليل — ترنو فلسطين بطرف لهيف إلى المؤمنين : بموسى وعيسى ومحمد ، صلوات الله عليهم ، عساهم يجمعون أمرهم على إقالتها من عثرتها ، وإنهاضها من كبوتها ، وإرسالها لاستكمال عزتها ، فذلك هو حق الوفاء لصاحب الذكرى ، وحق الوفاء للحدث الفذ الذى سجله الله فى قوله :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير »(١).

وبدأ بهذه الآية سورة سماها « الإسراء » .

إن الله الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، هو « الذى أسرى بعبده » . وكم كنا نسمع جدال أقوام يقولون بعدم إمكان الانتقال فى بعض مناطق الفضاء لانعدام الأوكسوجين فى المناطق العليا ، حتى جاء العلم يخدم الإسلام ، ويقدم من محاولات رواد الفضاء ما يبدد شكوك الماديين ، ويضاعف من إيمان المؤمنين بالإسراء والمعراج ! !

وأى شك أو ارتياب فى أمر لم يصنعه الرسول ، وإنما قدره وأمضاه الله الذى خلق الإنسان من قبضة من تراب هذه الأرض فى أحسن تقويم ! ورفع فوق رءوسنا هذه السموات بغير عمد مرئية ولا خفية ، ترتكز عليها ، وتستند إليها ! وبسط الأرض بالقدر الذى لابد منه لحياتنا فوقها واضطرابنا عليها ! وما علمناه من أمر السموات والأرض مما خفى ، كذرة واحدة فى هذا الكون العظيم ..

---

(١) أول سورة الإسراء .

وهذا الذهن الإنسانى ، يتفتق كل يوم عن الجديد الرائع من مبتكرات العلم وبدائع الاختراع ، ألم يكن الراديو ، حتى قريب ، يثير شك الناس ، وربما بقى بينهم حتى اليوم من ينكره ؟ .

وجاء التليفزيون والفيديو ، والآلات التى تجرى بسرعة الصوت فى أجواء الفضاء ، والأجهزة التى يغوص بها الغواصون تحت الماء ، لتفسر للماديين ضرورة الإيمان بالله الذى يقول : « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ، ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ، ألا إنه بكل شئ محيط »(١) .

ولقد شق الله صدر رسوله وأركبه البراق ، وعرج به بين طباق السموات بالمعراج الذى ذكرته السنة ، وهو القادر أن يتم هذه الرحلة بلا أسباب ولا وسائل مادية ، ولكن الله أجرى أمره على السنن المألوف للناس ، وكم كلف رواد الفضاء أمريكا وروسيا من أموال ومن جهد ، فماذا حققوا حتى الساعة من آمال !

وإن كان الأستاذ العقاد — وحسبك به علماً وحجة — يقول : (عجباً للإنسان فى دعواه التقدم الخارق المذهل للعقول ، كما يقولون فى عصر الصواريخ والأقمار الصناعية) .. (إنها دعوى نشك فيها ، ونرى كل يوم ما يجدد شكوكنا أوشكوك المترددين فى قبول هذه الدعوى)(٢) .

وكانت الأعمال المادية فى شخص الرسول إعداداً ربانياً ، يسكت الشياطين التى تصرخ فى رءوس الماديين ، وإن كان يسكتهم من الواقع براهين وبراهين ، لو كانوا منصفين ! !

ألا وإن الذكريات العزيزة ، لا يقضى حقها بالإنشاد ، والكلام المعاد ، فى اجتماعات لا تعقب أثراً ، ولا تثمر ثمراً ، وإنما تؤدى بعض ما توحيه وتوجبه ، بالعمل الجاد لإرساء قواعد الحق ، وإقامة صرح العدل ، وإشاعة الثقة والمودة بين الجماعات والأفراد ، ولقد ذم الله تعالى أقواماً وأعلن حبه لآخرين بقوله : « يا أيها الذين آمنوا لم

(١) أواخر سورة فصلت .
(٢) يوميات العقاد فى جريدة « الأخبار » القاهرية بتاريخ ١٩٦١/٨/٣

تقولون مالا تفعلون ، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ، إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص »(١).

وكان الإسراء والمعراج مواساة للرسول بعد موت خديجة وأبى طالب فى عام الحزن ، وبعد ما احتمله صلوات الله عليه من تكذيب قومه وأذاهم ، وكان فرصة أظهر فيها الله رسوله على آياته ، وعوالم أرضه وسماواته ، فى سرور وبشر أسهمت فيها السموات والأرض والملائكة والنبيون ، ليعود الرسول بقوى جديدة يواصل جهاده فى أداء رسالة ربه . وكان الإسراء والمعراج عيد الصلاة التى فرضها الله من فوق سبع سموات مشافهة لا وحياً كسائر العبادات .

.. فاذكروا وأنتم تصلون ، أوطانكم الإسلامية ، واذكروا وأنتم تحتفلون بالإسراء والمعراج ، فلسطين العربية ، ثم عاهدوا الله على إعزاز هذه الأوطان .. والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم) .

وصدق الله العظيم : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »(٢).

---

(١) سورة الصف ، الآيات ٢ — ٤ (٢) سورة آل عمران ، الآية ١٣٩

شهر الاسلام

رمضان شهر كريم ، أعز الله من بين شهور العام شأنه ، وجعله شهر الصوم الذى نسبه لنفسه — وكل الطاعات له — فقال تعالى فى الحديث القدسى : (كل عمل ابن آدم له ، إلا الصوم ، فإنه لى وأنا أجزى به ...)(١).

وهو الشهر الذى أفرده الله بالشرف العظيم حين ذكره باسمه ، دون شهور العام فى كتابه ، وجعله مبدأ للإسلام ، ونزولا للقرآن ، فقال تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هـدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهـد منكم الشهر فليصمه ... »(٢).

وهى أمجاد تضاف إلى أمجاد غزوة بدر التى نصر الله فيها القلة المؤمنة على الكثرة المستعدة الكافرة .

وأمجاد فتح مكة التى أخرج منها المؤمنون بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله ، واستقبلتهم كراماً أعزة فى رمضان .

وأمجاد ليلة القدر ، ليلة الرحمة والسلام .

« إنا أنزلناه فى ليلة القدر ۝ وما أدراك ما ليلة القدر ۝ ليلة القدر خير من ألف شهر ۝ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ۝ سلام هى حتى مطلع الفجر »(٣).

ورمضان نفحة من نفحات الله (أوله رحمة ، وأوسطه مغفرة ، وآخره عتق من النار) كما قال المعصوم صلوات الله عليه(٤) .

وفيه ينادى منادى الله : (يا باغى الخير أقبل ، ويا باغى الشر أقصر)(٥).

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٨٥
(٣) سورة القدر .
(٤) رواه البيهق وغيره .
(٥) رواه الترمذى والنسائى .

فهل سمعنا النداء ، وأجبنا الدعاء ، وعقدنا على الصوم العزائم ؟ وأعددنا أنفسنا للتقوى التى أرادها الله من تلك العبادة الخاصة ، فالله تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »(١).

* * *

كان سلفنا الكرام يقدرون رمضان قدره ، وتغمر أضواؤه دنياهم ، وتشيع روحه فى أرواحهم ؛ فنهارهم به صائم ، وليلهم فيه قائم ، وأيديهم بالبذل مبسوطة ، وأعينهم عن الشر غضيضة ، وألسنتهم بذكر الله رطبة ، ثم لا ينتهى رمضان حتى يكبح عن كل شر جماحهم ، ويصقل بتقوى الله أرواحهم ، ويقر بين سجاياهم الطيبة من معانى الإباء العزيز ، والإرادة القاهرة ، ما يصون آدميتهم ، ويرعى إنسانيتهم . فالذين يكفون أنفسهم عما حرم الله عليهم ، ويمنعونها الطعام الشهى ، والشراب الروى ، طيلة نهار رمضان ، وحاجة الإنسان إليها ماسة ، أولئك أعز على أنفسهم ، وعلى عدوهم ، من أن يرضوا العبودية لغير الله ، وأن يسيغوا الدنية والذلة ، ممن يتربصون بهم الدوائر عن يمين وشمال !

ولقد كانت عناية الرسول ، صلوات الله عليه ، برمضان كبيرة يستقبله جذلان فرحاً بقوله : (اللهم سلمه لنا وتسلمه منا) .

ويقول ابن عباس رضى الله عنهما : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير ، وكان أجود ما يكون فى رمضان ، وذلك حين يجيئه جبريل ، فيدارسه القرآن ، فلرسول الله أجود بالخير من الريح المرسلة)(٢).

وإلى القرآن الذى يبنى الإيمان ، وإلى الإحسان الذى يثمر البر ، والحنان بين بنى الإنسان ، أدعو الصائمين ، وإذا عجزنا عن قراءة القرآن مصبحين وممسين ، وأن نناجى به ، ما استطعنا ، رب العالمين ، فما ينبغى أن نعجز ، فى شهر المغفرة ، عن استظهار شىء من آياته ، وتعرف بعض معانيه وعظاته ، والانطباع بآدابه التى ساد بها أسلافنا ، الذين استحفظوا كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فقد رسم القرآن سبيل الحياة الطيبة ، ووصف العلاج الناجع لعلل البشر النفسية ، وأمراضهم الخلقية ، ومشكلاتهم الاجتماعية ، وعرض سير الأولين ، ومصارع الظالمين ، بأسلوب يأسر

(١) سورة البقرة ، الآية ١٨٣ (٢) رواه مسلم والمسانيد .

الأفئدة ، ويستحوذ على النفوس ، وحجة مقنعة ، ودليل مسفر ، وبشر مع ذلك وأنذر وأمر وحذر . وقال سبحانه : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد »(١).

والله عز وجل يثير بمدارسة جبريل القرآن للنبى كل عام فى رمضان ، معنى الحرص عليه ، فهو قانونه لعباده ، ومنهاجه الجامع لشرف الدنيا وعز الآخرة .. وانظروا ماذا تفعل قراءة القرآن !

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن أسيد بن حضير بينما هو فى ليلة يقرأ فى مربده — أى المكان الذى فيه التمر — إذ جالت فرسه — أى اضطربت بشدة ، فسكت فسكنت ، ثم قرأ فجالت ، فسكت فسكنت ، ثم قرأ فجالت ، فسكت فسكنت ، قال أسيد : فخشيت أن تطأ يحيى فقمت إليها ، فإذا مثل الظلة فوق رأسى فيها أمثال السرج ، عرجت فى الجو حتى ما أراها قال : فغدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، بينما أنا البارحة فى جوف الليل أقرأ فى مربدى إذ جالت فرسى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ ابن حضير ، قال : فقرأت ، ثم جالت أيضاً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ ابن حضير ، قال : فقرأت ، ثم جالت أيضاً ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ ابن حضير ، قال : فانصرفت . وكان يحيى قريباً منها فخشيت أن تطأه ، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج ، عرجت فى الجو حتى ما أراها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : تلك الملائكة تستمع لك ، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر عنهم)(٢).

فهل عرفت أمة القرآن حقه عليها ، فهى بخير ما أنزلته منزله من حياتها ، واستفتته فى شتى أمورها ، وورثوه أبناءهم فهو خير ميراث وأزكى تراث ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : (لقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً ، كتاب الله وسنتى)(٣)

* * *

وبعد : فقد احتفل القرآن بالسخاء الذى نذكر به الصائمين ، وأعلن عن حبه للكرام الباذلين ، وأنحى باللائمة على الذين اتخذوا المال إلهاً يعبد ، ولم يجعلوه — كما خلقه

(١) سورة فصلت ، الآية ٤٤ (٢) رواه البخارى ومسلم بألفاظ متقاربة .
(٣) من خطبته فى حجة الوداع . متفق عليه .

الله — وسيلة تسعدهم وتنعش من يليهم . ولقد سئل عبد الله بن الحسن بن عليّ كرم الله وجهه : لِمَ أوجب الله الصوم ؟ ! فقال : (ليجد الغنى ألم الجوع فيعود بالفضل على الفقير) .

وما شد حبال التآخى بين الناس كالمعروف ، تخفف به اللوعات . وتجفف به العبرات ، ويفتح به باب الأمل للذين امتحنهم الله بالحرمان والقلة فى هذه الحياة ..

وفى الحديث القدسى : (عبدى افعل الخير تجده عندى لا يذهب العرف بينى وبين عبدى)[1] .

وآيات القرآن تؤكد هذا المعنى ، وتشرحه أقوال الرسول وأعماله صلوات الله عليه .

وطوبى لمن عرف لرمضان حقه ، فصام أيامه ، وأحيا بذكر الله لياليه ، وطابت بتقوى الله نفسه ، ولانت بالبذل الكريم كفه ، وأفاد من صومه العزة التى كتبها الله للمؤمنين !

---

(١) الاتحافات السنية للسيوطى .

مع أواخر رمضان

تصرمت أيام رمضان ، ومضى إلى ربه بصحائف أعمال ، وسجل فعال ، هى زادنا من دنيانا ، وذخيرتنا فى أخرانا ، وصار رمضان — بعد أن كان حقيقة تملأ السمع والبصر — حديثاً يروى ، وخبراً يؤثر ، وستمضى ، كما مضى ، أيام الحياة كلها كخيل الطراد ، إلى أجل لا ريب فيه ، لنلقاها مرة أخرى .

« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً .. »[1].

وفى الأثر : (ما من يوم جديد إلا وينادى : يا ابن آدم ، أنا يوم جديد ، وعلى عملك شهيد ، فاغتنمنى ، فلو غابت شمسى لم تدركنى إلى يوم الوعيد) .

إن انقضاء رمضان ليضعنا أمام قائمة حساب فى الفوز فيه عاجل بشرى الله للمؤمنين بقدر مافى الخذلان فيه ، من حسرة ممضة موجعة تحيط بدنيا الغافلين وآخرتهم على السواء .

فهل أثمر الصوم ثمرة التقوى ؟! وهل تخرجنا فى مدرسته بخلائق الأباة الذين صفت أنفسهم ، وعفت ألسنتهم ، واتحدت كلمتهم ، واستقام صفهم ، وصاروا إخوة كما وصف الله المؤمنين ؟!

وهل برئنا من دواعى الخور والهزيمة والاستكانة للأحداث المفاجئة ، والنوازل الطارئة ، والعقاب التى يضعها الأعداء فى طريقنا ؟

وهل قهرنا فى أنفسنا نزوات الظلم والاستعلاء بالباطل ، وشهوات الإثم والعصيان ؟

فإن أول الانتصار أن تغلب نفسك على هواها ، وأن تقودها إلى هداها ، وأن تنقلها من مجال عداوتك إلى مودتك . والنبى صلوات الله عليه يقول : (أعدى عدوك نفسك التى بين جنبيك ، وامرأتك التى تضاجعك ، وأبناؤك الذين من صلبك)[2].

(١) سورة آل عمران ، الآية ٣٠ (٢) المسانيد .

وعن أبي مالك الأشجعي أن رسـول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ليس عدوك الذى إن قتلته كان نوراً لك ، وإن قتلك دخلت الجنة ، ولكن لعله ولدك الذى من صلبك ومالك الذى ملكت يمينك)[1].

.: إنك مع نفسك فى جهاد دائم حتى تورثها طاعة الله رضى ما يرضى ، وحب ما يحب ، فالخير والشر فى عراك موصول مشبوب الأوار منذ كان الناس ، فانظر فى أى الجبهتين أنت ؟ وحاسب نفسك قبل فوات الأوان ، وانقلاب الزمان ، فالأيام كما قالوا خمسة :

يوم مفقـود : هو أمسك الذى فاتك مع ما فرطت فيه .

ويوم مشهود : وهو يومك الذى أنت فيه ، فتزود فيه من الطاعات .

ويوم مورود : وهو غدك لاتدرى هل هو من أيامك أم لا ؟

ويوم موعود : وهو آخر أيامك من أيام الدنيا ، فاجعله نصب عينيك .

ويوم ممدود : هو آخرتك ، وهو يوم لا انقضاء له ، فاهتم له غاية اهتمامك ، فهو إما نعيم دائم ، أو عذاب مخلد !

والذين يعرفون قيمة الحيـاة يبادرون بالعمل الصالح شبابهم قبل هرمهم ، وصحتهم قبل سقمهم ، وغناهم قبل فقرهم ، فمع اليوم غد ، وإنهما لخطوتان ينطوى بقدرهما العمر ، ويتقارب الأجل ، والذين قعدت بهم هممهم الوانية ، وتقاصرت عزائمهم عن أداء حق الدين ، وإعلاء شأن الوطن ، تنمية وإعداداً لا غناء وإنشاداً وعن النصفة من أنفسهم ، والقصد فى أقوالهم وأعمالهم ، إنما يعينون مصاير السوء على أنفسهم .

.: ولقد غر المعتضد ملكه ، وأطغاه سلطانه ، فأرهق الناس من أمرهم عسراً ، وحملهم على المكاره حملا ثقيلا ، ثم سول له الشيطان وأملى له ، فقال : أنا مالك الأفلاك ، غلاب القدر ! ! ثم لم يلبث غير قليل حتى دهمته علة مذهلة ، وفدحه داء أعجز الأطباء علاجه ، فرثى نفسه ، وترك لمن فتنوا بسلطانهم هذه العظة :

فـلا تأمـنن الـدهر إنى أمنتـه ... فـلم يبـق لى خـلا ، ولم يرع لى حقا
قتلـت صناديد الرجـال ، فلم أدع ... صديقاً ، ولم أمهل على ظنة خلقا

---

(١) رواه الطبرانى بسنده .

وأخليت دور الملك من كل نازل فبددتهم غرباً ، وشردتهم شرقا
فلما بلغـت النجم عـزاً ورفعـة وصارت رقاب الخلق أجمع لى رقا
رمانى الردى سهمـاً فأخمـد جمرتى فها أنذا فى حجرتى ، عاطلا ملقى !

ثم قال : (ما أغنى عنى ماليـه ، هـلك عنى سلطانيـه) !

ولعل طاغية دار السلام وحاضرة الإسلام فى يوم من الأيام تبلغه هذه العظة قبل أن يبوء بأوزاره إلى أخذ الله للطغاة .

* * *

كم نرجو أن نخرج من مدرسـة رمضان بأحاسيس توجه للخير ، وتحفز للعمـل المثمر ، فالعبادات الإسلامية تدعم جوانب الحياة وهى تنهضك لأداء واجب الخلافة عن الله .

والعبادات الإسلامية تحكم روابط المودة بين الناس ، وتطارد فيهم الهـلع الجازع . والجبن الخالع أمام غير الأيام ، وتبغض إليهم الحرص على الحطام ، والضن به على السائل والمحروم ، وحقوقهما فيه ثابتة مقررة .. والله تعالى يقول :

« إن الإنسان خلق هلوعاً ۞ إذا مسه الشر جزوعاً ۞ وإذا مسه الخير منوعاً ۞ إلا المصلين ۞ الذين هم على صلاتهم دائمون ۞ والذين فى أموالهم حق معلوم ۞ للسائل والمحروم ۞ والذين يصدقون بيوم الدين ۞ والذين هم من عذاب ربهم مشفقون ۞ إن عذاب ربهم غير مأمون ۞ والذين هم لفروجهم حافظون ۞ إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ۞ فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون ۞ والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون ۞ والذين هم بشهاداتهم قائمون ۞ والذين هم على صلاتهم يحافظون ۞ أولئك فى جنات مكرمو ن »[1].

واستروح نسمات الجنة من خلال هـذه الآيات ، ثم شمر بالطاعة لدار المقامة ، فإنما شق الله أنهارها ، وغرس أشجارها ، ودلى ثمارها ، وأقام قصورها ، وأعد ولدانها وحورها ، لأولئك الذين وعت الآيات خصالهم ، وأحصت فعالهم ، وكانوا سلماً لأنفسهم وللناس ، وأملا يجد المتعبون فى ظلاله صفو الحياة ، وبرد العافية ، فوالله ما صام من ملأ الحقد جوانحه ، وأطلق الظلم جوارحه ، وتتابعت فى الناس

(١) سورة المعارج ، الآيات ١٩ — ٣٥

شروره ، والرسول يقول : (من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه)[١].

* * *

وبعد ، فإن العيد يجيء امتحاناً للإيمان ، وإعلاناً لما أفدناه من صيام رمضان ، فليكن عيد الانتصار على النفس التى صامت شهرها ، وبرت أهلها ، ووصلت ذويها ، ورجعت إلى الله من ظلم الإخوان ، وترويع الجيران والجرى اللاهث مع الشيطان فى كل ميدان ، وأسدت الخير إلى الحزانى الموجعين الذين يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس إلحافاً .

ولنحرص على أن تغمر معانى العيد أبناء إخواننا الذين فقدوا العائل ، وحرموا الكافل ، وصاروا ودائع فى ذمم الأحياء ، فصنائع المعروف عندهم هى جوازنا إلى توفيق الله ورضاه يوم نلقاه .

« إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »[٢] .

(١) رواه البخارى .   (٢) سورة ق ، الآية ٣٧

لبيك اللهم لبيك

فى أيام معدودات من كل عام ، تهفو قلوب المؤمنين إلى بيت الله الحرام ، وتهوى أفئدتهم إلى زمزم والمقام ، ويرنون بأبصارهم وبصائرهم نحو مشرق نور التوحيد ، ومطلع شمس النبوة ، فى مكة المكرمة ، ويمضى السعداء المحظوظون فى سباق طيب ، وتنافس محبب ، إلى أخذ الأهبة ، وإعداد العدة لتلك الرحلة الروحية التى لا يكمل إيمان القادرين إلا بها . .

ومن حق البلد الحرام أن يطول إليه الشوق ، وأن يتصل به الوجد ، وأن نبتغى إليه الوسيلة ، لنقضى لأرواحنا بعض الحظوة ، بالحياة بين الرحاب الرحيمة التى استقبلت محمداً صلوات الله عليه ، يتيماً فآواه مولاه ، وأمياً فعلمه واجتباه ، وأرسله رحمة للعالمين . وصدق الله العظيم :

« ألم يجدك يتيماً فآوى ● ووجدك ضالا فهدى ● ووجدك عائلا فأغنى ● فأما اليتيم فلا تقهر ● وأما السائل فلا تنهر ● وأما بنعمة ربك فحدث »(1).

« وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم .. »(2)

ومن حق البلد الآمن أن يطوى المؤمنون جوانحهم على محبته وإعزازه ، بقدر إعزازهم لأنفسهم التى جعلها الله بالإسلام ، الذى ذاع منها ، وبالنبى الذى استعلن بأمر الله فيها « خير أمة أخرجت للناس » .

بهذه المشاعر الهائمة ، يحيا المؤمنون فى هذه الأيام ، وكذلك كانوا ، منذ اللحظة الأولى التى أعلن فيها القرآن الكريم دعاء إبراهيم : « رب اجعل هذا البلد آمناً واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام ● رب إنهن أضللن كثيراً من الناس ، فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم ● ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك

(1) سورة الضحى ، الآيات ٦ – ١١ (2) سورة الشورى ، الآية ٥٢

المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ... »[1].

ومنذ بلغهم نداء الله لخليله : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ● ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعـام ، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير ● ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق »[2].

ومن ذا الذى يسمع هذا الرجاء وذلك النداء ثم لا يهزه الحنين إلى أطهر البقاع ؟ ولا يغالبه الشوق إلى أشرف المنازل ؟ !

ومن ذا الذى تواتيه الحظوظ وتسعفه فرص الحج ، ثم لا يبادر بأداء هذه الشعيرة ، التى أوجبها الحق سبحانه بقوله : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا »[3] ولا يسارع لاستجلاء هذه المشاهد التى تروى تاريخ الإسلام فى أطواره جميعاً ، سرياً وجهرياً ، مكياً ومدنياً ؟ ويملأ سمع الأيام والليالى بما واجه رسول الله ، فى أداء رسالة الله ، من رضى وخصام ، وحرب وسلام ، كان صلوات الله عليه ، فى جميعها : الأسوة الحسنة ، والرحمة العامة ، والتفسير الإلهى لقول الله تعالى فيه : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم »[4].

* * *

ألا ما أحوج المسلمين ، فى شرق الدنيا وغربها ، وقد تفرقت بهم السبل ، وعميت عليهم الأنباء ، إلى فريضة الحج ، لتذكرهم بما للآباء فى ذممهم من حقوق ، ما زالوا فى الطريق إلى أدائها ، وليشهدوا — كما قال الله — منافع لهم ، فى رأس قائمتها نعمة التعارف والأخوة التى يفيضها المؤتمر الإسلامى العام ، ففيه يتواصون بالحق ، ويستعرضون مشكلاتهم ، ويضعون الخطط الرشيدة الهادية لبناء الأمة الواحدة التى استهدفها رسول الله صلوات الله عليه ، والتى إن قامت بينها فواصل الأرض ، فلها من وشائج الإيمان ، وعواطف الرحم الماسة ، وتداعى الأمم عليها كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، ما يجعلها ، فى الشدة والرخاء ، قلباً واحداً ينبض بالأخوة ، ورأياً مفرداً يمضون معه إلى مواطن

---

(١) سورة إبراهيم ، الآيات ٣٥ — ٣٧

(٢) سورة الحج ، الآيات ٢٧ — ٢٩

(٣) سورة آل عمران ، الآية ٩٧ (٤) سورة التوبة ، الآية ١٢٨

العزة والقوة ، (كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[1].

.. وإنما تحيا هذه الأمة الواحدة فى أضواء الإسلام وتعاليم محمد عليه الصلاة والسلام ، ولا غنى للذين ينشدون سلام العالم ورفاهيته عن وساطة الإسلام فى ذلك .

وسائلوا المنصفين من علماء الدنيا ، فأقوالهم فى ذلك الجانب ، تشهد بالمحظات الكريمة التى تحياها ضمائر الناس حيناً بعد حين !

* * *

والحج فى حقيقته ومغزاه ، هجرة إلى الله ، واعتراف عملى بأنه أكبر من الأهل والمال والولد والجاه ، وأعز من كرائم الحياة التى ندعها وراء ظهورنا راضين ، ونحن نستقبل بعض التقشف فى أداء هذه المناسك .

(الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ؛ لا إله إلا الله ، والله أكبر ، الله أكبر ، ولله الحمد ؛ الله أكبر كبيراً ، والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلا ..) .

بهذه الوحدانية الحقة تجيش الضمائر ، وترتفع الحناجر فى أماكن ارتفع فيها صوت محمد وصحبه ، حتى صدقهم الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

وبهذه العقيدة الخالصة يصدر وفد الله عن مكة بعزم صادق على أن لايدنسوا بالإثم أيدياً وضعوها فى يد الرحمن ، وهم يستلمون الحجر الأسود أو يشيرون إليه ، أو هكذا ينبغى أن يكونوا ، حتى يعطوا من أعمالهم ومشاعرهم ، صور الحج المبرور ، بعد أن نزلت عليهم السكينة ، من فوق عرفات ، وغشيتهم الرحمات ، وباهى بهم الحق سبحانه ملائكته فقال : (عبادى جاءونى شعثاً — أى ثائرى الشعور زاهدين — غبراً ضاحين من كل فج عميق يرجون جنتى ، أشهدكم يا ملائكتى أنى قد غفرت لهم)[2].

* * *

فلتغتبط أنفس المحظوظين بمكة ، وبأول بيت وضع للناس مباركاً وهدى للعالمين ، ولتطمئن قلوبهم بالأمن الذى يفرغه الله ملء مشاعرهم فى مقام إبراهيم ، فلا يذكرون هناك غير السماحة والعفو ، وعزائم الخير للإخوان بكل مكان .

---

(١) رواه أحمد وابن حبان فى صحيحه. (٢) رواه البخارى .

وما أكثر ما يعطى حج بيت الله ، والسلام على رسول الله فى مسجده ، من معان وعبر ، وما يثمران من نافع الثمر وجليل الأثر ، فعندهما تشحذ على طاعة الله العزائم ، ومن ينبوعهما يغسل الله الخطايا والمآثم ، وهنالك تستحكم الألفة بين المسلمين ، بعد أن زالت من بينهم فوارق الغنى والفقر ، وانمحت فواصل اللون والجنس ، وسيطر عليهم إيمان ويقين بأن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب .

وفى حفظ الله ورعايته يحمد وفد الله الرواح ، ويكونون فى أوطانهم سدنة الحق ، وهداة الخلق ، وألسنة الصدق للإسلام ، يحفظون وحدة أممهم ويعلون بأيديهم وعزائمهم راية دينهم (والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة)[١] .

---

(١) رواه البخارى .

الحج أشهر معلومات

الإسلام دين النظام ، وقت الله لكل عبادة من عباداته وقتاً ، وحدد لها زمناً ، فللصلاة أوقاتها الخمسة ، لاتؤدى واحدة منها قبل دخول وقتها ، وللصيام شهره المعروف ، يمسك الصائمون فى أوقات خاصة منه عما أحل الله لهم ، ويأخذون فى لحظة واحـــدة من ذلك ما رزقهم الله ، وللحج أشهر معلومات ، هى شـوال وذو القعدة وعشر ذى الحجة ، وهى محل الإحرام به من أول لحظة فيها حتى تنتهى مناسكه .

وقد جعل الله لهذه الأشهر الثلاثة ، وهى ميقات الحج الزمانى ، قداسة الحج نفسه ، فنى أيام معدودات منها تستوفى أركانه ، ومن أول شوال يأخذ المؤمنون أهبتهم ويعدون لهذه الفريضة عدتهم ، ثم يخفون إليها رجالا وركباناً ، من كل فج عميق .

وما أجدر أشهر الحج بهذا التمجيد فى الدين العظيم ، فقد كان خير الله فيها مزيداً على خالقه .

ففيها التقى آدم وحواء بعد طول فراق !

وفيها أقدم إبراهيم على الوفاء بما أسلف به الله من عهد ، وأمضى من وعد .

وأذعن إسماعيل لإرادة أبيه ، حتى فداه الله بذبح عظيم !

وفيها فريضة الحج ، ذلك الركن الوثيق ، الذى أوجبه الحق تعالى على المسلمين فى السنة التاسعة من الهجرة بقوله :

« ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا .. »(١) .

وفرض سبحانه إتمام أركانه ، وإفراده بالنية عن عزائم المنافع الخاصة ، فقال : « وأتموا الحج والعمرة لله »(٢) .

ومن خصائص هذه الشعيرة ، دون شعائر هذا الدين ، أنها فريضة العمر ، تؤديها مرة واحدة فى عام ، فيكمل دينك ، وتسقط فرضيتها عنك ، وأننا نهجر من

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٩٧ (٢) سورة البقرة ، الآية ١٩٦

أجلها الديار والأوطان ، ونخلف وراء ظهورنا الأهل والمال والولد . ونخلع بالإحرام مألوف ثيابنا التي طالما فرقتنا في المجتمع ، لنرتدي ثياباً يستوي فيها الغني والفقير ، والسيد والمسود ، لأن القوم حينئذ وفد الله ، الذي يفاضل بين عباده ، في هذا المكان وفي كل زمان ومكان ، بالتقوى ، وأنعم بها من زاد ولباس !

وفي الحج نتجشم مشاق السفر ، والتقشف والحرمان — محرمين — مما أحل الله لغير المحرم والصائم في بعض ما يدع لله .

وقد اجتمع في هذه الفريضة ما تفرق في سواها من الفرائض من معان .

فهي عبادة بدنية ، روحية ، مالية ، اجتماعية ، يلتقي فيها المؤمنون ألواناً شتى ، وألسنة متباينة ، فينمي المؤتمر الأكبر فيهم عواطف الاجتماع ، والتآخي والتعاون بين شعوبهم وأممهم على ما يبلغ الجميع رضوان الله وصفو الحياة ، ويطبعهم على حب الخير العام حين يرون شعوباً عزت بالدين ، وأخرى هانت بقدر هوانه عليها ، وتملأ هواتف الإيمان قلوبهم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم)(١) .

* * *

ومن عجب أن نعد لهذه الرحلة المباركة زادها ، ونهيئ مطالبها المادية ، قبل أن نملي لعقولنا وقلوبنا في أحكامها وآدابها ، وما ينبغي لها من خلائق وصفات ، وإذا كنا نلزم أنفسنا ، حيناً من الدهر ، عادات أولئك الذين ننزل بديارهم بعض الوقت ، فإن بيت الله ووفده الكريم أحق بأن نأخذ لها أعظم الأدب ، وأحسن الخلق ، وأرضى الصفات ، وهي بعض ما يشير الله عز وجل إليه في قوله : « الحج أشهر معلومات ، فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج ، وما تفعلوا من خير يعلمه الله ، وتزودوا فإن خير الزاد التقوى ، واتقون يا أولي الألباب »(٢).

والآية التي ذكر الله فيها لفظ « الحج » ثلاث مرات ، معلناً ميقات الفريضة وفرضيتها ، إنما تنهض دستوراً أخلاقياً كاملاً مع ما تدعو إليه من الأعمال الرفيعة ، التي يكون الحج بدونها ضرباً من اللهو الذي يجافي الإسلام ولا يجمل بالمسلم الكريم على مولاه .

فعلى الذين يشرعون في الحج أن يبتغوا له أشرف الوسائل وأكرم المقاصد من

---

(١) رواه الحاكم والطبراني .   (٢) سورة البقرة ، الآية ١٩٧

الكسب الحلال ، وابتغاء مغفرة الله ، وربط المسلمين بعروة الإسلام الوثقى ، والتخلص من مظالم العباد ، فما أكثر الذين يحبطون أعمالهم قبل المضى فيها ، بعوادى الإثم ، وعزائم السوء ، والإصرار على الظلم ، والتكثر من المال الحرام .

إنهم يذهبون إلى هذه الرحاب العزيزة بذنوب قليلة ، ثم يعودون وقد ربت الذنوب ، وثقلت الكواهل بما لم يغفر الله منها ، وكم أزعجوا الناس وهم يقولون : (لبيك اللهم لبيك) ، فقيل لهم : (لا لبيك ولا سعديك وحجك مردود عليك) .

وما أشبههم فى الاستهتار بالأوزار والعبث فى مواقف الجد ، بذلك الذى قال :

هل الله عاف عن ذنوب تكاثرت ... أم الله ، إن لم يعف عنها ، يعيدها

ولو أن هؤلاء الإخوة حاسبوا أنفسهم ، فتحرزوا عن الخنا ودواعيه ، والزنا ومقدماته ، وردوا أنفسهم — ما داموا محرمين — عما كان مباحاً لها فى الحل من الصيد والطيب والزينة ، وتركوا الجدال — الذى كان شيمة قبائل تنافرت فى القديم ، وتفاخرت ، وتابعها الأحفاد والذرارى فى ذلك — فى هذه الأماكن التى لا يزكو فيها شىء كما يزكو ذكر الله وتمجيده ، والتواصى بالحق والتواصى بالصبر ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

لو أن هؤلاء فعلوا ذلك ، لكان أشبه بما ينبغى لبيت الله من رعاية وتوفير ، ولكان أملا نبيلا ، وعملا جليلا من الحاج ، وهو يتمثل ربه فى منزل الوحى ، ومهبط التنزيل ، وفى تلك البقاع التى درج عليها محمد صلوات الله عليه فى أطوار حياته ، حتى اصطفاه مولاه لأداء رسالاته ، وترك فيها للدنيا أجمع ما عرفت من شرائع وكلمات .

* * *

ولقد عرف أسلافنا لهذه الفريضة قدرها ، فكانوا يتحرزون فيها من التجارة حتى لا يغلبهم شىء من الشقاق والجدل الذى يثور كثيراً بين البائع والمشترى ، وكانوا يسمون التاجر (الدّاج) تشبيهاً له بالدجاجة التى تلتقط من هنا وهنا ، ويقولون هؤلاء الداج وليسوا بالحاج ، حتى نزل قول الله تعالى : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم .. »[1].

(١) سورة البقرة ، الآية ١٩٨

ولقد تختلف وجوه الرأى فى أممنا ، وتغفل عن مثل نداء الله لها : « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم .. » [١] .

فتكون فريضة الحج طوق النجاة ، للذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءتهم البينات ، ويكون للأماكن المقدسة وحيها الخاص ، وحديثها إلى الأرواح ، ويكون لاحتشاد المسلمين فيها ، تذكير بالأخوة الإسلامية التى سيطرت على بعض القلوب دونها الأنانية البغيضة ، والأثرة الهادمة ، والاستعلاء فى الأرض بغير الحق ، ويعودون منها ، وقد عقدوا الخناصر ، وشدوا الأواصر ، وصح العزم على أن يذودوا من بينهم دواعى الفرقة ، ويعتصموا بحبال الألفة ، ويؤكدوا عهود التناصر والتآزر ، حتى يسلم من التداعى بنيانهم ، وتأمن من مكر الماكرين أوطانهم ، وتمضى الأمم الإسلامية صفاً واحداً ، يعيد للدنيا من جديد مجد العرب وعزة الإسلام ، وما ذلك ، إن أردناه ، وأعان عليه الله من المؤمنين ، ببعيد !

* * *

والآية التى بينت ميقات الحج ومناسكه ، وأوجبت له التصون من مزالق القول والعمل ، تشيع فى النفوس فعل الخير ، وإسداء المعروف ، واصطناع الأيادى عند أولئك الذين لا يستطيعون فى اغترابهم حيلة ، وتشير إلى أن ذلك الخير لا يخفى على من يقول : « وما تفعلوا من خير يعلمه الله »[٢].

وما أجزل ثواب الخير فى هذه المواطن التى فزع فيها الخليل إبراهيم إلى ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوى إليها ، و تهفو نحوها ، والحجيج الصالحون هم بعض الثمرات التى تجبى إلى تلك البلاد الآمنة ، ويوم أطلق الصلف الكاذب ، والكبرياء الذليل ، ألسنة الكافرين ، فقالوا للرسول ما حكى الله عنهم .. « وقالوا إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا .. »[٣].

طامن الله من جبنهم اللاهف بقوله : « أولم نمكن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شىء رزقاً من لدنا ولكن أكثرهم لا يعلمون »[٤].

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٤٦ (٢) سورة البقرة ، الآية ١٩٧
(٣) سورة القصص ، الآية ٥٧ (٤) سورة القصص ، الآية ٥٧

وامتن الله بذلك مرة أخرى فقال : « أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ، أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون »[1].

وحكى الله من ضراعات خليله قوله :

« وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر »[2].

ولم يجب الله ذلك إلا لمن آمن واتقى ، قال تعالى من ضراعات خليله عليه السلام :

« ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون »[3].

أما بعد .. فلقد أعلا الله من قدر هذه الفريضة ، فسمى باسمها سورة الحج ، وتناول فى آياتها ، إلا قليلا منها ، آداب الحج ومناسكه ، منذ عهد إبراهيم عليه السلام حتى أتم الله على الناس نعمته بالإسلام .

فاستوحوا أيها المؤمنون مغازى الحج وحكمه من هذه الآيات ، واذكروا دائماً قول الله تعالى : « وتزودوا فإن خير الزاد التقوى واتقون يا أولى الألباب »[4].

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٦٧
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٢٦
(٣) سورة إبراهيم ، الآية ٣٧
(٤) سورة البقرة ، الآية ١٩٧

من مناسك الحج :

رمى الجمرات

كلفنا الله تعالى بتكاليف وعبادات ، يجب أن نذعن فيها لأمره ، وننزل على حكمه ، سواء بدت حكمة الله فيها أم لم تبد لنا ، فالمؤمنون يعطون الله من أنفسهم خالص الإيمان ، وصادق الإذعان ، وعميق الطاعة والانقياد .

« إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون • ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون »[1].

ونحن فى واقع حياتنا ، لا نسأل الصيدلى ، الذى يقدم لنا الدواء ، عن عناصره ، ما عددها ؟ وما مفعول كل واحد منها ؟ وهل نستطيع اختصار بعضها ، أو الزيادة عليها ؟ !

فكيف لا نعطى المعصوم ، صلوات الله عليه ، وهو لا ينطق عن الهوى ، من ثقتنا ما نعطى الناس فى أقل القليل ؟!

* * *

ورمى الجمرات من هذه المناسك ، التى قال فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم : (خذوا عنى مناسككم)[2].

عاينها أصحابه منه ، وسمعوا روايته لها ، وتناولتها الأجيال خلفاً عن سلف ، باقتناع ويقين ، حتى عصرنا هذا المادى ، الذى نتساءل فيه عن حكمة كل شىء ، وإن كان أمر الله وعمل رسوله !

إن فى كل عمل ظاهر من أعمال الحج معنى يوحيه ، ويشير إليه .

ففى التلبية ، والسعى ، والطواف ، والتماس الحجر الأسود ، والوقوف بعرفة ،

(١) سورة النور ، الآيتان ٥١ و ٥٢ (٢) فى حديث جابر أخرجه مسلم .

تمثل لتاريخ هذه الشعائر ، وإنصات للشخصية الكريمة التى عاصرتها ، واتصلت بها من لدن آدم ، إلى إبراهيم وإسماعيل ومحمد صلوات الله عليهم ، وصحبه الذين عزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ، حتى جاء نصر الله والفتح ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

ورمى الجمرات واحد من هذه المناسك التى إن اختلفت الأنظار فى إدراك معناها ، وفهم مغزاها ، فلن تختلف فى أن رمى الجمرات ، رمز لانتصار الحاج على وساوس الشيطان وهواجسه وتسويله ، فكم قعد بأطرقنا ليصرفنا عن أداء هذه الفريضة ، وهو يصور لنا عناء الاغتراب ، ومشاق السفر ، وحرقة الحنين إلى الأهل والعشيرة ، وشغل النفس بما خلفنا وراء ظهورنا من أموال وأعمال ، ولكننا أعلنا ، منذ اللحظة الأولى ، أن الله أكبر من هذه الكرائم مجتمعة ، وأمارة ذلك ، أننا نتتبع مواقف الشيطان ، حيث عرض للخليل عليه السلام ، لنرجمه فيها ، طرداً له وقطعاً لأمله فينا ، كما رجمه إبراهيم حين أراد أن يحرضه على معصية الله ، فأظهره الله عليه فى تلك البقاع التى بقيت فيها أوثان قديمة وأصنام عرفتها قبل الإســلام أمم وأمم ، ويراها الحجيج فكأنما يرون فيها ظلمة الوثنية وضلال الشرك ومكر الشيطان كله !

وبقى الرمى مشروعاً من يوم إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه وعلى سيدنا محمد الذى كان يقول فى الحج ما لم يقل فى عبادة غيرها : (لبيك بحجة حقاً ، تعبداً ورقاً) .

* * *

ورمى الجمرات وهو العبادة الخاصة ، التى أرادها الله مع التكبير فى أعقاب الصلوات وتقديم الأضاحى بقوله « واذكروا الله فى أيام معدودات ، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى ، واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون »(١) .

فبعد السعادة بالوقوف بعرفة ، والمبيت بمزدلفة ، والإصباح بالمشعر الحرام حيث يقول الله : « فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين * ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم * فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم .. »(٢).

وتؤخذ الجمرات من حصى المزدلفة وغيرها مما لم يرم قبلا ، وليس للإسلام شروط فى الحصى ، بل يجوز الرمى بما يقع عليه اسم حصاة ! !

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٠٣ (٢) سورة البقرة ، الآيات ١٩٨ — ٢٠٠

فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم غداة العقبة وهو على راحلته : (هات التقط لى ، فلقطت له سبع حصيات من حصى الحذف ، فلما وضعتهن فى يده قال : بأمثال هؤلاء ، وإياكم والغلو فى الدين ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو فى الدين) .

وفى ذلك ذكرى لمن يشقون على أنفسهم ، بالتماس كبار الحصى !

وترمى جمرة العقبة يوم النحر ، من طلوع الشمس إلى الزوال ، بسبع حصيات ، يكبر مع كل واحدة ، وتقطع التلبية عند أول حصاة ، فإذا انتهيت منها فاذبح الهدى إن كان معك ، ثم احلق ، أو قصر ، وائت مكة فطف بالبيت طواف الإفاضة ، وصل ركعتى الطواف ، واسع بين الصفا والمروة ، وأبشر فقد حل لك كل شىء إلا النساء والطيب .

ثم عد إلى منى فى بقية يوم النحر ، واقض ليالى أيام التشريق الثلاثة بها ، فإن ذلك من شعائر الحج ونسكه ، وعلى من أسقط من ذلك شيئاً دم .

وترمى الجمرات فيها بعد الزوال إلى أكثر الليل ، فلقد كان رسول الله صلوات الله عليه يرمى الجمرة التى تلى مسجد الخيف بمنى ، بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة ، ثم يتقدم أمامها فيقف مستقبلا القبلة ، رافعاً يديه ، ويدعو ، وكان يطيل الوقوف ، ثم يرمى الوسطى ، ويأخذ ذات الشمال ، فيسهل ، ويقوم طويلا مستقبلا القبلة ، وهو يدعو رافعاً يديه ، ثم يأتى الجمرة التى عند العقبة — وهى أقرب الجمار إلى مكة — فيرميها من بطن الوادى بسبع حصيات ، ويكبر مع كل حصاة ، ولا يقف عندها ، ثم ينصرف(١) .

ويجوز أن يرمى فيها يومين ، وينفر إلى مكة فى اليوم الثالث ، قال تعالى : « فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ، ومن تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى » !

* * *

ويحرم الصوم فى أيام التشريق الثلاثة ، فهى مع رمى الجمرات على ما ذكرت ،

(١) رواه البخارى عن سالم عن ابن عمر ، وأخرجه مالك ، وهو موقوف على نافع قال : إن عمر كان يقف عند الجمرتين الأولين وقوفاً طويلا يكبر الله ويسبحه ويحمده ويدعو الله ، ولا يقف عند جمرة العقبة .

أيام أكل وشرب وصدقة من ذبائح يوم النحر ، قال تعالى : « فكلوا منها وأطعموا البائس والفقير »[١].

والرسول يقول : (أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله)[٢].

وبتمام ذلك يتم للحاج حجه ، ويحل له ما حرم بالإحرام عليه ، ويعود من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه) .

أرأيت يسر الإسلام فى تكاليفه لهؤلاء الذين يحبون أن يشددوا على أنفسهم ؟

والله يقول : « ما جعل عليكم فى الدين من حرج »[٣].

---

(١) سورة الحج ، الآية ٢٨

(٢) رواه البخارى .

(٣) سورة الحج ، الآية ٧٨

اسرار وأنوار

يقول صديقك : (قام الإسلام يحارب الوثنية ؛ فما هذا الصخر الضخم المقدس الذى نحج إليه ، ونطوف به ، وندعوه الكعبة ؟ وما هذا الحجر الأسود الذى نستلمه ونلثمه فى الطواف) ؟ !

ولو عرف صديقك — يا أخى — ما هى الوثنية ، لاستراح ، وأراح من سؤاله هذا ، فى صورته الساخرة ..

فالوثنية التى حاربها الإسلام ، وحاربتها من قبله رسالات الله جميعاً ، هى عبادة الأصنام ورجاء نفعها ، والقرآن الكريم يكشف هذا المعنى فى سلوك الناس ، ويرد عليه بما يصرف عنه .. قال تعالى على لسان قوم نوح : « وقالوا لاتذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً * وقد أضلوا كثيراً ... »(١) .

وقال تعالى : « وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون إفكاً ، إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له ، إليه ترجعون »(٢) .

فهل تعظيم الكعبة واستلام الحجر الأسود من قبيل عبادة هذه الأصنام ؟

كلا أيها السائل ، فإننا نجل الكعبة والحجر وما وراءهما من مشاعر الحج لأسرار جلية ، ولأن الله قد تعبدنا بأمور من الواجب أن نذعن له فيها ، وأن نطمئن إليها أوثق اطمئنان حتى تتحقق طاعتنا له سبحانه .

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً »(٣) .

وكم نعطى ثقتنا لكثيرين من العلماء والحكماء والساسة ، ونصف آخرين ببعد النظر

(١) سورة نوح ، الآيتان ٢٣ و ٢٤ (٢) سورة العنكبوت ، الآيتان ١٦ و ١٧
(٣) سورة الأحزاب ، الآية ٣٦

وحسن التقدير للأمور ، على حين نتساءل فى الأمر يقدره الله ويأمر به ، أو يأمر به رسوله . ماذا يعنى هذا الأمر أو ذاك؟ وما هى الحكمة فيهما إذا لم يكن ذلك مراداً جلياً؟!

وأخلص إلى بيان السر فى الطواف بالكعبة واستلام الحجر اللذين لانقدسهما لخاصة فى معدنيهما أو لميزة فى تربتهما .

فالكعبة بما تحمل من ذكريات إبراهيم وإسماعيل ، وهما من هما فى أبوة المسلمين وبناء الحنيفية السمحة قال تعالى : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم »(1) .

« وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ، ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل ، وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس »(2) . إن الكعبة بهذا جديرة بإثارة عواطفنا بالحج إليها والطواف بها ، ودعاء الله عندها ، وإرهاف السمع إلى ما ترويه من ذكريات وأمجاد .

وقد زعم اليهود أن بيت المقدس أحق بالحج إليه من الكعبة ، فنزل قوله تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات ، مقام إبراهيم ، ومن دخله كان آمناً ... »(3) .

فهذا البيت أولى بالحج إليه ، لأنه أول بيت وضع للناس (فى الأرض) . ثم أليست الكعبة هى التى نستقبلها فى صلاتنا لله ؟ وهى هى الجامعة الوثقى التى تلتقى عندها ، من مختلف جوانب الأرض ، القلوب الخاشعة ، والوجوه الساجدة الراكعة ؟ !

ولقد تسأل : لماذا تتجه إليها القلوب والوجوه ؟

وقبل أن أجيبك ، أهتف فى أذنك : إن مجرد الاتجاه إليها لا يعنى عبادتها ، فنحن نتجه فى كل لحظة إلى ما نريد من الناس والمتاع ، دون أن ينكر منا هذا الصنيع أحد أو يتهمنا به فى دين أو عقيدة .

وحسبى وحسبك أن أوجز لك قول السيد رشيد رضا فى تفسير آيات سورة آل عمران :

---

(1) سورة البقرة ، الآية ١٢٧ (2) سورة الحج ، الآية ٧٨
(3) سورة آل عمران ، الآيتان ٩٦ و ٩٧

(إن الناس فى حاجة إلى التوجه لخالقهم ، وشكره والتوسل إليه ، لما فى ذلك من الفائدة لهم ، ومن رحمته تعالى أن حدد لنا مكاناً ، نسبه إليه ، فسماه بيته ، رمزاً إلى أن ذاته العلية تحضره ، فإن استحال ذلك ، فإن رحمته الإلهية تحضره ، وجعل التوجه نحوه بمثابة التوجه للذات العلية ، ولو كلف الله عباده بعبادته ، بعد أن أعلمهم أنه ليس كمثله شىء ، لوقعوا فى الحيرة ، لا يدرون كيف يتوجهون إلى ذات غيبية مطلقاً ، ولو اختار بعضهم لنفسه عبادة تليق بهذا التنزيه الذى أرشد إليه الكتاب ، وصدقه العقل ، ما اهتدى إليه الآخرون ، وبذلك يفقد المؤمنون الجامعة التى تجمعهم على أفضل الأعمال التى تؤلف بين قلوبهم) ! !

(إن فى هذا الكلام لمقنعاً وبلاغاً لقوم يعقلون) .

* * *

أما الحجر الأسود فحسبه من القداسة أنه وجد منذ وجد البيت الحرام ، وشاهد من الأحداث ما شاهد ورواها للناس ، وإلى الأبد ، وأنه يحدد مبدأ الطواف بالبيت الذى هو تحية الكعبة ، والطواف ركن من أركان الحج لابد لأدائه من الدقة والنظام ، وما يكفلهما شىء ، كالمحافظة على استلام هذا الحجر ، أو الإشارة إليه ، وجميع العبادات الإسلامية تدعو إلى توجيه الروح لخالق ، وتطهير النفس من الأدران والمفاسد ، والتزام النظام ما استطعنا !

فأية وثنية فى تعظيم حجر يحدد لنا مناسك الحج ؟

والدول تنفق طائل المال والجهد على حدودها من أجل صيانة سيادتها على أرضها ، ورد كل غارة على بقعة معلومة لا ينبغى أن تنازع عليها .

ونحن ندين بما كان يدين به أبو حفص عمر ، فنستلمه كما استلمه رسول الله وقبله ، ونقول مع أمير المؤمنين : (اللهم إنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك) .

ولقد سأل رجل ابن عمر رضى الله عنهما عن استلام الحجر ، فقال : (رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستلمه ويقبله)[1] .

وما ينبغى أن تستبد بمنصف دهشة وابن عمر يقول : (استقبل رسول الله صلى

---

(١) رواه البخارى .

الله عليه وسلم الحجر ، ووضع شفتيه عليه يبكى طويلا ، ثم التفت فإذا هو بعمـر ابن الخطاب يبكى ، فقال : يا عمر ههنا تسكب العبرات)[1] .

ورضى الله عن حبر قريش أن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم قال : (نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن فسودته خطايا بنى آدم والله ليبعثنه الله يوم القيامة له عينان ينظر بهما ولسان ينطق به يشهد على من استلمه بحق)[2] .

وعن ابن عمرو بن العاص أن الرسـول صلى الله عليه وسـلم قال : (يشهد لمن استلمه بالحق ، وهو يمين الله عز وجل يصافح بها خلقه)[3] .

وبعــد .. فلم يبق ، لكمال الإقناع ، إلا أن يرى السائل بعينيه هذه الكعبة التى يتساءل عن حكمة الحفاوة بها ، والحجر الذى نستلمه ونلثمه فى الطواف ، فسوف لا يملك نفسه دون الطواف والاستلام مأخوذاً بنور هذه المناسك وجلالها العظيم (ومن ذاق عرف) : كالذى يقول :

هــذه دارهم وأنت محب ... ما بقـاء الدموع فى الآمـاق

قال ابن الجوزى : حـج جماعة من العباد فيهم عابدة فجعلت تقـول : أين بيت ربى ؟ أين بيت ربى ؟ فيقولون : الآن ترينه :

إذا دنت المنـازل زاد شوقى ... وواشوقاه إن دنت الخيـام

فلما لاح البيت قالوا : هذا بيت ربك ، فصاحت فى شوق لاهف ، بيت ربى ! بيت ربى !

هــذى منـازلهم وذلك ماؤهم ... فاحبس ورد وشرقت إن لم تسقنى

ومرة أخرى : (من ذاق عرف) .

---

(١) رواه الحاكم وغيره .
(٢) رواه أحمد والترمذى وقال حسن صحيح وابن ماجه والدارمى .
(٣) رواه الطبرانى فى الأوسط وابن خزيمة فى صحيحه .

أما بعد ..

فلقد استعرضت بعض انحرافات الأفراد، وضلال المجتمعات عن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وحرصت على أن أقدم من مصادرى الشريعة الأولين ، نوراً يمشى به الأحياء على صراط الله سعداء .

وكنت أوثر الرفق ، جهدى ، بالذين يتشبثون بالباطل من بعد ما تبين لهم الهدى والذين يتبعون غير سبيل المؤمنين ، وقد كان وسيكون سبيل الرفاهية والرخاء وحده فمحضتهم النصح ، وضربت لهم الأمثال ، وجعلتهم وجهاً لوجه أمام حاضر أذلتهم فيه غفلتهم عن الله ، وماض عزيز كانوا فيه بالإسلام ألوية العدل ، وموازين الحق، وألسنة الصدق، ورحاب السكينة وظلال السلام الآمن: «... خير أمة أخرجت للناس».

وربما رفهت بما يناسب من الطرائف الواعظة ، والفكاهة الحافزة إلى الخير ، مع ما ذكرت من التاريخ الذى يهيب بنا أن نلتفت إليه بقدر ما يضىء آفاق حاضرنا وطريق مستقبلنا ، ويمدنا ببرد اليقين بأن لحق المصير ، وإن استنسر البغاث، واستطال بالباطل أشباه الرجال ! !

وتبرز فى (قبس من الإسلام) عناصر كررت فيها القول ، ولونت الحديث ، وأفسحت لها أماكن جلية فى مناسبات كثيرة ، بعد أن لبستها الأهـواء على النـاس وطمسها فى أنفسهم الجهل ، وغرهم بالله الغرور .

فالدين شرع الله وهداه وسبيل رضاه ، وهو يكفل سكينة القلوب وقرة العيون، وإن قلت أموال المؤمنين أحياناً ، وحرموا بعض اللمعان فى حياة كل لمعانها اليـوم صناعى ظاهرى .

وإلى هؤلاء الذين يطلبون من الدين أن يطعمهم الخبز والزبد ، ويوفر لهم الشهد ، ويتابع فيهم أيام الحياة ضاحكة مستبشرة ، لا نصب فيها ولا تعب ، ولم تكن هكذا يوماً لأحد :

ومكلف الأيام ضد طباعها ... متطلب في الماء جذوة نار

إلى هؤلاء أسوق قصة مادي ضال . لعلهم يتذكرون .

قال أبو سعيد الخدري : أسلم يهودي فذهب بصره وماله ، فتشاءم بالإسلام ، فأتى النبي صلوات الله عليه ، فقال : أقلني ، فقال النبي : إن الإسلام لا يقال ، فقال الرجل : إني لم أصب في ديني هذا خيراً ، ذهب بصري ومالي وولدي ! فقال صلوات الله عليه : (إن الإسلام يسبك الرجال بالشدائد كما تسبك النار خبث الحديد والذهب والفضة) .

ونزل قول الله تعالى : « ومن الناس من يعبد الله على حرف ، فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين »(١) .

ويرى ابن عباس أنها نزلت في أقوام كان الواحد منهم يقدم المدينة ، فإن ولدت امرأته غلاماً ، ونتجت خيله ، قال : هذا دين صالح ، فإن لم تلد امرأته ، ولم تنتج خيله ، قال : هذا دين سوء .. فنزلت !

* * *

والقرآن كتاب الله ، لا ينصرف عن أوامره ونواهيه وتكاليفه مؤمن يرى أعلام الحق ومشاهد السلام التي أقامها الإسلام في جوانب دنيا الناس .

والسنة كلام المعصوم الذي جعل الله الفلاح والهدى في طاعته واتباعه عليه الصلاة والسلام في كل ما صح مما أخذه وتركه وأقره .

قال تعالى : « وإن تطيعوه تهتدوا ... »(٢) .

والجهود الطيبة التي بذلها الأولون ، ويبذلها من بعدهم خلف كريم ، في تجريد الحديث وتنقيته مما دسه الهوى على الرسول ، جهود تشرف الأسلاف والأخلاف ، وتجعلنا نرى حملة التشكيك فيه في جرائد وعلى ألسنة أدعياء المعرفة بيننا ، ضرباً من التفاهة واللغو الذي يمر به المؤمنون كراماً بعد أن أضاءوا أقباساً من الإسلام ستبقى

---

(١) سورة الحج ، الآية ١١ (٢) سورة النور ، الآية ٥٤

كعصا موسى التى تلقف ما يأفك الظالمون ، وأين فلان وفلان وبيئات معروفة ، وإن أمعنت فى اختفائها وتسترها ، من قمة الحديث النبوى الشامخة ؟!

ما يضر البحر أمسى زاخراً إن رمى فيـه غـلام بحجر !

ووحدة الصف الإسلامى شرط فى الإسلام وهدف عزيز ، كرمه القرآن، ومجدته السنة ، واحتمل الرسول فيه ما لا يحمل البشر من أذى وعناء ، حتى ربا الإيمان فى القلوب على معانى الأبوة والأخوة والقربى للمشركين ، فخاصم أبو بكر أباه فى الله ، وصرع أبو عبيدة عامر بن الجراح فى بدر أباه ، وشاطر سعد بن الربيع الأنصارى أخاه المهاجرى عبد الرحمن بن عوف ماله فشكر له ما عرض وتركه له وقنع منه بأن يدله على سوق المدينة ، وبقى القرآن يمجد إلى الأبد صنيع الإسـلام بقلوب المسلمين الذين آووا وآثروا ونصروا .

ولقد آثر المسلمون وهم صرعى فى أعقـاب غزوة اليرموك بعضهم بعضاً بشربة الماء أحوج ما كان كل واحد منهم إليها — وشربة الماء أحياناً عدل الحياة — وسارع إليهم الموت ، بعد أن أضافوا إلى قائمة الإيثار والفداء هذا المثل الكبير ..

ولقد أرخيت للنفس العنان ، تستلهم حقائق الوحدة ، وتركت القلم على سجيته يجلو طرائقها ، ويسجل من القديم والحديث فيها ما يدعو إلى الحرص عليها ، والضن بها على مطامع الأنانية ، ودواعى الفرقة والانهزام ، وتحقيق آمال الأعداء المقنعين والسافرين ، فوحدة الأمة هى فطرة الله ، ومنطق الحياة ، ويد بمفردها لا تصـفق وإن اكتنزت باللحم والشحم ! والنبى صلوات الله عليه يقول : (إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ...) .

ومن نافلة القول أن كل عمل مادى ، أو قول لا يهيمن عليه الإسلام ، ويمـد أسبابه ويرسى قواعده ، ويرضى نتائجه وعواقبه ، لا يفلح ولا ينجح ، وهو إن منح شيئاً من النجاح صائر لا ريب إلى أسوإ المصـاير ، إنه ، فى النهـاية ، قبض الريح ! أو كما قال الله : « كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً »(١) .

وسـلامة عناصر الأمة فى شبابها ورجالها ونسائها وحكامها ، وعلمائها ، وجوانب مجتمعها ، أهداف للإسلام الذى لم يكن دين عبادة فحسب فى يوم من الأيام ، ولكنه

(١) سورة النور ، الآية ٣٩

كان دعوة عبادة وحياة كاملة فاضلة وليس دين رجال ... كما يصرخ بهذه الدعـوى فارغون وفارغات يجهلون مكانة الأنثى فى دين الله ، بينما هى فى حضارة القوم شهوات ودمى وألهيات ومتاع قليل .

وليس من الإيمان فى شىء أن تطغى معـانى الحيـاة التى وضعها على حقيقتها ربنا فى كتابه وضرب الرسـول فيها الأمثال على معانى العقيدة فى أنفس المؤمنين ، وهل كانت الجاهلية قبـل أن يتداركهـا الله بالإسـلام إلا هياماً بالحيـاة ، وحرصـاً على العاجلة ؟!

ولقد استوحيت من ركائز الإسلام ومقوماته عقيدة التوحيد ، ومعالى الأمور ، كما استخلصت من الذكريات الإسلامية بعض مبادئها ومثلها ، حتى تأخذ بأيدينا إلى الخير ، ونقرب بها من الجد الذى يحرص عليه المسلمون ..

وأسأل الله أن ينفعنا بما علمنا ، وأن يعلمنا ما ينفعنا ، وأن يزيدنا علماً ، والحمد لله رب العالمين .

محتويات الكتاب

الموضــوع	الصفحة

• المؤلف فى سطور •

معوض عوض إبراهيم

- ولد عام ١٩١٢ فى قرية كفر الترعة الجديد ، مركز شربين ، محافظة الدقهلية ، بجمهورية مصر العربية .
- حفظ القرآن فى كتاب القرية بإشراف شقيقة له كانت من الحافظات ..رحمها الله.
- طلب العلم فى معهد دمياط الدينى عام ١٩٢٦ وحصل على الابتدائية عام ١٩٣٠ ، وكان بين طلاب معهد طنطا حتى حصل على الكفاءة عام ١٩٣٣ وعلى الثانوية عام ١٩٣٥
- وفقه الله فجمع بين علوم الأزهر والتعلق بدراسة الأدب وقراءة الكتب ، ومسايرة الحركات الأدبية والعلمية فى هذه الحقبة من الزمن وفيها نخبة الفقهاء والدعاة والأدباء والشعراء ، وكانت له محاولات فى الشعر والكتابة مبكرة .
- كان بين طلاب كلية أصول الدين من عام ١٩٣٥ – ١٩٣٩
- كان يسهم فى الدعوة هذه الفترة فى الجمعيات الإسلامية ونواديها ومجلاتها حتى تخرج عام ١٩٤١ بإجازة الدعوة من الدراسات العليا بالكلية .
- عمل واعظاً عام ١٩٤٢ متنقلا بين المنزلة دقهلية وأسوان والفيوم وبورسعيد ، وتنقل بالدعوة بين جوانب القطر ..
- سافر مبعوثاً للأزهر إلى لبنان للوعظ والتدريس فى الكلية الشرعية فى بيروت قرابة ست سنوات ، شارك فيها فى الحركة العلمية والأدبية وأعد فى هذه الحقبة للنشر كتابه الأول (الإسلام والأسرة) وكتابه الثانى (قبس من الإسلام) .
- كتب الله لها الذيوع ، فرآهما الراءون ، وسعد بهما العارفون ووجدهما فى مواجهته حين زار اليمن عام ١٩٦٢ فور عودته من لبنان ، وفى الأردن إبان بعثته إليها (١٩٥٦ – ١٩٥٩) .
- عمل مفتشاً للوعظ ثم مراقباً عاماً للوعظ فى الأزهر الشريف والقوات المسلحة .
- تابع إذاعاته فى مصر وإذاعة جدة ، حيث كان من أوائل من أمدوها بكتاباتهم .
- أسهم فى الإذاعة والتليفزيون قبل سفره إلى السعودية مدرساً فى كلية الشريعة بالرياض عام ١٩٧٣ لمدة عامين .

- عمل لمدة عام باحثاً علمياً فى رياسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة برياسة الشيخ ابن باز ، وانتهى من بحث (أبي طالب) و (التيجانية) و (الخلفاء الراشدون) .
- عمل مدرساً لمدة ثلاث سنوات فى كليتى أصول الدين . والحديث والدراسات الإسلامية فى المدينة المنورة حتى آخر عام ١٩٧٩
- كان رئيس إدارة الوعظ فى الكويت (من ١٩٧٩ — ١٩٨٧) وفى هذه الحقبة — كما فى السعودية — أسهم فى حقل الدعوة إلقاء وكتابة ، وفى الإذاعة والتليفزيون فى الدولتين وغيرهما .

● مؤلفـــاته ●

- صدر له فى الكويت بعد كتبه الأولى :

١ — إنسانية العبادات الإسلامية . ٢ — ملامح من هـــذا الدين .
٣ — الإسلام والأسرة . ٤ — قبس من الإسلام .
٥ — مع الإمام البخارى فى صحيحه . ٦ — عنصر الهـداية فى القرآن الكريم .
٧ — ركائز المجتمع المسلم فى سورة الحجرات .
٨ — ذلك الدين القيم .

- هذا عدا بحوث ومحاضرات وندوات إسلامية وأدبية .
- وقد أعد للنشر :

١ — نور من سورة الفرقان . ٢ — الشباب وماذا صنعنا له ؟
٣ — الإسلام يشق طريقه .
٤ — ما قل ودل : فى الدين والأدب والاجتماع .
٥ — من القلب : بعض الشعر الدينى . ٦ — أمة ومنهج .
٧ — التقوى والمتقين . ٨ — السنة النبوية : دراسة ومنهج .
٩ — تحديد النسل ليس هو الحـل . ١٠ — أوائل فى مجال القدوة .

- وإنه ليقطع مع الله عهداً أن يؤدى واجبه ما استمسك القلم بيده ومنحه الله القدرة « وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب » .

• ظهر من هذه السلسلة •

١ — الانتماء فى ظل التشريع الإسلامى : للدكتور عبد الله مبروك النجار .
٢ — السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة : للدكتور عبد المهدى عبد القادر .
٣ — وباء الفتنة والتعصب وعلاجه فى التوراة والإنجيل والقرآن :
للأستاذ السيد إبراهيم سليم
٤ — سعادة الأمة فى العمل بالكتاب والسنة : (كبار علماء الجمعية الشرعية) .
٥ — المنهاج الكامل فى بناء المسلم المعاصر : للدكتور فؤاد على مخيمر .
٦ — الرسول صلى الله عليه وسلم فى مكة والمدينة : للأستاذ محمد مهدى عامر .
٧ — أهمية الصلاة فى حياة المسلم : للدكتور السيد عبد الحكيم عبد الله .
٨ — فى ميزان الإسلام (الجزء الأول) : للدكتور محمد رجب البيومى .
٩ — أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها : للدكتور محمد طلعت أبو صير .
١٠ — فى ميزان الإسلام (الجزء الثانى) : للدكتور محمد رجب البيومى .
١١ — قبسات من نور الرسالة : للدكتور محمد أحمد على محلول .
١٢ — أخلاقنا : للدكتور محمد ربيع جوهرى .
١٣ — التوازن النفسى والاجتماعى فى الإسلام : للأستاذ رمضان الحسنين جمعة .
١٤ — الرسول صلى الله عليه وسلم فى رمضان : للدكتور محمد سيد أحمد المسير .
١٥ — الدوائر الدعائية المعادية للإسلام : للأستاذ حسن على .
١٦ — الرسول صلى الله عليه وسلم — نشأته ودعوته : للدكتور إبراهيم على أبو الخشب .
١٧ — لكى تعود خير أمة : للدكتور السيد رزق الطويل .
١٨ — القرآن يتحدث عن محمد عليه الصلاة والسلام : للدكتور محمد أحمد على محلول .
١٩ — منهاج الله فى هداية البشر : للدكتور فؤاد على مخيمر .
٢٠ — نحو منهج إسلامى فى الفكر الإدارى : للأستاذ أحمد عبد العظيم .
٢١ — الرسول صلى الله عليه وسلم حول الكعبة : للدكتور محمد سيد أحمد المسير .
٢٢ — صفحات هادفة من التاريخ الإسلامى : للدكتور محمد رجب البيومى .
٢٣ — الإسلام وأهمية التيامن : للدكتور السيد عبد الحكيم عبد الله .
٢٤ — الإنسان فى مرآة القرآن : للدكتور محمد أحمد محلول .
٢٥ — الرسول صلى الله عليه وسلم والوحى : للدكتور محمد سيد أحمد المسير .
٢٦ — مجالس العلم فى حرم المسجد : للدكتور محمد رجب البيومى .
٢٧ — من فيض القرآن : للدكتور إبراهيم على أبو الخشب .
٢٨ — نساء خالدات : للأستاذ مأمون يس عبد الله .

٢٩ — الدعوة فى الإسلام عقيدة ومنهج : للدكتور السيد رزق الطويل .
٣٠ — منهج القرآن فى تربية الإنسان : للدكتور محمد عثمان خيمر .
٣١ — ردود إسلامية فى قضايا معاصرة : للدكتور إبراهيم عوضين .
٣٢ — الفتنة المعاصرة وموقف المسلمين منها : للدكتور فؤاد على مخيمر .
٣٣ — العقيدة فى الإسلام : للدكتور السيد رزق الطويل .
٣٤ — الصلاة فى القرآن الكريم : للدكتور فهد الرومى .
٣٥ — حقيقة الإنسان بين المسئولية والتكريم : للدكتور أبو اليزيد العجمى .
٣٦ — هـذه دعوتنـا : للشيخ عبد اللطيف مشتهرى .
٣٧ — التفسير القرآنى : للدكتور محمد رجب البيومى .
٣٨ — فى المحيط الإسلامى : للدكتور إبراهيم أبو الخشب .
٣٩ — أنت تسأل والإسلام يجيب : : للشيخ عبد اللطيف مشتهرى .
٤٠ — عبادة الصيام : للدكتور السيد رزق الطويل .
٤١ — من منطلق إسلامى (الجزء الأول) : للدكتور محمد رجب البيومى .
٤٢ — عنصر الهداية فى القرآن الكريم : للشيخ معوض عوض إبراهيم .
٤٣ — الإسلام دعوة الحق : للدكتور السيد رزق الطويل .
٤٤ — من منطلق إسلامى (الجزء الثانى) : للدكتور محمد رجب البيومى .
٤٥ — موسى واليهود : للدكتور إبراهيم أبو الخشب .
٤٦ — ملامح من هذا الدين : للشيخ معوض عوض إبراهيم .
٤٧ — الرسول وقضايا المجتمع : للدكتور محمد سيد أحمد المسير .
٤٨ — طوبى للغرباء : للأستاذ رمضان الحسنين جمعة .
٤٩ — مع القصص القرآنى : للدكتور إبراهيم أبو الخشب .
٥٠ — اللسان العربى والإسلام معاً فى مواجهة المعركة : للدكتور السيد رزق الطويل .
٥١ — من المثل الإسلامية : للدكتور محمد رجب البيومى .
٥٢ — نظرات فى نظم الإسلام وثقافته : للدكتور مصطفى أحمد أبو سمك .
٥٣ — الإعجاز فى نظم القرآن : للدكتور محمود السيد شيخون .
٥٤ — الإسلام يتصدى لأباطيل المستشرقين والملحدين : للأستاذ سامى محمد شهاب .
٥٥ — من حديث القرآن إلى من نزل عليه القرآن : للدكتور محمود بن الشريف .
٥٦ — إلزام القرآن للماديين والمليين : للدكتور سيد أحمد رمضان المسير .
٥٧ — أخلاق إسلامية من القرآن والسنة : للدكتور الحسينى أبو فرحة .
٥٨ — النظام القضائى فى الإسلام : للدكتور عبد العزيز عزام (الجزء الأول) .
٥٩ — الرسول والموافقات : للدكتور محمد سيد أحمد المسير .

٦٠ – المرأة فى رحاب القرآن (الجزء الأول) : للدكتور محمد أحمد على سحلول .
٦١ – المخدرات وباء الشعوب وسرطان العقول : للدكتور فؤاد على مخيمر .
٦٢ – الإسلام .. والعصر : للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى .
٦٣ – خصائص القرآن الكريم : للدكتور فهد الرومى .
٦٤ – من مشكاة الذكر الحكيم : للدكتور إبراهيم عوضين .
٦٥ – الإسلام فى المجال التطبيقى (الجزء الأول) : للدكتور محمد أحمد على سحلول .
٦٦ – السنة المطهرة بين أصول الأئمة وشبهات صاحب فجر الإسلام وضحاه :
للدكتور سيد أحمد رمضان المسير .
٦٧ – الإسلام .. وأهمية الادخار : للدكتور السيد عبد الحكيم عبد الله .
٦٨ – من حصاد المكتبة القرآنية : للدكتور محمود بن الشريف .
٦٩ – لكى تستعيد أمتنا ذاكرتها : للدكتور السيد رزق الطويل .
٧٠ – فى ظلال السيرة النبوية : للدكتور محمد رجب البيومى .
٧١ – كناسة العطار : للدكتور إبراهيم أبو الخشب .
٧٢ – الجانب الأخلاقى فى العبادات كما تصوره السنة النبوية :
للدكتور محروس حسنى عبد الجواد .
٧٣ – من معين القرآن (الجزء الأول) : للدكتور محمود بن الشريف .
٧٤ – المسجد الأقصى ومعركة النصر والفتح : للشيخ عبد اللطيف مشتهرى .
٧٥ – مع الأمثال القرآنية : للأستاذ محمود سيد على شقير .
٧٦ – مع النبى صلى الله عليه وسلم : للدكتور محمد كامل الفقى .
٧٧ – عناية الإسلام بالصحة البدنية : للسيدة كاملة الأنوار محمد حجاب .
٧٨ – الإسلام .. وتحريم المخدرات والمسكرات والمفترات :
للدكتور السيد عبد الحكيم عبد الله .
٧٩ – علماء فى وجه الطغيان : للدكتور محمد رجب البيومى .
٨٠ – من معين القرآن (الجزء الثانى) : للدكتور محمود بن الشريف .
٨١ – قبس من الإسلام : للشيخ معوض عوض إبراهيم .

رقم الإيداع ١٩٨٨/٤٧٥٤
الترقيم الدولى : ٦-١٩٢-١٦٣-٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة
٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة